C H E F

الشيف

رواية من الأدب الهندي الحديث

جاسبريت سنغ

رواية
NOVEL

ترجمة

سعد جواد محمد عوض



كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الشيف

رواية مترجمة من الأدب الهندي الحديث..

جاسبريت سنغ
ترجمة: سعد جواد محمد عوض

عن الرواية

تظل المعلومات القادمة عن الأدب الهندي المعاصر شحيحة وخجولة بسبب ضعف حركة الترجمة منها إلى لغتنا العربية، على الرغم من قرب هذا الأدب من الروحية الشرقية العربية؛ إذ إن ما يجمعنا بثقافة شبه القارة الهندية أكبر من الأدب الغربي، لتقارب الظروف الاجتماعية والسياسية ونمط الحياة والعمق التاريخي.وهذه الرواية جهد في تقريب الصورة. إنها بروفايل واسع مأخوذ من منطقة صغيرة مضطربة هي (كشمير)، أو ظل الجنة كما يسميها أهلها، والتي ظلت منذ تأسيس باكستان بانسلاخها عن الهند نقطة صراع دائم سبّب ثلاث حروب للبلدين من بين حروبهما الأربع.

يقدم (جاسبريت سنغ) في روايته الشيف على لسان أبطاله مونولوجياً داخلياً مؤثراً عن الذكرى والآمال المحطمة عن صراع السلطة وخديعة الحكام، عن الخيبات والحب والتشبث بالحياة من أجل الآخر. يقول على لسان أحد الابطال وهو يرى الآلاف من الضحايا في الحرب العبثة، وفي لحظة يأس عدمية بليغة: "لماذا نحتاج كشمير؟ نحن نموت من أجل لا شيء".

بهذا النشيج المرير يستعرض الكاتب تاريخ البلاد المتداخل متتبعاً تجارب إنسانية فريدة بأسلوب شاعري مميز يجمع الإثارة والتشويق، في إطار معلوماتي يوفر لقراء العربية مساحة معرفة فاتنة عن تلك البلاد شبه المجهولة.

دار الرافدين إذ تقدم هذه الرواية الحائزة على العديد من الجوائز الادبية والمتصدرة لقوائم المبيعات في المكتبات العالمية، فإنها تؤكد سعيها لتقصي الجمال أينما يكون والتزامها بتنوع مصادره وتميز نماذجه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإهداء

إلى أرواح أشقائي وشقيقتي، ضحايا الإرهاب الأعمى وظلم الإنسان لأخيه الإنسان، أهدي ترجمة هذه الرواية.

المترجم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عن المؤلف

وُلد جاسبريت سنغ في البنجاب وتربى في كشمير ومدن أخرى عديدة في الهند وهو عالم باحث سابق حاصل على شهادة الدكتوراه في الهندسة الكيميائية من جامعة ماك جل في مونتريال بكندا. حازت مجموعته القصصية القصيرة الأولى الموسومة- «سبع عشرة حبة من الطماطة» في عام 2004 على جائزة ماك أوصلان للكتاب الأول. حازت روايته الأولى «الشيف» على جائزة جورج بوكنت للأدب الروائي وظلت طوال عام 2010 ضمن القائمة الكبرى للكتب المرشحة لجائزة دبلن الدولية للأعمال الأدبية.

في عام 2011 وضعت هذه الرواية ضمن القائمة المختصرة للكتب المرشحة لجائزة أفضل كتاب في دول الكومنولث. وأدرجت عام 2012 ضمن قائمة الكتب المرشحة لجائزة هوغ ماكميلان للأدب الروائي وللجائزة الأدبية للجمعية الكندية للكتاب والمؤلفين.

يعيش جاسبريت سنغ الآن في كندا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة المترجم

تُعدّ المكتبة العربية فقيرة في ترجمة الأعمال الأدبية من الأدب الآسيوي وذلك لعدم وجود مترجمين يقومون بإيصال هذه الأعمال الأدبية إلى القارئ العربي من شتى اللغات الآسيوية ما لم تنشر هذه الأعمال باللغة الانكليزية.

رواية جاسبريت سنغ «Chef» التي كتبها باللغة الانكليزية ونشرت عام 2010 في كل من كندا والولايات المتحدة وسنغافورة تعدُّ واحدة من الروايات التي حازت على العديد من الجوائز الأدبية ولا تزال ضمن قائمة الكتب الأفضل مبيعاً في المكتبات العالمية.

لقد كتب سنغ هذه الرواية بعد مجموعته القصصية الأولى بأسلوب وإحساس يجعلك تحسُّ الكتاب وتسمعهُ عند قراءته. فهي رواية ترحل بقارئها بين عدة دول وعدة ثقافات وتجارب إنسانية ليس من السهولة الجمع بينها وذلك لأنها تمتاز بأسلوب هو الأقرب إلى الشعر المنثور.

لقد عكس المؤلف معاناة الكثير من الناس جراء انعكاسات ونتائج انفصال الباكستان وسلخها من الدولة الأم الهند بأسلوب رائع يحكي قصة هموم الناس من شتى الأديان جراء تحكم السياسة بمصائر الناس وعلاقاتهم الإنسانية.

حاولت وأنا أترجم هذه الرواية أن أقدم عملاً روائياً باللغة العربية لا يقل في قيمته عن النص الأصلي وأتمنى أن أكون قد وفقت في ذلك.

سعد جواد محمد عوض

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القسـم الأول

(1)

زمن طويل قد مضى بقيت فيه بعيداً عن أناس معينين. تأخرت في الوصول إلى المحطة. ولم أستطع اللحاق بالقطار السريع بسبب الرئيس الأميركي، فقد اجتاز موكبه ساحة رودفورت التي لا تبعد كثيراً عن محطة القطار. يزور الرئيس الأميركي الهند لكي يوقع الاتفاق النووي بين الولايات المتحدة الأميركية والهند وهو يقيم في فندق تاج الذي ابتكر طباخوه نوعاً جديداً من الكباب إكراماً له، كل هذا نشر في صحيفة اليوم حيث تصدرت صورة طبق الكباب، الذي جعل لعابي يسيل، الصفحة الأولى من الصحيفة.

ليس بعيداً عني، وعلى الكرسي المحاذي للممشى جلست فتاة صغيرة، وحبة خوخ تتوهج في يدها. قبل لحظات سألت أمها: ما الذي نفتقده كثيراً عندما نموت؟. وكنتُ سأجيب لكن أمها وضعت إصبعاً غليظاً على شفتيها: شش «يجب على الصغار عدم التحدث عن الموت» ورمقتني بنظرة اعتذار خاطفة. «إنه الطعام»، أجبتُ الصغيرة: نفتقد الخوخ والكرز ورقة البهار الهندي وأسياخ الكباب اللذيذة. الموتى لا يأكلون المشويات لأن رائحة الشواء تملأ أنوفهم ليلاً ونهاراً.

بعض ما دار بين الأم وابنتها جعلني قلقاً، نظرتُ من خلال النافذة لقد كان القطار يمرُ بالقرى التي لا أعرف حتى أسمائها، غير أنَّ حقول الخردل الأصفر المتمايلة والظلام المتنامي ملأ نفسي بعدم الارتياح للحظة استقالتي من الجيش، ووجدتُ نفسي ألقي السؤال نفسه مرة بعد أخرى «لماذا سمحتُ لحياتي أن تأخذ هذا المسار الخاطئ»؟.

قبل أربعة عشر عاماً كنت طباخاً في مقر إقامة الجنرال في كشمير، أتذكر بستان الفواكه الممتد أمام شباك المطبخ، لخمس سنوات كاملة أعددت له الطعام في ذلك المطبخ، وبعدها فجأة سلمتُ له استقالتي وانتقلتُ إلى دلهي، لم أتزوج مطلقاً، كنت أطبخ لأمي، والآن وبعد مرور أربعة عشر عاماً ها آنذا أعود إلى كشمير.

هذا لا يعني بأنني طوال تلك السنين لم أكن راغباً بالعودة، كانت الرغبة في بعض الأحيان شديدة خصوصاً عندما سمعتُ بالهزة الأرضية هناك والدمار الذي خلفته، غير أنَّ الأرض تهتز غالباً في الجانب المعادي. وخلال سنوات خدمتي الخمس كنتُ ملتصقاً بالجانب الهندي، الجانب الأكثر جمالاً وروعة فما زال ذلك الجمال محفوراً في عقلي، نوع من الالتصاق لا يمكن أن يشارك فيه الآخرون، فمعظم الأشياء المهمة في حياتنا تشبه وصفة الدواء، لا يمكن أن تكون للجميع، تمكث فينا وتؤثر بأنفاسنا وتتعب عظامنا.

«إنَّ الورم موجود في دماغك»، هكذا قال الاختصاصي. (الأسبوع الماضي وفي الساعة الثالثة وصلت نتائج الفحص الشعاعي إلى العيادة. عكست صور الفحص الشعاعي السوداء وجود شيء ما داخل ذلك الصندوق ذي الضوء المتوهج). أشرَّ بإصبعه باتجاه منطقة تمثل رقعة صغيرة بيضاء كالثلج وإلى جوارها ثمة شكل مرعب لحلقات غامقة في جذع شجرة. «ثلاثة أشهر إلى سنة على الأبعد» ما أن قال الأخصائي ذلك حتى وجدتني فجأة أشعر بأني ضعيف جداً ويكاد يغمى عليَّ، تلاشى صوتي وبدأ العالم من حولي بالذبول.

عدتَ إلى المنزل من خلال ذلك الشارع المزدحم شاقاً طريقي تحت الغيوم والضباب. استقبلتني أمي عند الباب، كانت تعرف، كانت تعرف منذ زمن. أمي (التي أعدت لي كل وجبات الطعام عندما كنتُ شاباً) عَرَفتْ ما لم أعرفه. ناولتني رسالة ومشت ببطء إلى سريرها. كان ختم البريد يشير إلى أنها من كشمير، وأخيراً بعد أربعة عشر عاماً أرسل الجنرال كومار الرسالة. كم أفرحتني تلك الورقة الرقيقة حتى إنها جعلت عيناي تدمعان. ابنته ستتزوج وبأسطر مخربشة على عجل دعاني لأن أكون طاهياً لمأدبة الزفاف.

قرأتُ الرسالة ثانية وأنا جالس قرب المنضدة في المطبخ، إجابتي ستكون على الأغلب الرفض، حتى إنني لم أخطط للرد على الرسالة. شعرتُ بالإعياء. ولكن عند المساء وبينما أنا أعدُّ الحساء غيرتُ رأيي، اعتدتُ أن أتخذ كل القرارات المهمة أثناء الطبخ، أمي التي كانت طريحة الفراش معظم الوقت وكنتُ أقدم لها الطعام في الساعة الثامنة مساءً، كالمعتاد ودون أن أكشف عن المصيبة المتخمرة في دماغي، ببساطة قرأتُ لها رسالة الجنرال أثناء العشاء.

هل أنت واثق؟ سألت «أتريد الذهاب»؟

أجبتها: «بالطبع من المستحيل أن أقول لا».

عزيزي كب، لأوقات عديدة فكرتُ أن أكتب إليك، لكني لم أفعل. أنت تعرفني جيداً، فإن كل حياتي في الجيش قد جعلت مني دولاباً مسنناً يجعل ما هو عمليٌّ في حينه غير أساسي.

ابنتي، التي رأيتها آخر مرة وهي طفلة، ستتزوج وهي من أجبرتني على كتابة هذه الرسالة. سمعت بأن والدتك مريضة، لكن هذه مناسبة مهمة في حياتنا، وتود أن تكون الشيف في حفلة الزفاف، ولا أريد أن يقوم غبي أخرق بإفسادها.

أنت الرجل المناسب لهذه الحالة الطارئة، وأود أن أراك، فأنا متعب ولدي الكثير لأقوله وأبحثه معك، قد تكون حفلة الزفاف هذه آخر معركة لي وأرجو لأجلنا أن أكسبها، أنا واثق بأنك لن تخذلني.

المحب لكم

اللواء المتقاعد أشوبيني كومار - القيادة الشمالية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اعتادت ابنة الجنرال أن تناديني «كب - انغ» (بدلاً من كبرال سنغ) ومنذ ذلك الحين التصق بي اسم «كب». في الجيش لكل واحد اسم ثانٍ. كان الاسم الثاني للجنرال كومار هو «الأحمر» الذي كان نادراً ما يذكر بحضوره.

- سألت أمي: كم يوماً ستمكث هناك؟.

- أجبتها: سبعة أيام، سبعة أيام أو ثمانية أيام. ويجب عليَّ الذهاب يا أمي، جيراننا سيهتمون بكِ كما أن تناول طعام غيري سيحسن حالكِ. لم تكمل أمي الحساء، أسندت رأسها الهش على مخدتين بيضاوين وأمسكت ذراعي كما لو أننا لن نرى بعضنا ثانية.

ألححت عليها أن تأخذ الأقراص الصفراء والكبسولات ولقد وافقت فقط بعد أن رفعت صوتي، لقد كنتُ نادراً ما أرفع صوتي بحضورها. شيء ما بداخلي كان يتغير بالتأكيد. بعد ذلك أريتها بطاقة الزفاف.

روبيا كومار

تتزوج

شاهد لون

- سألتُ: إذن فابنة الجنرال ستتزوج مسلماً؟

- ليس مسلماً فقط، وأضفتُ، ولكن رجلاً من الجانب الآخر للحدود.

ولكي أوضح هذا الأمر فإن الجنرال كومار لم يكن يغتاظ من المسلمين، فلقد كان هناك جنود مسلمون في وحدتنا ولم يكن أبداً يتعامل مع أحد منهم بشكل عنصري حسب علمي. ولكن، بالطبع، الجنرال كومار لم يكن مرتاحاً لهذا الزواج، لقد قرأتُ الرسالة مرتين وأشعر بأن يديه كانتا ترتجفان عندما أمسك القلم. لقد أعطى الجنرال شبابه من أجل شعبنا لكي يبعد الباكستانيين عنا، قاتل في حربين، والآن ابنته تريد الزواج بأحدهم، هل قدم العديد من الجنود حياتهم من أجل لا شيء؟

إن هذا القطار يسير أبطأ من بغل يتسلق الجبل، ماكنة قديمة، أدركُ أنها تشبهني من جوانب عدة، لكن عمال شركة السكك الحديد يصرون على تسميته بالقطار السريع. أعدت وضع نظاراتي ودار نظري بين الوجوه المشوشة واحداً بعد الآخر، آذان وعيون وأنوف الآخرين في الحياة أكثر مني. امتلأت مقصورة القطار برائحة المخللات النافذة والأحاديث المرتفعة والغامضة وبدأ الذباب يتجمع على ثمرة الخوخ التي كانت بيد الطفلة الصغيرة.

ما أن أُعِدّ مأدبة الزفاف بشكل متكامل فإن الجنرال كومار سيوصي بي كبار الأخصائيين في المستشفى العسكري وسيبدأون بمعالجتي مباشرة. لديَّ احترام وتقدير عالٍ للأطباء العسكريين. من أجل أمي يجب أن أعيش فترة أطول. لا أدري لِمَ رفعت صوتي بحضرتها؟. إنها بحاجة إليَّ أكثر من أي وقت مضى، يجب أن أعيش لمدة قصيرة. لربما كانت الأمنية الإنسانية بأن أعيش فترة قصيرة أطول هو ما دفعني لأن أغيرّ رأيي.

ولكن الأمور يجب أن ترتب أولاً. قبل أن أبدأ بالعمل من أجل الزفاف أريد من الجنرال أن يرتب الأمور (الأشياء) بيننا. فطوال الأعوام الأربعة عشر الماضية كنتُ أتوقع في كل يوم أن تصلني رسالة منه، والآن انتهى انتظاري فالرسالة في جيبي. كنتُ أتوقع أن تكون الرسالة طويلة، أن تحمل الماضي الكامل الذي بيننا، غير أنه لم يقدم لي شيئاً لم يقدم شرطاً. أريد منه أن يرتب الأشياء بيني وبينه لا أن يتظاهر بأنه كان سوء فهم بسيط.

ما زلت أتذكر اليوم الأول الذي وصلت فيه كشمير لأول مرة، كانت الجبال والبحيرات مغطاة بضباب كثيف، كنتُ في التاسعة عشرة من العمر وكنتُ قد اشتريتُ بطاقة في الدرجة الثانية على هذا القطار نفسه، لأسباب عدة أتذكر بأن القطار كان أسرع حينها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

لقد استغرقتُ في النوم حتماً وأيقظتني ربتةٌ على كتفي، «هل هذه الحقيبة لك، هل أنت صاحبها؟» اثنان من العاملين في الشرطة كانا في مقصورتنا.

«نعم تلك الحقيبة تعود لي» هكذا أجاب الراكب المدني الجالس على الكرسي المحاذي للممر مكان الفتاة التي لم تعد موجودة. أحد رجال الشرطة كان يلصق العلامات على الحقائب بعد التعرف عليها.

أضاف الرجل: «وهذه الحقيبة البنية تعود إلى زوجتي».

«لمن يعود صندوق الثياب هذا»؟.

أجبتُ: «إنه لي».

«إنك لا تبدو كضابط مفوض».

«كان يعود إلى جنرال».

«أرني بطاقتك الشخصية».

«لقد نسيت بطاقتي».

«ما اسم الجنرال»؟

«إنه متقاعد الآن».

«الاسم»؟

«إنه المحافظ الجديد لكشمير».

«الاسم»؟

«الجنرال كومار».

نظر رجلا الشرطة إليَّ بازدراء، وكانت أسلحتهما معلقة على عنقيهما أدار الأصغر منهما ضوء مصباحه وسأل: «ما هي الأشياء الموجودة في الداخل؟» لم أجبه وأشفقت على ازدرائهما لي وقلتُ: «افتحها». نقل أحدهما الصندوق الثقيل إلى الممر وناولته المفتاح. كان يرفع القناني بشكل عنيف دون أن يقرأ العلامات الملصوقة عليها. كان وجهه مشابهاً لوجوه الناس التي لا تتحمل مسؤولية أفعالها.

«ما كل هذا؟»

«ألا ترى؟» بادرت المرأة المتوسطة العمر، التي تجلس بجانبي، لإنقاذي فقالت: «هذا... وذاك هو الدارسين... الهيل، الكزبرة، كفوف، الحلبة، الرمان المطحون، حبوب الخشاش، تويجات الورد، سيقان الكروب، جوز الطيب، وقشرة الجوز».

سأل رجل الشرطة الأول: «ولِمَ كل هذه التوابل»؟.

سأل الثاني: «هل أنتَ امرأة»؟.

بضحكات خافتة من قبل الاثنين رددا: «يحمل مطبخاً كاملاً في القطار». قال أحدهما من النهاية الأخرى للعربة وهو ينظر إليَّ بعينيه بأسلوب تمثيلي: «السبب الوحيد لتركك تذهب هو أن صندوقك ليس تابوتاً حقيقياً». وتعالى الضحك بعد تلك الإشارة الغريبة وغادرا.

حلَّ الصمت بعد ذلك ولم يبق إلا صوت القطار.

كانت الهند تمر من أمامي خارج النافذة. أعدتُ وضع نظاراتي، إنها تمطر باعتدال، وقد أسعدني المطر لأن الهند تبدو جميلة في أثناء المطر لأنه يخفي كآبة هذه البلاد وقبحها. ساعدني المطر على نسيان نفسي، رأيتُ صورة وجه على زجاج النافذة، مَنْ ذلك الرجل ذو البقع اللامعة في شعره؟ ما الذي أصبحتُ عليه، غير أن الأشياء الأكيدة لا تتغير أبداً. لديَّ وجه شخص يقوم بالأعمال الجادة دائماً، شخص لا يعرف كيفية إضاعة الوقت. والآن وحتى هذا سينتزع بعيداً عني».

لا أحد من المسافرين فهم الشرطيين عندما قالا: «السبب الوحيد لتركك تذهب هو أن صندوقك ليس تابوتاً حقيقياً». إن بلادنا تنسى بسرعة، فهم لا يتذكرون خدعة التابوت التي كانت تحدث في صفوف الجيش أثناء الحرب مع الباكستان والتي كلفت الجنرال عدم ترقيته. بسبب الخدعة لم يستطع أن يصبح رئيساً لأركان الجيش.

لقد كان بريئاً حقاً. كان الضباط الأدنى رتبة منه يغارون من قابليات كومار ويخدعونه. لم يحصل كومار على الاحترام الذي يستحقه لم يكن هنالك من سبيل لأن أشرح لهؤلاء المدنيين ما هي خدعة التابوت وحتى إن فعلت ذلك فإنهم لن يفهموا.

كانت المرأة المتوسطة العمر تتفحصني، تنظر إلي من زوايا عينيها. كانت تواقة لأن تسألني آلاف الأسئلة، كان وجهها يشبه صحن فطائر مليئة بالبهارات والخضر تُرك تحت المطر طوال الليل. عندها قال الرجل الذي يجلس عبر الممر بأنه فخور بالجيش الهندي. وبعد أن غادر الشرطيان سألني: «ما الذي كنت تفعله في الجيش سيدي»؟.

- «كنتُ أحافظ على صحة وراحة كبار الضباط».

- «ما الذي كنتُ تعملهُ بالضبط سيدي»؟.

- «كنتُ طباخ الجنرال لمدة خمس سنوات».

- «أوه أكنت طباخاً»؟، قال ذلك وسيطر على ابتسامته، فيما لم تستطع زوجته أن تسيطر على نفسها، فلقد نظرت من أعلى المجلة اللامعة التي في يديها وضحكت. لم تستطع المرأة، المتوسطة العمر، بأن تخفي ضحكتها ولا الركاب أيضاً.

بعدها، وفجأة، وكما لو أنه يحاول أن يكسر الصمت سأل: «هل حاولت أن تفوز بقلب امرأة من خلال طبخك سيدي؟».

لم أرد عليه.

- «لكنك يجب أن تكون؟».

- أجبتهُ: «ليس هناك نساء في الجيش».

- لكن يا سيدي النساء يقعن في حب الرجال الذين في الجيش. وأنت يا سيدي تملك سلاحاً عظيماً في يدك «الطبخ»، هل حاولت يا سيدي أبداً أن تجعل امرأة تقع في الحب؟».

- «إنني آسف»، فأنا أبحث عن بائع الشاي، هل سمعت البائع الذي ينادي على الشاي؟.

- أوه، نحن لدينا شاياً في الترموس، رجاء صُبَّ لنفسك بعضاً منه.

- لا، لا، شكراً جزيلاً.

استدرتُ باتجاه النافذة، وتوقفت المحادثة.

كان المنظر خارج النافذة أكثر تأثيراً ومتعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(3)

كان القطار يجتاز الأراضي الهندية ليلاً، الليل كما المطر يخفي قبح المكان، كنا نسير خلف ظهور الدور التي كان فيها آلاف الأضواء الخافتة مضاءة في داخلها، اجتزنا العديد من المدن والقرى، تذكرتُ رحلتي الأولى إلى كشمير على هذا القطار، كان يوماً حاراً جداً وعلى الرغم من ذلك كان المسافرون يحتسون الشاي فيما ملأت العربة رائحة تشبه رائحة العرس. كانت فتيات مرتديات زي الساري الجميل يجلسن ليس بعيداً عني وكان بعضهن لا يتكلمن الانكليزية، كان لون بشرتهن رائعاً كلون الفاكهة الناضجة، كم كنتُ خجولاً حينها، كم كنتُ تواقاً للتحدث معهن لكني تظاهرتُ بعدم الاكتراث وكنتُ قد التقطتُ الصحيفة التي تركها الرجل الذي كان يجلس في الزاوية وخبأت وجهي وراء الأخبار، كنتُ أختلس النظر إلى الفتيات وعندما ترنو واحدة أو اثنتان بنظرة كنتُ أختبئ ثانية خلف الكلمات. ومرة تعلقت عيناي بعيني فتاة ذات وجه بيضاوي وكانت لحظة حرجة. بدأت بالهمس وفجأة صراخ تبعه ضحكات عالية فشعرت بأنهن جميعاً كن يضحكن عليَّ فاختبأت ثانية خلف الصحيفة. كم كنت تواقاً للتحدث معهن وراغباً في أن يدعنني وحدي في العربة لأني لا أستطيع تحمل المزيد منهن، كنتُ أريد منهن أن ينشغلن بأمورهن ولا يزعجنني، وكم شعرتُ بالوحدة في تلك العربة الفارغة تقريباً عندما غادرن على أحد الأرصفة الغريبة. لقد أضعتُ فرصتي، فرصة جميلة قدمت نفسها إليَّ لكني أفسدتها.

ما بين التعامل والتفكير بالوحدة وغياب الفتيات بدأت قراءة الصحيفة، لمرات عدة قرأت الموضوع الذي وضع حاجزاً بيني وبين الفتيات الجميلات فقد كان يحتوي على صورة لجثة أحد الجنود.

العثور على جثة جندي بعد ثلاثة وخمسين عاماً

عثر مهاجرون، يستقلون عربة تجرها الثيران، فوق حافة منعزلة من مثلجة الهملايا على جثة محفوظة بشكل كامل لجندي بعد ثلاثة وخمسين عاماً من مقتله في حادث تحطم طائرة واكتشفوا بأن الجثة ما زالت مغلفة ببذلته العسكرية وأن أوراقه الشخصية كانت في جيبه. وقد أعلن عن هذا الاكتشاف يوم أمس في المعسكر الرئيس.

كما عثر الفريق على أجزاء من الطائرة قريباً من جثة الجندي كما وأن جثثاً أخرى يمكن أن تكون مدفونة في الثلوج.

من المؤكد أن حادثة التحطم حصلت أوائل عام 1934 وأن الجندي ربما كان مستقلاً للطائرة من أو إلى لاداخ المنطقة المرتفعة من كشمير.

في عام 1934 كانت الهند قد قسمت من قبل البريطانيين إلى دولتين هما الهند وباكستان، وعليه فإنه ليس من الواضح ما إذا كانت الجثة تعود إلى الهند أو الباكستان. لقد خاضت الدولتان أربعة حروب ثلاثة منها كانت حول كشمير.

في زيارتي الأولى إلى كشمير وجدت أنها تختلف عن الطريقة التي يصفها بها العمال في دلهي بأنها «الجنة» أو «ظلّ الجنة». كنتُ حينها شاباً لكني قادرٌ على التمييز بين الرومانسية والواقعية، كان

الضباب كثيفاً والجو بارداً جداً ولم أكن أملك المعطف الملائم، وصلتَ وكان معي حقيبتي وكتاب التطوع في جيبي وبعد وقت وقفت على الساحة الخضراء أمام مقر الجنرال واختفى صوت القطار من رأسي.

اصطحبني رجل يرتدي بذلة من البوابة إلى مقر إقامة الجنرال، كان بيت الآمر يقع على تلة تطل على ساحة الغولف، كنتُ قد انتظرت لمدة نصف ساعة في الباحة الخضراء، واعتقدتُ أنني سأتجمد عندما خرج رجل متوسط العمر من البيت، كان يرتدي مئزراً ذو شعر قصير ووجه حليق وحاجبان رفيعان وأذنان طويلتان بشكل غير اعتياديٍّ وكان ذا بنية قوية. هرول كلب أسود قبله وجاء ليشمني ولامسني أنفه.

- سألته: «كم يبلغ من العمر؟».

- فأجابني: «كلنا نكبر، أربعة عشر، ربما يبلغ الرابعة عشرة».

- كم تعيش الكلاب سيدي؟».

لم يجبني وغادر ببطء، وسط الريح باتجاه رقعة مسيجة في حقل الخضار، فتح باباً خشبياً صغيراً ثم أغلقه، كان الكلب يطوف حول السياج وعلى الجانب الآخر انحنى الرجل ليقطف أغصاناً بدت لي بأنها أغصان حلبة أو كزبرة. لقد كان خارج حدود مخيلتي كيفية نمو الخضراوات في هذه البرودة القاسية.

- «تعال»، طلب مني أن أتبعه.

وحين ناولته كتاب تجنيدي قال لي: «ليس الآن».

في الطريق إلى المطبخ ربّت الرجل على ظهري، كان أطول مني بمقدار انج أو اثنين، ربتته تلك جعلتني أشعر بعدم الارتياح.

- «اتبعني»، خاطبني قائلاً: «لقد أخبرني مدير مكتب الجنرال عنك وأعطاني التعليمات».

- «ماذا أدعوك سيدي»؟.

- «أنا رئيس الطباخين».

- «سيدي».

- نادني بالرئيس كيشان». (الشيف كيشان).

- «سيدي»

- «نادني بالرئيس فقط».

- «نعم سيدي».

- ثم قال: «اتبعني مع أمتعتك».

دخلنا غرفته الكائنة بين المطبخ وقاطع الخدم، كان المكان يفوح برائحة كريم الحلاقة، وقطع من الصحف ألصقت على الجدران، صور لمدينة بومباي وممثلات يرتدين الساري الممتع ومعهن ممثلتي المفضلة وحيدة. وعلى منضدة جانبية كان جهاز التسجيل يصدح بموسيقى لم تألفها أذناي.

- قال: «إنها موسيقى ألمانية».

- فأجبته: «لم أتخيل ذلك».

- «هل يزعجك ذلك؟».

- «لا سيدي».

- «موسيقى راقية».

كان هناك سريران متجاوران شكلا ظلاً كبيراً على الأرضية، بينما شكل جهاز التسجيل ظلاً مربعاً على الحائط. وما أن أشار الشيف باتجاه السرير الأصفر حتى شعر جسمي فجأة بتعب الرحلة الطويلة، أسقطت حقيبتي وجلست على السرير.

- فقال لي: «ليس الآن واصل متابعتي».

مطبخ تملؤه رائحة الكمون والهيل، وعلى المنضدة كانت هناك كومة صغيرة من جوز الطيب، فيما كان زيت الزهر الكثيف يبعث ببخاره من إناء على الموقد، كانت الغرفة دافئة وواسعة ذات شباك عريض عالٍ غطت أعلى زجاجه قطرات متكاثفة صغيرة والدخان يرتفع باتجاه السقف خلال أعمدة الضوء. لاحظت العديد من الأواني اللامعة ومقالٍ معلقة على الجدران المطلية بماء الكلس.

وفي الزاوية كان الفرن البخاري جاهزاً ووهجه البرتقالي يحرك الأواني المعلقة على الجدران. اتجهت إلى الفرن وانحنيت عليه فأحسست بموجة حارة تضرب خداي وعندها وضع ذراعه على كتفي وأخذني باتجاه غرفة الطعام، قائلاً لي: «المطبخ بدون وجود مديرة المطبخ». مكان رائع للعمل.

- «سيدي».

لقد كانت مديرة المطبخ امرأة جميلة يبلغ طولها خمسة أو ستة أقدام، عيناها كبيرتان واسعتان، ذات شعر ناعم، لون بشرتها يشبه لون الدارسين وقد لفَّت على جسدها مئزراً جميلاً أحمر.

- «كان السيد الجنرال يحبها كما لو أنها ملكة المغول وبالمقابل كانت تحبه بالطريقة التي تحب فيها كلبها».

- «سيدي».

- «لقد أحبتني أيضاً».

- «نعم سيدي».

- «ما الذي تعنيه بنعم سيدي؟» «لقد كانت ساقطة، إنها من الناس الذين يديرون المطبخ، تعدّ الملاعق، كم من مرة اختبرت ثقة العاملين، تلك المرأة كانت تمنع ممارسة الطبخ بدون لبس ثياب الطبخ، وكنت في الأقل أرتدي سترتي بوجودها، كانت تأتي فجأة. كانت تعد الحلوى بنفسها كل ثلاثاء وتجبرني على تذوقها وإن أخطأت بكلمة، أقسم، بأن ذلك يجعلها تشتم بالانكليزية. كان ذلك صعباً عليَّ، وأصعب شيء كان أن أمسك لساني».

- «سيدي».

- «لقد رفضت تلك المرأة تغيير وصفات إعداد الطعام، كانت تقول: «إن تغيير وصفة الطعام يشبه العبث مع روح الميت».

عند ذلك سمعت أصواتاً عالية تصل إلى المطبخ من الغرف الأخرى. رن الجرس طلباً للخدمة فآثر الشيف استبدل استراحة التدخين بالاستجابة ودخل غرفة السيد الجنرال حاملاً صينية الشاي ولفائف لحم الخنزير فلقد كان السيد مغرماً بلحم الخنزير، أخبرني بذلك قبل أن يغادر المطبخ. كان لمشيته إيقاع وهو يردد: «سأطلع على أوامر الغداء أيضاً في غرفة السيد». وكان لفظه لكلمات اللغة الانكليزية غير دقيق. وفي الحال عرفني بالكثير عنه. لقد التحق بالخدمة في الجيش بوصفه جندياً اعتيادياً، وبعد أن أصيب بالحرب تم إرساله للخدمة في قاعة الطعام الخاصة بكبار الضباط. ارتكب أولى أخطائه في اجتماع لضباط القيادة الوسطى عندما رفض أن يقدم الشاي لضابط مسلم. وأضاف الشيف قائلاً: «لقد رفضتُ تقديم الشاي لذلك الرجل».

المشكلة مع هؤلاء الناس أن رائحة الحقد الكريهة تفوح منهم، ذلك هو السبب، «لقد كشّر المقدم عن أنيابه عليَّ وأنبني بقسوة». «نقلت بعدها إلى المطبخ بوصفي غاسلاً للصحون ولكن بعد أشهر قلائل طردتُ ثانية». «لقد جعلت من المطبخ أرضاً لي وأعجب الضباط بقدراتي الفائقة في الطبخ، اختارني قائد الفرقة لأدخل دورة تدريبية لمدة أربعة أشهر في كازينو عالمية تديرها السفارات الأجنبية في دلهي لتعلم إعداد أنواع من الطعام الألماني والفرنسي والصيني والإيطالي»، أرأيت؟ لو أني لم أرفض تقديم الشاي لذلك الضابط المسلم فإني لم أكن لأصبح شيفاً. أتفهم ذلك»؟.

- فأجبته: «نعم سيدي».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(4)

حلَّ منتصف الليل تقريباً وازدادت سرعة القطار باتجاه محطة بانيبات، كان المصباح المعلق في السقف يرسل ضوءه المتقطع فيما كانت مروحة سقفية تدفع بهوائها الحار، ولم أكن أمتلك أي فكرة مطمئنة كان الصرير العالي لاحتكاك المعدن بالمعدن ينافس تدافع الركاب في تلك الساعة الجنونية، كانت طفلة تنزل الشباك وترفعه ثانية فيما كان والداها يغطان بنومهما وفاهاهما نصف مفتوحين، كان وجهاهما يتحركان من اليسار إلى اليمين ومن اليمين إلى اليسار وكأنهما البندول. عبر اتجاه قطري مني جلس عروسان وفوقهما كانت حقائبهما الملونة الزاهية، كانت الزوجة شابة جميلة علقت وردة ياسمين بيضاء في شعرها ولقد أعجبني نقش الحناء على أسفل رقبتها وكفيها فيما كان زوجها، وهو يرتدي بنطالاً من القطيفة، متلهفاً لأخبار بطولة العالم بالكريكت الجارية اليوم في أستراليا، كان يحمل الراديو الترانزستور قريباً من أذنه وما بين الحين والآخر يرفع يده الأخرى ويدخل أصبعه بين خصلات شعر زوجته الشابة. كانت هذه التعابير العاطفية غير ممكنة وسط المجتمع عندما كنت شاباً.

طلبت منه زوجته أن يطفئ المذياع، ابتسم ورفع الصوت فنال استحسان الجالسين إلى جواره فقد كانوا يحبون أن يعرفوا النتيجة، بدأت الطفلة الجالسة على يميني بالتثاؤب ولم تعد تمارس لعبتها مع الشباك. توقف التعليق على مباراة الكريكت بسبب الإعلانات وأخبار رأس الساعة، وكان صوت المذيعة يدل على ثقافتها، كانت ذات صوت رائع وقد ابتدأت بأخبار الأمس بخصوص الرئيس الأميركي.

أذهل الرئيس شعبنا اليوم بزيارته لنصب غاندي التذكاري للسلام وعلى الرغم من هذه المبادرة فقد تظاهر العديد من أبناء شعبنا أمام السفارة الأميركية في دلهي، هاجموا بغضب الكلاب، وهذا ما حدث: بالأمس وقبل زيارة الرئيس تفحص رجال الأمن المكان بواسطة الكلاب. شعر الناس بأن الكلاب قد دنست المكان، وبعضهم غاضب ومصدوم لأن رئيس وزراء بلادنا قد تم تفتيشه من قبل الحماية الشخصية الأميركية (على التراب الهندي) قبل أن يسمح له بمصافحة الرئيس الأميركي، قالت ذلك المذيعة. بالأمس وفي أثناء مأدبة العشاء ألقى الرئيس الأميركي كلمة قال فيها: «إن أميركا بالتحديد ماضية لتوقيع الاتفاق النووي مع الهند وإن بلاده ستسمح باستيراد ثمار فاكهة المنغا»، فقلتُ لنفسي: «هذا شيء مثير»، فيما كانت زوجة الرجل الشاب تضع الكحل حول عينيها متفحصة وجهها البيضوي الشكل، بمرآة صغيرة.

انتهت الأخبار وعدنا إلى مباراة الكريكت وعاد الرجل للاستماع ثانية. «رجاءً اخفض صوت المذياع» طلبت ذلك منه فأدار وجهه: «رجاءً، أتوسل إليك» قالت ثانية: «الوقت الآن جاوز منتصف الليل». انحنى معتذراً ومقابل دهشتي أطفأ المذياع وبدأ بقراءة الصحيفة. بقدر تعلق الأمر بالكلاب فأعتقد بأننا الهنود يجب أن لا نعترض على الإطلاق، فلقد أحب غاندي الحيوانات، والكلاب لم تؤذِ أبا الأمة، إن كنا مصرين على اتخاذ موقف المهاجم الغاضب فيجب أن نهاجم بغضب قطاع الطرق والمجرمين المحليين الذين يلقون خطبهم الطويلة عارضين ما يدعى بالبيعة في نصب السلام التذكاري.

على الصفحة الأولى من الصحيفة هناك صورة للرئيس الأميركي وهو يأكل ثمار المنغا، يأكل الثمار الصفراء المائلة للاحمرار بواسطة السكين والشوكة، رأيت ذلك تحت الضوء المتقطع، وقد زادت رؤيتي للصورة من عدم ارتياحي. «لم تكن هذه هي الطريقة الاعتيادية لأكل المنغا». قلتُ ذلك مع نفسي يفترض أن تؤكل المنغا بالطريقة التي اعتاد عليها أبي، فإنه لم يستخدم سكيناً لقطع ثمار المنغا لقد كان يمتصها.

كان يأكل العديد منها في الجلسة، واحدة بعد الأخرى، جميع الأنواع، كان محباً للطعام الفاخر وصلصة الأعشاب بالتوابل،كان يستخدم يده اليمنى وباليسرى يمسك قطعة كبيرة من اللحم، يغرف غرفة كبيرة من الصلصة يعقبها بقضمة كبيرة من اللحم. وإن قدم له الحمل المطبوخ ببهار الكاري فإنه كان يفضل تناول المرق على قطع اللحم، كان يأكل الكباب دون فطائر الخبز، حتى هذه اللحظة أستطيع رؤيته بوضوح. كان أبي معنا في البيت بإجازة من فرقته لمدة يومين، كان يتناول الغداء مع شخص آخر من السيخ أيضاً بالزي العسكري،كنت أناديه «عمي» كانا يتحدثان عن كبار الضباط والحرب والعدو،وموقفنا إزاءهم.

كنت أرى ذلك على الرغم من أني كنت مختبئاً تحت المنضدة، كنت أستطيع سماعهم، لامست قدم عمي ساقي، فهربت من تحت المنضدة إلى غرفتي وأنا أسمع والدي يوبخني ببرود على عدم قيامي بواجباتي المدرسية. كنت أرى والدي من خلف الستارة يمتص الفواكه الواحدة بعد الأخرى، توقف عمي عن الأكل، كان يروي قصصاً متقطعة، ووالدي مستمر بمص الفاكهة، إلى الآن صورته أمامي وهو يمص لب الفاكهة إلى الأعلى، إلى اليوم أتذكر شكل يديه، كانت أصابعه تشبه أصابع الموسيقار.

ولكن.

كانت هناك أشياء لا يمكن أن يعرفها أبداً، لم تكن لديه أية فكرة عن الغضب الذي أحمله إلى اليوم، عميقاً في داخلي هناك الكثير من العواطف الكامنة، لربما كان السرطان الذي في داخلي نتيجة الخجل والذنب والغضب التي لم أجد لها طريقاً للخروج من جسدي فالأشياء المهمة في حياتنا لا يمكن استخراجها من أجسادنا.

لم أكن أريد أن ألتحق بالجيش، في دلهي كانت رغباتي مختلفة، كنتُ لتوي قد احتفلت بعيد ميلادي الثامن عشر، استيقظت متأخراً ذلك الصباح فقد لسع عيناي قلي الفطور بزيت الخردل فيما كان صوت أمي، من المطبخ، يدعوني للإسراع، مرقت مسرعاً إلى الحمام وعندما فتحت الباب رأيت ابنة خالتي في داخله. كنت قد فتحت الباب ظاناً أن الحمام خالٍ، إلا أنها كانت في الداخل تغتسل. كانت ابنة خالتي جميلة جداً، امرأة متزوجة. في نهاية ذلك النهار، وفي الكلية لم أستطع نسيان حلمتي ثدييها الغامقتين، وقطرات الماء المتحركة تنساب على جسدها البرونزي وثدييها الحنطاويين، حينها شعرت ببعض المتعة المحرمة وفي الوقت نفسه شعرت بالذنب كما لو أنني قد ارتكبت جريمة، كانت أول امرأة أراها عارية تماماً وبقيت تلك اللحظات تعود إلى ذاكرتي ذلك اليوم في الكلية، أولاً خلال درس الرياضيات، وثانياً خلال درس التاريخ، كنت أرى جسدها المبلل في كل مكان من قاعة الدرس وكنت أعود ثانية وثانية إلى اللحظة التي غطت رأسها بيديها (بعد أن بادلتني النظر للحظة) وشعرتُ حينها بأني لا يمكن أن أعيش دون أن ألامس ثدييها العاريين، «ما الذي كنت أفعله في قاعة الدرس؟».

كان المدرس يتحدث عن التاريخ المتداخل للهنود (خصوصاً السيخ) الذين قضوا في أوروبا يقاتلون في حربين عالميتين، كان الضوء ساطعاً والجو حاراً خارج القاعة، ومن خلال النافذة لاحظت أمي تسرع في الدخول إلى الكلية يصحبها رجل يرتدي بذلة التمويه العسكرية، اعتقدت بأن ابنة خالتي قد أخبرت عني وأنني سأعاقب.

وقفت أمي أمام الباب وتكلمت بسرعة مع المدرس، وفي الحال أمرني المدرس بصوت ناعم بأن أحزم كتبي. كان وجهها جامداً وأنا أسير باتجاه الباب. خيمت لحظة صمت على الصف، وعندها أحسست بأن شيئاً فظيعاً قد حدث، بدا الرجل الذي يقف خلف أمي قاسياً فلم يكن على وجهه ومضة ضوء وكانت بزته أنيقة ومنشاة وغير مجعدة وكان يحمل قبعة سوداء في يده، سرنا بمحاذاة الطريق خلف المنطقة التي كانت تنبح بها بعض الكلاب التائهة عند مرور أحد قطارات الحمل بشكل مواز للطريق، فسألني الرجل إن كان يستطيع التحدث معي؟ - «أيها الفتى، إن الأمة بأجمعها فخورة جداً بالرائد إقبال سنغ». غطت غشاوة عيني أمي، فهي ليست ككل النساء، نادراً ما تبكي أمام الآخرين. أمسكت يدي وببطء تسارعت في خطاها، كنا نسير بالاتجاه نفسه، البيت، وكانت المرة الأخيرة التي سرنا بها معاً ولم تأتِ الكلاب خلفنا.

والآن عندما أفكر بالأمر أجد أنها أيضاً كانت تخوض معارك، بينما كان والدي يقاتل في الحرب ضد الباكستان، كانت أمي تخوض المعارك مع نفسها. توقفت في منتصف الطريق وعانقتني ومن ثم تركتني أغادر فقد كانت تريد أن تبقى لوحدها.

في البيت استأثر جسد ابنة خالتي البرونزي على تفكيري بدلاً من والدي وموته وفي تلك الليلة قدمت ابنة خالتي وزوجها يصحبهما آخرين إلى البيت، شربوا الكوكاكولا المستوردة وتركوا ما يقدم في مجالس العزاء، وعندما انتهى مجلس العزاء أخذت كل القناني إلى الشارع وبدأت بركلها الواحدة تلو الأخرى وكانت تتدحرج بعيداً عني، حينها مرت طائرة فوقي محدثة غيمة بيضاء وصدرت قعقعة من شبابيك البيت.

في صباح اليوم التالي استمرت الكلاب التائهة بنباحها في الشارع وشعرت بالمرض في جميع أجزاء بدني، شعرت بوجود والدي في الغرفة، فوجدتني أصعد السلالم إلى الغرفة التي كان يحتفظ بها بصندوقه العسكري الأسود، داخل الصندوق وجدت مسدسه ومن دكة السقف بدأت بالتهديف والرمي على الكلاب التي في الشارع حتى صرخت أمي عليَّ من الجانب الآخر لحبل الملابس، واندفع الناس باتجاه بيتنا فسمعت أحدهم يقول: «ما هذا الذي تفعله؟». أمر محزن أنك ابن رجل شجاع، لماذا تجعل اسم أبيك في الوحل؟». فأجابته والدتي: «لم يفعل هذا الفتى شيئاً». ولم تستطع إتمام كلامها. وعندما غادر الناس سمعت نباحاً منفرداً لكلب على الممر وكان الوحيد الذي لم يهرب باتجاه المزبلة.

- سألت أمي: «كم واحداً قتلت؟».

- «ولا واحد».

- لا تكذب عليّ».

- «واحداً».

- «قاتل الكلاب».

- «جرح واحد أيضاً».

توسلت أمي إلي أن لا ألتحق بالجيش، وقالت:

- «إنك لم ترد ذلك أبداً».

- «سألتحق بفرقة والدي».

توسلت إليّ بعدم الانتقال إلى كشمير، هذا المكان غريبٌ علينا، إنها مليئة بالاضطرابات».

كانت تحاول نصحي بأن أتابع خطتي الأصلية، أن أدرس سنتين إضافيتين، أن أحصل على وظيفة مدنية، وبعدها أتزوج.

- قالت لي: «أنت وحيدي».

استدرت على عقبي وحييتها بالطريقة التي اعتاد أن يفعلها أبي كلما سافر، في المرة الأولى التي ذهبت بها إلى كشمير، سافرت بالقطار، حملت في محفظتي صورة قديمة بالأبيض والأسود لأبي. وها أنا أقول لنفسي: إن الأمر مختلف الآن، لأن الرجل في الصورة ميت حقيقة، ببذلة الضابط والنياشين على صدره، العمامة ووشاح الفرقة الأحمر، والنجوم اللامعة، وكل شيء يبدو مختلفاً. لم يكن والدي لوحده في الصورة، كان يقف وسط ساحة الاستعراض العسكري مع ثلاثة آخرين، إنه يوم تخرجهم، والدي كان الوحيد الذي يرتدي العمامة، وبشغف كان يراقب قبعات زملائه الضباط، كانت القبعات مرتفعة في الهواء وعلى وشك الهبوط إلى الأسفل، إنها اللحظة التي يصبحون بها ضباطاً، تقليد متبع عند التخرج، رمي القبعات إلى الأعلى في الهواء يشير إلى نقطة التحول في حياتهم. كان والدي لا يستطيع ممارسة هذا التقليد لأن عمامته كانت ثابتة، كان واحداً منهم، إلا أنه كان مختلفاً. كحالهم كان شاباً ملؤه الأمل. هل كان يعلم حينها بأن صورته ستصبح صفراء باهتة في يدي؟ لم يكن بإمكانه أن يعرف ذلك حينها كما لم يكن بإمكاني أن أعلم بأني، ابنه، سأحاول أن أنساه، ولكن مهما أحاول ذلك جاهداً، فالأكثر فجيعة هو الفشل في ذلك، أصابتني الصورة بالرعب في تلك الرحلة. أتذكر أني فتحت النافذة المسّخمة ومزقت الشيء الذي في يدي إلى قطع صغيرة وتركتها تتطاير إلى الأعلى والأسفل في الهواء لتتلاشى في الضباب الكثيف. وفي الوقت نفسه كان أحد الركاب في العربة يحمل سلة من ثمار المنغا غير الناضجة، كما هو الحال الآن فإن هذه العربة لها الرائحة اللاذعة نفسها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(5)

عندما أفكر في حياتي السابقة الزمن يبدأ بالجريان باتجاهات مختلفة وتتحول أفكاري باتجاه مرتفعات كشمير والى النهر الذي يبدأ من طرف المثلجة.

يبدأ النهر من الهند ويعبر الحدود ويجري داخل أراضي العدو. التوقيت في الباكستان يقل عن الهند نصف ساعة وفي اللحظة التي يعبر فيها النهر الحدود فإنه يجري عكس الزمن، لكن ثلاثة أو أربعة جبال تبعده عن دخول أراضينا ليصبح هندياً ثانية وبهذا يسير ثانية مع الزمن، هذا العبور للحدود مستمر بالحدوث مرات ومرات.

كان السيد الجنرال رئيساً للقيادة الشمالية، كان يقيم في ثاني أكبر منزل في المدينة الرئيسة سرينجار. من الأراضي المنحدرة للمعسكر يبدو النهر وكأنه أصلة عملاقة زرقاء تتلوى خلال الوادي فيما قطعت مياهه تسعة جسور سمي أولها بالجسر رقم صفر والثاني بالجسر رقم واحد والأخير بالجسر رقم ثمانية. وليس بعيداً عن الجسر رقم صفر تقع المدينة القديمة ببيوتها ذات الإطار الخشبي وأسواقها المزدحمة وجوامعها التي تشبه المعابد وأكثرها شهرة جامع أبيض بُنِيّ بالكامل من الرخام ويقع إلى جانب ضريح صوفي أخضر. في ضواحي المدينة توجد آثار حديقة المغول التي أقامها الإمبراطور في القرن السابع عشر. يقع معسكرنا جوار الحديقة على منحدرات التل، بين الآثار والمعسكر هناك ساحة للعب الغولف ذات ثماني عشرة حفرة وعلى اليسار هناك تل آخر وعلى قمته قصر أبيض يدعى راج بهافان. وهو مقر إقامة المحافظ وأكبر قصر في سرينجار. وحسبما سمعت فإن المحافظ كان يحب طرائق الطبخ العالمية، ومرة أو اثنتين، قبل وصولي، أعاره السيد الجنرال الشيف كيشان. يتناول السيد الجنرال فطوره في الساعة السادسة والنصف صباحاً، يتناول ثمار البابايا المطبوخة التي يأكلها بيديه مرتين في الأسبوع وباقي أيام الأسبوع يتناول فطوراً انكليزياً بالشوكة والسكين، أما الغداء والعشاء فإنه يتناولهما في مكتبه وكنا نوصل الوجبات الساخنة إلى مقره بواسطة السعاة.

كان شباك المطبخ مواجهاً لساحة الغولف وكنت أراقب السيد الجنرال عند المساء يمارس الغولف مع الضباط الآخرين وفي المناسبات مع المحافظ شخصياً وغالباً ما أقلق عليهم لأننا كنا قريبين جداً من العدو. على الجانب الأيمن من ساحة الغولف وعبر النهر كانت هناك قرية صغيرة ووراء القرية وعلى المرتفعات الزرق يقف العدو. غالباً ما يبدأ القتال على المرتفع البني الذي لا يعود لكلينا ويرتد صوت الأسلحة الميكانيكية في الوادي ليغزو أعمارنا ولكن بعدها تتوقف البنادق لبرهة وتبدأ الأصوات الحلوة للأبواق والمزامير العسكرية من معسكرنا ومعسكر العدو بالانبعاث إلى داخل المطبخ لتختلط بأصوات الفحم المحترق والتنور المسجور.

الغداء كان هو الوجبة الرئيسة خلال اليوم ولقد كان السيد الجنرال ذا ذوق رفيع وشهية وضعف أمام الأكلات الكشميرية، كان يأكل تلك الصحون ويلحس أصابعه ويستخدم السكينة والشوكة فقط مع الأكلات الإيطالية والفرنسية والاسبانية واليونانية والروسية.

منذ أن تدرب الشيف في السفارات الأجنبية في دلهي أصبح إعداد الطعام العالمي أحد نقاط قوته. ولكنه علمني أكثر ما يدمر وصفات مقادير تلك الأكلات قائلاً: «لقد استعمَرنا الأجانب لزمن طويل، وها قد جاء دورنا، سنأخذ طعامهم ونجعل منه طعامنا».

- «انتبه يا كب للأشياء البسيطة، إن لم يستطع أحدنا أن يتعامل مع صحن بسيط بشكل صحي فلن يكون هناك سبيل لأن يدير الأمور الكبيرة».

يؤدي المطبخ إلى غرفة أصغر يجري فيها سلخ جلود الدجاج وتقشير أكياس البطاطا وتقطيع اللحوم الباردة إلى شرائح ونتف أوراق الكزبرة عن السويقات. ترتبط بهذه الغرفة غرفة أكبر نأكل فيها ونلعب الورق مجتمعين حول منضدة مع الشيف ولقد كان البصاق ممنوعاً في هذه الغرفة.

يبدأ الشيف عمله في الساعة السادسة صباحاً ولمرتين في الأسبوع كان يدعوني لركوب الدراجة معه على طول النهر، إن تسمية كشمير بالجنة ليس عدلاً. مرة قال أول رئيس وزراء هندي: كشمير كوجه الحبيبة نراه في الحلم ويتلاشى عندما نصحو. كان نهرو يعرف كشمير أكثر من قادة اليوم. كنت والشيف نقود دراجتينا أبعد من نصب نهرو التذكاري وأبعد من المخبز على طريق الإقامة وأبعد من الجسر صفر وأبعد من مئات البيوت الطافية بأسمائها المختلفة مثل: نيل آرمسترونغ، كليوباترا، مطفي نار تكساس، وفجر الجنة، والسماء، أبعد من سوق بحيرة دال الطافي حيث يجلس باعة الفواكه والخضر بلا حراك عندها نستدير عائدين إلى حديقة المغول وهناك على منحدرات الحديقة وضع ذراعه حول كتفي في أحد الأيام وأشار إلى الأبنية في أسفل الوادي. المجمع الحكومي، ملعب الكريكت، دائرة البريد، حصن المغول، راديو كشمير، قصر المحافظ، كشمير مدينة صغيرة من العصور الوسطى تنتشر فيها البنايات الحديثة والآثار القديمة البوذية والهندوسية والإسلامية التي جعلت منها مدينة تعجّ بالحركة.

- قال الشيف: «من الصعب التنفس هنا».

- «فأجبته: «كلا».

- «هل ترى ذلك البناء الرخامي الأبيض جنب البحيرة؟».

- «نعم حضرة الرئيس».

- «خمّن ما يكون؟».

- يبدو وكأنه جامع، غير أن فيه منارة واحدة».

- «في ذلك الجامع يلتقي بعض الكشميريين الخطرين لخلق المشاكل».

- «مشاكل؟!».

- «يتحدثون عن أزادي، عن الحرية».

- «نعم، حضرة الرئيس».

- «العديد من الجوامع هناك في الأسفل».

- قال الشيف متعصباً: «يبدو المكان وكأنه مدينة للجوامع».

- «حتى داخل المعسكر، فعلى اليسار، فإني أرى ذلك الجامع الحجري».

- «لم يعد جامعاً فقد حوله الجيش لفائدة أحسن، إنه المستشفى العسكري أيها الفتى».

كانت شبابيك المستشفى (والقبة) تضيء باللون البرتقالي بفعل الضوء الأخير للنهار فقد كانت الشمس تكاد تغرب.

- «أشعر بالبرد أيها الرئيس».

- «هناك علاج».

- «علاج؟».

- «جد لنفسك ملجأً».

- «ما أجد؟».

- «فجوة».

- «لأي غرض؟».

- «جد لنفسك امرأة».

أغمضت عيني، وبدأت الريح تصفر بين المرتفعات، وقلت:

- «أيها الرئيس، يجب أن لا تقول ذلك».

- «جد لنفسك....».

- «أيها الرئيس، كيف تبدو هذه المدينة في الشتاء؟».

- «أشبه بالقماش القطني الأبيض، فالثلوج تغطي أعالي السطوح والشوارع وأسفل الوادي مخبئة كل الأجزاء البشعة، تماماً كالساري يخبئ كل الأجزاء البشعة من المرأة...».

- الأبيض لون الحزن والعزاء، «قلت متمتماً».

- فأجابني: «كب، لا تواصل النواح».

- «وما ذلك؟».

- «أنت بحاجة إلى امرأة».

- «هل في كشمير بعوض أيام الصيف أيها الرئيس؟».

- «جوامع وبعوض».

- «وماذا؟».

- «الجوامع نستطيع السيطرة عليها، ولكن لا زلنا نتعلم كيف نستأصل البعوض».

- «وكيف نستأصله؟».

- «اضرب بطونها المنتفخة».

- «الرئيس يمزح».

- «هناك طريقة أخرى، إذا جعلتها تطير خارج الجوامع فإن الرياح ستجمّد بطونها. هل ترى الأعلام خارج الجوامع؟. إنها ترفرف كالمخلوقات المجنونة في الهواء أحياناً، فتأتـي الرياح الباردة من المثلجة فتزيدها جنوناً».

- «أين هي المثلجة؟».

أشار باتجاه الجبال البعيدة على يميني وتعلق نظري ثابتاً على البياض المشع الذي يغطيها.

«إنها مثلجة سياشين أيها الفتى».

تلك هي سياشين، تقف أمامنا، انتابني الصمت، شعرتُ بوجودها لفترة، الوحش الذي ابتلع أبي. لقد تحطمت طائرة أبي فوق سياشين، وسقط الجناح في سيرنجار، ليس بعيداً عن المخبز، غير أن جسم الطائرة الرئيس اختفى في صدع عميق جداً.

- «تلك المثلجة أكبر من مدينة مومباي، أيها الفتى».

أخذت شهيقاً عميقاً.

- قالها بصوت مبحوح: «كنت أعرف والدك».

- «هل كنت تعرفه جيداً؟».

- «لقد عرفته عن بعد ولم يكن يعرفني فقد كنت مجرد طباخ».

- بقيت صامتاً.

- «عند مشاهدة جناح الطائرة يسقط في السوق، خرج الكشميريون الذين تعافهم النفوس من دكاكينهم وهم يرددون شعارات معادية للهند. حينها توجب على شبابنا إطلاق النار باتجاه واحد أو اثنين لتفريق التجمع. الجناح، وكما تعرف، الجناح موجود الآن في متحف الحرب في دلهي.

- «هل كان والدي مرتدياً بزته العسكرية ذلك اليوم؟».

- قال: «دع الميت مرتاحاً» «بعمرك هذا يجب عليك التفكير بالنساء».

اقترب مني أكثر فأحسست بأنفاسه على وجهي وكانت تحمل رائحة الهيل وقال لي:

- « بعد وقت غير طويل من تقليده من الرئيس بأعلى وسام يمنحه جيشنا لشجاعته صار والدك والمثلجة شيئاً واحداً».

- «لقد قاتل في حربين ضد العدو».

- «نعم، وبسبب ذلك أراد الجيش أن يجعل منك ضابطاً».

«لم أقل شيئاً وأدرت ناظري باتجاه دراجتينا اللتين كانتا مستندتين إلى شجرة غير بعيدة عنا».

- «لكني سمعت بأنك لم تجتز الفحص الطبي». هل هذا صحيح؟

هل هذا هو أسلوبهم غير المباشر؟ أن يجعلوا منك شيفاً أولاً وبعدها يقومون بترقيتك، ابن الضابط يصير ضابطاً دائماً فالأشياء المؤكدة لا تتغير أبداً في بلدنا».

تطلعت إلى وجهه وفكرت بأني أنظر إلى عيون سبق وأن نظرت إلى والدي، كانت هناك أشياء، يعرفها عن أبي، ولم يبح بها أبداً.

- «هل يمكن؟ سألت وأنا أتحرك بعيداً عنه أسوأ ما أخافه أن تلفظ تلك المثلجة جسد أبي في أرض العدو و....».

- فقاطعني: «كلا ذلك مستحيل». ورسم صورة المثلجة على قطعة ورق ممزقة وطلب مني أن أعلّمها باللغة الانكليزية.

- «أترى، كب، إن لسان المثلجة في الهند والكتلة بأجمعها تتحول باتجاهنا وبالتأكيد فإن جسده سيتحرر على تراب بلادنا. الطريق الوحيد لأن ينتقل الجسد إلى باكستان يكون إذا ما بدأت المثلجة بالانسحاب بسرعة كبيرة لتصبح جزءاً من النهر وهذا الاحتمال بعيد».

- «لا شيء بعيد الاحتمال».

- «الأشياء المؤكدة بعيدة الاحتمال». قال ذلك وقد لامست يده خدي.

طلبت منه أن يسحب يده، تأخر في ذلك لبرهة وقال: «قبل فترة ليست طويلة وبينما كان سائح نرويجي كبير السن يقطع الهملايا بعربة تجرها الثيران وجد جسد والده أسفل مثلجة سياشين. لقد لفظت المثلجة الجسد محفوظاً تماماً، كما هو، كان الأب يبدو أصغر من ولده كثيراً».

- «لقد قرأت هذا الخبر في الصحيفة، وبعد يومين لفظت المثلجة جسد جندي آخر تحطمت طائرته أمام الحدود الفاصلة».

- «أخبار جديدة، والجندي يعود للهند».

- «هل نحن متأكدون؟».

- «مائة بالمائة أيها الفتى، قال ذلك وقام بقرص خدي فنهضت واقفاً ونفضت بذلتي».

- «لقد أصبح لون وجهك كلون أشجار الصنّار» ركبنا دراجتينا إلى أسفل التل واشترينا بعض البيض ولحم الماعز وجذور نبات اللوتس وبعض الخضراوات من السوق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(6)

في الهند لا يمكن تمييز أيام الخريف، وفي كشمير يبدأ في شهر تشرين الأول. كنت أتطلع إلى أشجار الصنّار الراقصة من نافذة المطبخ المكسوة بالسخام، كانت تتحرك كالدراويش في الرياح فأنا لم أعش أيام الخريف من قبل. كانت أشجار الصنّار تمتد على جانبي الطريق وكان الوادي برمته مليئاً بالألوان، فالأغصان الساقطة على الأرض تحول كل المكان إلى سجادة يغلب عليها اللون الأحمر والأصفر والبرتقالي. كانت الريح تحركها بدوامة دائرية وترميها، لقد نسيت حزني وأنا أتأمل أحزانها كما نسيت أيضاً مثلجة سياشين. وحتى لو عُصِبَت عيناي سأبقى قادراً على أن أتبين أغصان الصنار.

لا أقدر على نسيان رائحة الحشائش المقطوعة ولا رائحة أشجار الصنار. كم كانت تبدو حزينة وهي تُسقِط أوراقها وكأنها تحاول أن تُقبّل العالم بأجمعه، الخريف ليس نهاية السعادة بل مبتداها.

كنت قد بلغت العشرين، مفعم بالحيوية. ولم تكن لي علاقة بأية امرأة. في الواقع كانت فرص ذلك مكبلة؛ ففي المعسكر كانت هناك زوجات الجنود والضباط، وخارجه الكشميريات لذا لم تكن هناك فرصة على الإطلاق.

غالباً ما كنت أمر بدراجتي على البيوت ذات الواجهات الخشبية، وبالأطفال ذوي الأنوف المزكومة وكبار السن بلحاهم المحناة وهم يدخنون النارجيلة. يندر أن يقع نظري على امرأة. وبعد حين، وبينما أقف على ضفة النهر، وقع ناظري على امرأة جميلة تغسل التفاح، ولم تكن ترتدي الساري، بل بنطالاً فضفاضاً ذا تكة ورداء فضفاضاً يصل إلى ركبتيها وكان نهداها يهتزان خلفه وهو مبتل حتى بطنها وقدماها في داخل الماء البارد والصافي والشفاف والهادئ. وكانت بين الحين والآخر تعكر هدوء الماء بالتفاح وقدميها الصغيرتين. كنت أراقبها وأنا أقف على الصخرة وكانت مؤخرة رقبتها ناعمة ونظيفة. لا ترتدي النسوة الكشميريات الملابس الاعتيادية، ففي الصيف يرتدين رداءً قطنياً فاتحاً وفي الشتاء يفضلن الثياب الصوفية المطرزة من الأمام والأسفل وعندما يشعرن بالبرد يدسسن أيديهن داخلها. البعض منهن يضعن أكياساً ساخنة على بطونهن كما لو كن حوامل وأكمامهن تتحرك يساراً ويميناً كرقاص الساعة. استدارت مرة واحدة والتقت عيوننا للحظات قصيرة.

- سألتها «ما الذي ستفعلينه بالتفاح؟».

ابتسمت وخرجت من الماء وغادرت باتجاه الشارع خلف الأشجار. لقد كانت من نفس عمري. في اليوم التالي وفي الوقت نفسه عدت إلى الصخرة نفسها جوار النهر فسمعت صوت رجل يقول: «سلام».

- «تفضل وتناول الشاي في بيتنا».

- سألته: «من أنت»؟

- فأجابني: «أنا قريبها».

- «أي قريب»؟

- «أنا شقيق المرأة التي تحدثت معها البارحة».

- «صعب أن تدعوها محادثة».

- «لا تقلق فأنا رجل محترم أتحمل مسؤولية عملي كسائق للباص في المدينة».

- «لا وقت لدي فقد انتهت فترة استراحتي».

- «تفضل لدقيقتين فقط».

- قادني الرجل إلى بيته خلال شوارع ضيقة معبدة بالحجارة المرصوفة وعلى جانبي الشوارع مجرى مكشوف لمياه المجاري، فيما كان الأولاد يلعبون الكريكت في الشوارع. خارج الدار طلب مني بلغة أوردية جيدة أن أخلع حذائي.

وفي لحظة دخولنا قال: «قدحان من الشاي». جلسنا على سجادة فيها تصاميم متعددة لنباتات محلية وعلى الجدران علقت مخططات جميلة على ورق البردي والأثاث تفوح منه رائحة الصنوبر.

سألني أول أسئلته: «هل أنت متزوج؟».

أجبته: «كلا».

فقال: «آه» «لقد بدوت بأنك غير متزوج».

عندها دخلت المرأة الغرفة حاملة صينية، وعلى صحن كان يهتز عليها جلبت لنا نوعاً من أصابع المعجنات الطويلة، لم تنظر إليَّ بل انحنت وقدمت ما تحمله. كان شعرها طويلاً وذا حيوية وللحظة ظننت بأنها ستنضم إلينا.

- «السماور متّقد» قالت ذلك واختفت داخل المطبخ.

- فقلت: «لم أشاهد السماور من قبل أبداً».

وأضفت: «هلا اطلّعت عليه في المطبخ؟».

- فأجابني: «ستجلب لنا الشاي هنا فقط».

- «حقاً، فأنا في عجلة من أمري».

بقي الرجل صامتاً وتخيلتها في المطبخ بصحبة سماورها، شيء ما أدهشني فقد سمعت بأنه جلب من روسيا.

سألت: «هل تذهب إلى الكلية؟»

فأجاب: «أختي كانت طالبة لامعة».

- «بأي اختصاص؟».

- «بي. فارما». وأضاف: «بكالوريوس صيدلة ولم تستمر بسبب الاضطرابات في الوادي».

- «أود أن أتعرف عليها ولربما أستطيع الخروج معها إلى السينما أو المسرح».

تنحنح ونظر إلي وكأنني قد جئت من كوكب آخر، وأخبرني بأن دور السينما (عدا المسرح العسكري) قد أغلقت منذ زمن طويل بسبب الاضطرابات، إن كشمير اليوم ليست كما كانت من قبل.

عادت المرأة ثانية إلى الغرفة، انحنت وتركت صينية الشاي على منضدة صغيرة، وهذه المرة تواصلت معي بنظرة، لقد كانت جميلة جداً ذات عينين زرقاوين وشفتين بلون التفاح.

قال شقيقها: «أسرعي». سكبت الشاي في كوبين وملأتهما حتى شفتيهما، تحطم كوبي حالما لامسه السائل الحار. أتذكر صوت اندلاق الماء وصوت الماء الساقط على السجادة، غير أن وجه مضيفي لم يبدُ عليه الانزعاج. مركزة نظرها على السجادة تلت بيتين من الشعر بالأوردية:

كيف نولي اهتماماً لهذا البيت

وكل يوم ينكسر شيءٌ جديدٌ

أبهجني الشعر فيما بدا الغضب على شقيقها، أسرعت إلى المطبخ وأحضرت كوباً جديداً، لقد بدا بأن الأمر كان مقصوداً مع ضيوف خاصين، شربت الشاي بالقهوة بشراهة فقد كان لذيذاً وجدائل الزعفران تطفو على وجهه تاركة لونها ومذاقها الحاد. لقد تبينت في فمي الهيل المطحون والقرفة وسألت نفسي لم يستخدمون هنا أسوأ القواعد الصحية في إنتاج الشاي الجيد؟.

- قال مضيفي: «إن الشاي لذيذ جداً».

- «لماذا لا تأتي لتجلس معنا»؟

- «إنها في المطبخ».

- «أنا أيضاً أمضي معظم وقتي في المطبخ».

- «دعني أكون صريحاً جداً حول وضعك، ليس لدي أي اعتراض».

- «ماذا تعني ب- أي اعتراض».

- «لا اعتراض على الزواج».

- «زواج أي زواج»؟.

- «نعم... نعم دعنا نتحدث، إذا كنت تريد الزواج بها، فليس عندي أي اعتراض».

- لقد كان الشاي جيد جداً. تجرع كوبه قائلاً: «لا أحب وجود الكثير من أفراد الجيش الهندي في الوادي، على الرغم من ذلك فأنا سعيد بأن لديك عملاً ثابتاً، هل ستتزوج أختي؟».

- «أحتاج إلى الوقت».

- «لا مشكلة».

نهضت واقفاً وكوب الشاي ما زال في يدي ونهض واقفاً أيضاً.

أشرَّ بسبابته باتجاه لوحات الخط على الحائط، اقتربتُ منها لأقرأها بوضوح. وقلت:

- «هذه الكلمة تعني «السلام».

- فأجابني: «إنني مندهش».

- «إنني ملتحق بصفوف اللغة أيام الآحاد».

اعتقدت بأنه سيشكرني لتعلمي لغته ولكنه لم تكن لديه اللياقة ليفعل ذلك، بدلاً من ذلك بدأ بامتداح اللغة التي ولد وسطها وكم كانت جميلة وأنيقة، قائلاً:

- «اللغة الكشميرية، لغة الشعر».

- «ليس هناك شيءٌ اسمه لغة الشعر». قلت له مصمماً: «الشعر يمكن أن يكتب بكل اللغات ولا توجد لغة سفلى، فأنا عندما أقشر حبة بصل في المطبخ أجد في ذلك شعراً».

- أجابني: «لستُ مخطئاً على الإطلاق».

عند ذلك شعرت بحاجتي الملحة لأن أطرح عليه سؤالي:

- «إذن فأنت لا تهتم بشأن الدين؟».

- قال: «أتمنى أن لا يكون لديك مانع في التحول إلى الإسلام».

وأضاف: «لأن ذلك مهم جداً للزواج. يجب عليك أن تتحول إلى الإسلام أولاً. بالطبع عندما قصدتك على النهر عرفت بأنك ولدت وسط عائلة من السيخ، لكني أعرف شاباً من السيخ تحول إلى الإسلام لأنه وقع في حب فتاة شابة كشميرية مسلمة».

ارتشفتُ آخر ما بقي في كوب الشاي.

- قال لي: «شاي جيد» «ألم يكن الشاي جيداً؟».

- فأجبته: «لقد كان الشاي ممتازاً». السلام عليكم.

- فأجاب: «وعليكم السلام».

أسرعت عائداً إلى مقر إقامة السيد الجنرال، كانت الأغصان على الأرض أكثر منها على الأشجار وكانت الريح تتقاذفها وتقلبها وتدفع بها إلى الثكنات. كانت روبيا تلعب حافية مع كلبها الأسود على المرج الأخضر. شعرت وكأني أتحدث إليها، لكن المربية كانت موجودة أيضاً.

كانت المربية فاتنة حقاً، امرأة ممتلئة تتوهج عيناها مثل عناقيد التمر هندي وكانت ابنة الجنرال متعلقة بها جداً. ولأنها كان لديها إذن بالدخول إلى غرف المنزل كافة فإن المربية كانت تعتقد بأنها

كائن رفيع المقام هبط على الأرض. كانت تعاملني دون أن تعيرني أية أهمية، فقط أعلى قليلاً من الذكور الموجودين ضمن المنزل وحتى من الشيف. لكني كنت أشفق على الفتاة لأنها لم يكن لديها أمّ وكان أبوها غائباً معظم الوقت لم يكن يسمح لروبيا أن تطلب طعامها بنفسها. على البعد، صار عندي انطباع بأن روبيا كانت خجولة تختبئ دائماً تحت السرير أو المنضدة. ولكن حينما كنت أسأل المربية عن طبيعة الفتاة كانت تقول لي: «ليس هذا من شأنك».

- «هل رفضت روبيا أن تأكل الفاصوليا الحمراء التي طبختها لها؟».

سألتُ وكنا واقفين خارج المطبخ.

«لقد ذكرتها رازما بكليتيها؟».

- «وما خطب كليتيها؟».

- «في الكلى يتكوَّن البول».

- «ماذا؟».

- «بي....بي».

- «رجاء لا تقولي مثل هذه الأشياء، فأنا أطبخ».

- «يجب عليَّ ذلك، فالفتاة لا تقدر على هضم الفاصوليا التي تطبخها».

تم حل مشكلة الغازات التي تعاني منها روبيا بإضافة الحلتيت إلى طعامها (وهو صمغ راتنجي كان يتخذ علاجاً مضاداً للتشنج والغازات) عند إعداده لها وكانت المربية تفضله وتحرص على استخدامه. في أحد الأيام جاءت إلي في الشرفة وفي يدها مشط صغير وسألتني عن سبب الحزن البادي عليَّ...

سألتها: «هل روبيا نائمة في غرفتها؟». «نعم..نعم». لكننا نتحدث عنك وبدأت تمشط شعرها من الجانبين واستكشفت أكثر عدم سعادتي فطلبت منها أن تنظر إلى أسفل الوادي، أن تنظر إلى ساحة العرض في الأسفل. الفتيان الصغار يتعلمون تقنيات التدريب من الأكبر منهم، ذوي الخبرة. يتعلمون الصراع والقفز والزحف والرمي والتهديف والاستعراض. فسألتني:

- «ما كان ذلك أريد أن أعرف بالتحديد»؟. فقلت لها:

- «حقيقة أردت أن أتعلم كيف أُحبُّ، ولربما واحدة مثلك تستطيع أن تعلمني»؟ توقفت عن الابتسام وقالت:

- «هل أصابك الجنون؟».

خرجت لأتمشى طويلاً على جانب النهر في الوادي. كانت الأوراق الحمراء تطفو على الماء، تطفو بعيداً بعيداً حتى تقترب من الجبال التي تعود إلى العدو.

بعدها وعند حلول الليل شربت الرم في الثكنة مع الجنود، قال لي أحدهم: «إن فرصتك الوحيدة يا كب هي مع الممرضة في المستشفى، إنها امرأة تقدمية، فرجل مثلك يستحق امرأة تقدمية، بالغة، إنها بالغة مثالية».

- «إنني لا أفهم هذا».

- «امرأة مثالية بالغة».

لم أفكر بهذه الأشياء؟ فالعمر يذبل ويختفي ويجب أن أستحضر في عقلي القضايا الأساسية فقط. الله. الانبعاث من جديد. قضايا كهذه وليس الطعام أو النساء ولا سلب لب النساء ولا حتى النساء اللائي يفهمن الجسد كالممرضة التي تقضي فترة استراحتها في حديقة المغول. في أحد الأيام، ودون أن أخبر الشيف، قدت الدراجة وقطعت الطريق لألقي التحية عليها، كانت في الهواء لسعة برد وكانت الحديقة محاطة بمصاطب الجلوس وفي وسطها نافورة يرتفع منها الماء بخطوط مستقيمة ويسقط كشلالات ضيقة واحداً بعد الآخر قبل أن يذهب إلى البحيرة في الأسفل. وبينما كنت أقفل دراجتي عند الباب لاحظت بأنها تقف على أعلى مصطبة وهي تدخن سيجارتها غير بعيد عن الحائط الأثري. لوحت إليها بيدي فأومأت تدعوني. كانت الحديقة ملئية بالسائحين الذين يرطنون بلغات لا أفهمها. كانت تستند إلى الحائط بينما كنت أقترب منها، كانت تضع في شعرها ورقة نبات لونها أحمر وأسود. سألتها:

- «هل انتهيت من تناول غدائكِ؟».

- «عادة ما أتجاوز الغداء».

كانت ترتدي ثوباً مليئاً بصور الزهور فقلت بأن الثوب وزي المستشفى الأبيض يبدوان رائعين عليها، فتبسمت وسألتني عن سبب وضعي سواراً في معصمي، فأوضحت لها بأنه لم يكن سواراً على الإطلاق بل إن الشيء الموضوع على معصمي الأيمن ما هو إلا وقاءٌ حديدي وأضفت بأن جميع الفتيان والفتيات السيخ يضعون هذا الوقاء. فقالت لي:

- «يبدو بارداً عليك».

- «ماذا تعنين؟».

- «في أميركا وعندما يبدو الشيء رائعاً عليك فإنهم يقولون بأن الشيء يبدو بارداً عليك».

- «شكراً جزيلاً، وحاولت أن أمسك يدها»، غير أنها تراجعت وقالت: «ملامستي بهذه الطريقة لا تبدو حسنة».

لم أعرف ماذا أقول وشعرت بأني قد قمت بفعل غير جميل، بعدها وبلا سبب دمدمت بكلمات قليلة عن جو كشمير البارد والحزن الذي يغلف كشمير وقلت بأن هذا المكان جميل جداً غير أنه حزين، انظري إلى حقول الفواكه الخالية وإلى الجبال والبحيرة التي غمرها الدغل، المعابد والجوامع والبيوت الفارغة، كل ذلك مغلف بالحزن.

أشعر هنا بمزيج من الأحزان، يبدو أن كل الكشميريين وكل من يأتي إليها يصبح حزيناً، ليس لفرد حزين مثلي، بل والأكثر من ذلك فإن الوضع في المدينة ينمي الشعور بالحزن داخل كل فرد. عندما يكون الفرد حزيناً فإنه لا يستمتع بالطعام الذي يطبخه ولا بالأشياء الأساسية في الحياة، ينسى كيف يحب والحياة تكون قصيرة جداً».

فسألتني: «ما الذي تتحدث عنه؟».

فأجبت: «الحزن».

عدت إلى المطبخ ووقفت أمام الشباك، كانت الأشجار جرداء. لقد جعلتني عباراتها:(لا يبدو ذلك حسناً، ما الذي تتحدث عنه، يبدو بارداً) أشعر بالقلق والسعادة في الوقت نفسه لأنه ما زال هناك أمل وأنني لم أفقدها ولأنه على الرغم من استجابتها الفاترة إلا أنها لم تقل لا صراحة ولأني أشعر برغبة عميقة بأن أحول بصيص الأمل إلى حقيقة.

في تلك الليلة صب الشيف قدحين كبيرين من البيرة. البيرة ليست سيئة على الإطلاق، رفعنا قدحينا كما يفعل الضابط. وقلت: «نخبك». فقال:

- «إنك تتحدث لغة انكليزية جيدة، هل كنت تحاول أن تجبر الممرضة؟».

- «كنت أحدثها فقط».

إذن فقد شاهدنا معاً.

- «الممرضات لا يعجبهن العاطفيين حدّ الإفراط إنكليزاً كانوا أو غير ذلك».

- «أنا».

- «إنك ما زلت لا تعرف كيف تمسك سكيناً».

- «سيدي سأبذل جهدي».

- «ركزّ نظرك في عيني، إن الأمور الأكيدة لا يمكن أن تتغير. ابن الضابط لا يستطيع أن يوقف عواطفه المفرطة. انظر، عندما كنت فتى كنت أعتبر بعض الروائح مثيرة للاشمئزاز، كنت أنفر من رائحة الحلبة واليقطين المر، والآن تجاوزت ذاك النفور، في الحقيقة، أصبحت أحب الرائحة نفسها التي كنت أكرهها عندما كنت صبياً.

- ولكن روائح معينة تظلُّ مثيرة للاشمئزاز.

تجاهلت ما قاله ولكي أصرف انتباهه قلت له: «أحب أن أطبخ مثلك».

تذوق فقاع قدح البيرة وثنى عضلاته فانتفخ وريد ساعده الأيمن، ظهر الوشم على ذراعه الأيمن، كان اسمه موشوماً بالهندية بحروف خضراء. كان يرتدي قميصاً خاكياً مفتوح الأزرار ولم يكن شيء تحته والشعر على صدره عبارة عن غابة من اللفائف السوداء والبيضاء.

- «هل تريد أن تحل محلي».

- «لا يا سيدي».

- «أن تحل محلي»، «أريدك أن تتعلم كل ما أعرف. في اليوم الذي ينتهي تدريبك فإن السيد الجنرال سيرفعني، هكذا وعدني».

- في أي رتبة ستكون سيدي عندما تصبح ضابطاً؟.

- «سأكون برتبة نقيب». ووضع ذراعه الموشوم حول كتفي وضرب خدي.

- «ومتى سينتهي تدريبي»؟

اتجه إلى سريره قائلاً: «يوم تتخلى عن خجلك».

- «اعذرني سيدي».

- «إن رائحة المرأة أفضل ألف مرة من غداء فخم أيها الفتى».

- لم أكن أعرف سيدي» وشعرت بارتباك.

- «تعال واجلس إلى جانبي».

قال ذلك وأخذ جرعة من البيرة وسألني.

- «هل أحببت امرأة من قبل؟».

أطرقت إلى الأسفل بنظري فضرب فخذي. قائلاً:

- «عندما كنت أصغر كنت أجد رائحة المرأة مثيرة للاشمئزاز والآن تجاوزت ذلك فأصبحت أحب الرائحة نفسها التي كنت أكرهها عندما كنت شاباً».

احتسيت قدح البيرة دفعة واحدة دون توقف. أخرج صحيفة حمراء من تحت وسادته وأراني صورة فاضحة.

- «انظر إلى هذه الصورة».

كان تحتها مقاطع طويلة كتبت باللغة الهندية والبنجابية.

- «سيدي ما الذي كتبته تحت الصورة؟».

- «ليس هذا من شأنك». «ركزّ انتباهك بالصورة».

- «إنني أنظر إليها».

- «إنها مسؤولة المطبخ». وضحك.

- «نعم سيدي».

- «هل قبلت مسؤولة المطبخ من قبل؟. ثم تمتم: «أعطني قدحاً آخر».

عندما خلد إلى النوم قمت بمسح أقداح البيرة، كان الشيف يتأوه في سريره وكان صدره المكشوف ينسحب إلى الأعلى والأسفل وكان إيقاع عضلاته غريباً. قضيت الليل آكل التوت ففي كشمير مذاق الفواكه في كل شيء. فالنهارات مذاقها كالتفاح والليالي بطعم التوت المر. لقد كنت أقضمها ببطء واحدة تلو الأخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(7)

كنا نقوم بتحضير مرقة لحم الضأن، غمسنا قطع اللحم بالزيت والتوابل وحمل لنا الهواء رائحة اليانسون. أمرني الشيف بأن أرفع لهيب النار، فعلت ذلك وبدأت بوضع قطع اللحم القرمزية الفاتحة الواحدة بعد الأخرى، في إناء الطبخ. أمرني أن أقلبها باستمرار لكي لا تلتصق في قاع الإناء. سألته: متى أضيف اللبن؟ فأجابني: ليس الآن وشرح لي الفرق بين الدقة والتخمين ثم مسح يديه بمئزري. شعرت بعدم الارتياح لكني واصلت التقليب. خاطبني قائلاً: «اطبخ ولا تخشَ الفشل أيها الفتى، يجب أن لا تفشل أبداً، اعتنِ جيداً بيديك فإن أضعت استخدام يديك فإنك ستكون بلا فائدة في المطبخ»، لا تفكر أبداً بملامسة السيدة، إن أردت الاحتفاظ بأصابعك سليمة ابقَ بعيداً عن السيدات، راقبهن من بعيد فقط».

«الآن، تستطيع أن تضيف اللبن إلى القدر ببطء». نفذتُ أمره وضعت الغطاء على القدر، ضربني على خدي وبدأ يهمهم بموسيقى ألمانية، كانت الموسيقى جميلة، كان يحرك يديه إلى الأعلى والأسفل كما لو أنه كان يوجه آلات موسيقية أمامه، بعدها توقف وقال: «أنا أعني ذلك يا كب». «اعتنِ جيداً بيديك أيها الفتى». «ليس كعازف الغيتار السيخي». فسألت: «عازف الغيتار؟». «نعم... نعم» تنحنح وقال: «عازف الغيتار السيخي كان ضمن الفوج الثاني والسبعين الفرقة الجبلية الخامسة». «كان الرجل يمتلك أصابع ماهرة وقد اعتاد أن يعزف لزوجة المقدم تاكوريس في بيته». ثم أضاف: «كان المقدم شديداً مع الشاب وقد اعتاد أن يبقى في غرفة خاصة في جناح كبار الضباط ولا يبالي بترك زوجته الشابة لوحدها مع عازف الغيتار الذي يعزف لها حتى الساعات الأولى من الصباح. لم يكن للمقدم وزوجته أطفال ولم أكن أصدق في البداية بأنه كان مغرماً بالأولاد.

المقدم الذي كان حينها برتبة رائد، وجد الأولاد في المستشفى، كان يزور الطبيب في موسم التطوع أو قبل سوق القطعات إلى الجبهة ويقف إلى جانب الطبيب عند إجراء الفحص الطبي ويعاين الأجسام العارية لمئات الجنود متفائلاً مع ابتسامة تعلو وجهه لكن عينيه كان فيها حزنٌ لا يمكن شرحه. كان يحرك ناظريه من الرأس إلى إصبع القدم ومن إصبع القدم إلى الرأس وبعد قياس الصدر كان يسأل كل جندي عن عمره وسبب تطوعه في الجيش وكان ينصح الشباب بترك الكتيبة والعودة إلى بيوتهم.

وكان هذا هو الاختبار النفسي. «لا أستطيع حتى إخبارك كيف شعرت يوم وقع نظر الكولونيل على صدري فقد كنت شاباً حينها وأحسست بحرارة رغبة الجنرال بجسدي فقد أشبع جزء مني غروره ولم أشعر تجاهه بأي رغبة ومرت قشعريرة أرجفت عمودي الفقري وفي تلك اللحظة لاحظت أن نظر المقدم قد تحول إلى الجندي الذي يقف بجانبي. ويجب عليَّ الاعتراف بأن ذاك الجندي كان أكثر وسامة مني، وعليه فقد غيّر المقدم اهتمامه بي وبدأ ينصح الجندي بترك الجيش وعدم الذهاب إلى الجبهة وعندما رد المتطوع بوضوح بأنه سيؤدي هذا الواجب من أجل بلدنا العظيم ربّت المقدم على ظهره ثلاث مرات ونقّل عينيه هنا وهناك».

«وبعد أيام عدة، كنت الشخص الحديث العهد بكل شيء، الذي شاهد عازف الغيتار السجين مع زوجة المقدم الجميلة والآن وأنا أفكر في ذلك يجب علي ألا أخلط الأشياء مع بعضها، لقد كان الغيتار ملقى

على الأرض، وكان العازف يرتدي قميصاً داخلياً أبيض ولم يكن عليها سوى تنورتها. أتذكر جسدها الناعم الذي بدا من أسفل تنورتها. اللون البورغندي لبلوزتها الجميلة الملاصقة للغيتار. لم يشاهداني. لو أني أحكمت غلق شفتاي لما ابتدأ القيل والقال ولما انتشرت الإشاعة داخل وخارج المعسكر كالنار في غابة برتقال ولما سارت الأشياء إلى الاتجاه القبيح الذي وصلته. كان السيد الجنرال لم ينتقل بعد إلى كشمير، والجنرال الذي سبقه، الجنرال جاكوهان، ألقى القبض على العازف وفي السجن أرادوا أن يقطعوا بفأس رؤوس أصابعه ويأمروه بعدها أن يعزف على الغيتار. وسمعت أن المقدم قد ترجى الجنرال بعدها أن يستثني أصابعه (لقد كان العازف يشبهك قليلاً. لست واحداً من أولئك الذين يؤمنون بأن جميع الرجال الذين يرتدون العمامة متشابهون ولكن وجهك يا كربال فيه شبه لافت للنظر). لغاية هذا اليوم أعتقد بأن المقدم قد توسل لأنه أجرى اتفاقاً سرياً مع زوجته فقد كان يميل إلى الرجال على الرغم من كونه متزوجاً وكانت زوجته معجبة برجال غيره، على الرغم من كونها متزوجة اتفقا على أن يفعل كلٌّ منهما ما يشاء. هذا ما عرفته مع مرور الوقت. وبسبب تدخلي فقد افتضح أمر المقدم وأصبح يجد صعوبة في مواجهة أشخاصٍ معينين في الجيش. وعندما مات المقدم تاكور جراء حادثة في الحرب مع الباكستان عرف البعض منا أن موته لم يكن جراء الحادثة وأن زوجته الأرملة الشابة كانت تطارد من قبل أحد الرواد، وهو برتبة مقدم الآن، وبعد أحد عشر شهراً استسلمت له وتزوج الاثنان. وهذا المساء سيأتيان على العشاء»، مَنْ؟ سألته «المقدم كوظري وزوجته».

- تنحنح وقال: «الليلة ومن خلف الستارة، سأريك الشيء الحقيقي» وقال: «الصاحبة الحقيقية».

- «هذه الليلة؟».

- «نعم، راقب وضعها. إنها تتحدث انكليزية مزوقة، راقب تصرفاتها وكيف تمسك الشوكة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(8)

أصبح كل شيء في المطبخ جاهزاً تقريباً. والأبخرة تتصاعد من القدور. أعددنا حساء الذرة وسنبدأ بسيخ الكباب وبعده الصحن الرئيس المؤلف من سبعة أنواع. أخبرني الشيف بأن الصاحبة نباتية وقد تم إعداد ثلاثة صحون مختلفة لها والباقي لزوجها ومضيفه. حلَّ المساء، هذه الليلة ستأتي الصاحبة الحقيقية، وقد عكست الشمس لونها الأحمر على جدران المطبخ وهي تغرب في أرض العدو، كل شيء جاهز.

وقف السيد الجنرال في الشرفة وقد شبك يداه خلفه، كان طوله أكثر من ستة أقدام بإنج أو إنجين وكان يقف دائماً بهذه الوضعية. كان يرتدي بذلة أميركية سوداء أضفت عليه سمة رسمية وربطة عنقه الحمراء جعلته كالنمر المتحفز وقد تركت حلاقة ذقنه علامة أسفل خده الأيسر ووجهه لامع لم تظهر فيه التجاعيد بعد. كل شيء فيه كان كما تصورت أن أراه، حتى عيناه مرعبتين شفوقتين في الوقت نفسه، أحنى عنقه متنصتاً لصوت الخطى على الممر المكسو بالحصى، لقد وصل الضيفان.

كان المقدم رجلاً قصير القامة يرتدي بيريه سوداء وكان يسير أمام زوجته التي كانت لها ملامح ممثلات بومباي الجميلات غير أنها كانت تبدو أكثر وزناً منهن. كانت مسحة غضب بادية على وجه المقدم كما لو أن أحداً أزعجه بشدة.

تصافح الرجلان بحرارة، وقبّل الجنرال الصاحبة على خدها الأحمر بسبب مواد التجميل، ضحكت وقالت شيئاً باللغة الانكليزية. سأل السيد الجنرال:

- «هل إن الهند والباكستان بخير؟».

- فأجاب المقدم: «كلٌّ منا بخير سيدي».

ردَّ الجنرال:

- «لا أصدق أية كلمة».

فقالت الصاحبة وهي تضحك:

- «كلا، أرجوك لا تصدقه».

ردَّ الجنرال وهو يقودهما إلى غرفة الاستقبال:

- «هل هناك أي شيء أفعله للمساعدة؟».

ردَّ المقدم وقد بدا عليه الارتياح: «قوة نارية إضافية».

فقالت زوجته وعيناها تلمع: «توقف عن ذلك حبيبي».

كانت ترتدي ثوباً حريرياً ضيقاً التصق على انحناءات جسدها بشكل صافٍ خارج حدود رغبتها.

شرح لي الشيف، في الداخل: «الجنرال يدعو كل زوجين - الهند والباكستان».

- «ومَنْ الباكستان؟».

- «النساء».

هناك ثلاث أرائك في غرفة الاستقبال وموقد كبير فحمه متوقد أحمر وصورة معلقة للسيدة المتوفاة تلقي بنظرها إلى الضيوف، وليس بعيداً عن الصورة دولاب للكؤوس بداخله مجموعة تذكارات عن المدفعية تُلفت الانتباه وإلى جانب هذه التذكارات قنانٍ من أفضل أنواع الرم والويسكي الاسكتلندي والبيرة من نوع كنك فشر، غرقت الصاحبة في الأريكة.

كنت والشيف الذي كان يحمل سكيناً حاداً في يده وهو يمسحها بمئزره نقف خلف فتحة الستارة مباشرة، كان يؤشر بإصبعه بين الحين والآخر. في البداية وجدت صعوبة في مراقبة زوجة المقدم بشكل اعتيادي فكل ما كنت أستطيع رؤيته بوضوح هو ظهر بلوزتها سألت السيدة: «أين الصغيرة؟».

قال الجنرال بصوت عالٍ: «روبيا عمتك وعمك قد وصلا» كانت روبيا في غرفتها مع المربية.

صرخت روبيا من غرفتها «إني أحاول الانتحار أبي».

ضحك الجنرال لذلك وقال: «لا أعرف من أين تعلمت هذه الكلمات؟ إنها لا تعرف حتى معنى كلمة انتحار وقبل يومين أخبرت المربية بأن أمها قد انتحرت».

ابتسم الزوجان وفرك الجنرال يديه سائلاً:

- «هل أقدم الويسكي؟».

- ردَّ المقدم: «مع الصودا سيدي» لقد كانت زوجتك جميلة جداً سيدي. امتدح صورتها وكذلك فعلت زوجته.

- «لقد كانت امرأة ساحلية».

- «إن جمال المرأة الكشميرية مبالغ فيه والجمال الحقيقي هو جمال الهندية وخاصة المناطق الساحلية وكما قلت بدقة إن النساء الساحليات حقيقيات ولهن ملامح حقيقية، ربما يكن أكثر سمرة ولكن ملامحهن مؤثرة، لذلك يتوجن ملكات جمال العالم والكون أيضاً».

- أجاب الجنرال قائلاً: «للنساء الكشميريات جمال لذيذ، نوع من الجمال يصعب على النساء الهنديات امتلاكه، إنهن جميلات رائعات، ماذا بعد يمكن قوله؟».

«إنني لا أتفق معك أيها المقدم» ونظر الرجلان إلى زوجة المقدم، وسألها الجنرال:

- «ما الذي تقوله باكستان؟».

أرادت أن تقول شيئاً وعدلت عنه، ابتسمت بلباقة وغيرّت مكان جلوسها فأصدر كعبا حذائها نقرة عندما انتقلت بجانب الجنرال على الأريكة.

ارتشف الجنرال شرابه وقال:

- «بالنسبة لنا فأنت الأجمل باتسي» ولمس ذراعها المكشوف وابتسم وضحكت هي أيضاً ضاغطة على يده.

عضَّ المقدم شفتيه، وبعد فترة صمت طويلة قال: «بعض الجمال متعة أبدية».

خفقت الستارة على وجهي. فسألني الشيف: «ما رأيك بالصاحبة وهو يمسح السكين بمئزره؟».

- «إنها جيدة».

- «إنها ترتدي بلوزة قصيرة، تطلع إلى شكلها؟».

شربت قدحين أو ثلاثة ولاحظت بأن الشراب جعلها حزينة. رفع الرجلان صوتيهما وهما يتذكران أيام شبابهما في الأكاديمية العسكرية حيث تم تدريبهما، رفاق دفعتيهما الذين يديرون الآن شؤون جيش العدو في باكستان. لقد كانت أظافر الصاحبة طويلة ومطلية بطلاء أحمر وكذلك كان شعرها مائلاً إلى الاحمرار بسبب الحناء.

مسح الشيف يديه بمئزري وأخذ كمية الكزبرة الخضراء وقطعها وكأنه جراح وزيّن بها وجه صحن البرياني وطلب مني أن أشم الصحن... أضاف بعض التوابل المقلية إلى صلصة الأعشاب وأسرع عائداً إلى مكانه خلف الستارة مشيراً لي بأصبعه أن أتذوق الصلصة التي اخترعها ووضع بعدها ذراعه حول كتفي. كانت الصاحبة تتطلع في مجلة أجنبية تحتوي على العديد من الصور مقارنة نفسها بتلك الصور.

أخبرني الشيف، بأن الوقت قد حان لظهورنا. فتح الستارة قليلاً ودخل الغرفة، كان يمشي بإيقاع معين وينقر بكعب حذائه.

- «سيدي العشاء جاهز للتقديم».

- «العشاء سيدتي».

تحرك السيد الجنرال وضيفاه باتجاه المنضدة. وفي المطبخ كان الزيت يقرقع على النار بمذاقه اللاذع وأمر الشيف بإضافة المزيد من النعناع على الموقد بتأنٍ.

حرص الضيفان على مراقبة صحن الجنرال، فكانا يأكلان بسرعة عندما كان يسرع في أكله وعندما يبطئ كانا يبطئان. كانت عينا الجنرال تحدقان بوجه زوجة المقدم حتى عندما كانت تلوك لحم الحمل. كان يحب المزاح في أثناء الأكل، فكان يؤشر بشوكته عالياً أحياناً وأحياناً تحدث سكينه صوتاً عالياً عند ارتطامها بالصحن بسبب حبه للحم الحمل. كانت السيدة تأكل دون أن تفتح فمها وكانت تتوقف عن المضغ بين الحين والآخر لترسل ابتسامة.

قال لي الشيف: «ستتوقف السيدة عن الأكل عندما يتوقف الجنرال عنه، وهذا ما يخافه الجنرال، سيستمر في الأكل حتى يتأكد بأنها قد أنهت طعامها».

كانوا يتحدثون عن الموسيقى الكلاسيكية وتربية النحل والسجاد ودودة القز وأبعاد أطول أشجار الدردار عمراً وعدم وجود القطارات في كشمير والكشميريين الذين تعافهم النفس والرحلات في حدائق المغول.

كذلك عن نهرو عندما كان رئيساً للوزراء وعن طائرة الهليكوبتر التي كانت تطير إلى مقر إقامته حاملة مياه الينابيع الكشميرية إلى دلهي. توقفوا عن الحديث لفترة وبدأوا بالحديث عن المدن التي ولدوا فيها ومعاهد التربية والإخوة الوطيدة بعدها ذكر أحدهم الموت، الجندي الذي قتل عريفه، والرائد الذي شنق نفسه على الحدود والنقيب الشاب الذي قتل مؤخراً جراء القصف الباكستاني على المثلجة.

- قال الجنرال وقد لامس المنديل شفتيه: «برياني ممتاز».

دفع الشيف عربة الخدمة داخل الغرفة وعليها إناء غسل الأنامل وعاد من أجل صينية الحلوى وفيها ما لذَّ وطاب من الفواكه والحلويات. حلَّ الصمت على زوجة المقدم بشكل غير عادي فقد أغلقت عينيها وببطء خرجت عن صمتها قائلة:

- «لن ينسيني طعم المانغو أي نوع من الفاكهة الكشميرية».

- قال المقدم: «أفضل طريقة لأكل المانغو هي امتصاصها».

- فقال الجنرال: «نعم،نعم».

- «كلما آكل المانغو أتذكر قصة الرائد إقبال سنغ وتلك المرأة المسلمة التي أنقذت حياته...» قالت السيدة ذلك ولم تكمل جملتها.

تجاهل الرجلان الموضوع.

(لم يخبرني أبي أبداً عن شخص أنقذ حياته سنة 1947).

نظرت إلى الشيف الذي قال: «هؤلاء النسوة الكشميريات لا يستطعن إنقاذ كلب»، وهمس: «السيدة تشاهد الكثير من الأفلام».

عاد ثلاثتهم للجلوس على الأرائك.

- سأل الجنرال: «المزيد من الحلوى للسيدة»

- قالت السيدة: «كلا».

- أجابها الجنرال: «السيدة يجب أن تتناول المزيد».

- أجابته: «كلا،كلا».

شغّل الجنرال جهاز التسجيل.

ومرَّ الوقت، مرَّ الوقت بسرعة وبعدها ببطء فالموسيقى تجعل الوقت يمر بطيئاً.

كيف استطاعت المرأة أن تنقذ حياة أبي؟ تساءلت مع نفسي.

رفع الجنرال صوته منادياً على الشيف.

فدخل الشيف وهو يحمل صينية الشاي وحبوب الشَّمار.

- «هل كان الطعام جيداً، سيدي؟». استفسر الشيف.

- «سمك السلمون والبرياني ممتازان هل كانا من حيدر آباد؟».

- «لحم حمل من الدرجة الأولى».

- «باذنجان جيد».

- «إنتاج محلي».

- «الكثير يأتينا من مزرعة الخضراوات الخاصة بنا سيدي».

- «لدي شكوى واحدة فقط».

- «نعم سيدتي».

كانت تحرك قدح الشاي.

- «هل لامست السكين اللحم؟ فقد شممت غير رائحة الخضار في جبنة البانيد».

تطلع الجنرال إلى الشيف.

- «آسف سيدتي، إن سمحت لي سأتأكد من ذلك مع الطباخ المتدرب».

- سأل الجنرال: «الغلام السيخي».

- «سيدي»

- «سيدي إن لزوجتي أنفاً حاد الشم». قال المقدم معتذراً ونفض الغبار عن سترته الحكومية الخضراء الزاهية.

بدا على الجنرال عدم الارتياح.

دخل الشيف إلى المطبخ رفعني من أذني إلى الأعلى ونظر إليَّ بغضب وأسقطني إلى الأرض بضربة مكتومة. تمتمت معتذراً، فدفعني باتجاه الفرن وفتح الستارة وعاد إلى الغرفة.

- «سيدتي، استخدمنا سكاكين منفصلة، تأكدي من ذلك».

«الطباخ المتدرب قال بأنه أضاف ماء الفطر، المذاق غير المألوف جاء من الفطر».

تنفست الصعداء.

- «من هذا السيخي في المطبخ؟». سألت زوجة المقدم.

- أجاب الجنرال متردداً: «ابن الرائد إقبال».

- «ابن صاحبنا إقبال في المطبخ؟».

- «لا تقلقي إنه على الطريق السريع».

- «ألاحظ ذلك».

شاهدت المربية تدخل الغرفة ومعها روبيا. كانت الصغيرة ترتدي كنزة صوفية قرنفلية اللون. أجبرتها المربية أن تلقي تحية المساء على العم والعمة وقد فعلت ذلك بخجل وقد أنبها الجنرال أن لا تكون كذلك قائلاً: «قبل دقيقة كنت تحاولين الانتحار، والآن، يا حلوتي ما الذي أصاب لسانك؟ وفجأة قالت الفتاة: المقدم، العم يستطيع مساعدتي، العم يستطيع مساعدتي. فسألها الجنرال: كيف؟ فأجابت روبيا: «العم رجل بدين»، فقال لها الجنرال: «سلوك سيئ» فردت عليه: «العم يمتلك أصابع ضخمة ويستطيع أن يهيئ المخنقة لي كي أنتحر».

فأجابها الجنرال: «لا تتحدثي بهذه الطريقة».

- «إنه بدين، العم بدين».

- «غني لنا النشيد الوطني؟». قالت لها المربية ذلك. بعد فترة صمت أدت الفتاة ما طلبته منها بصوت طفولي وركضت لكي تختبئ تحت المنضدة.

أرادت السيدة أن تقول شيئاً لزوجها إلا أنها تراجعت عن ذلك وأدارت نظرها باتجاه الستارة وبدأت تمشي باتجاهنا. همس الشيف: «ستقوم الباكستان باحتلال المطبخ». دفعني باتجاه الفرن الطيني وفتح الستارة وابتسم ابتسامة مفتعلة. كانت السيدة تريد أن تتحدث مع الطباخ المتدرب.

رفعت يديَّ وثنيتهما مرحباً، تشوش دماغي، انحنيت لها فقالت شيئاً بالهندية فرددت عليها بإنكليزية جيدة. حركت انتباهي تفحصتها من قدمها إلى إصبعها المزين بخاتم. إنها تقف الآن قريبة جداً مني، كانت لحظة عصبية، لم ينبس الشيف ببنت شفة وكان يراقب بعينين حذرتين. وتساءلت السيدة بلهجة رهبانية عن مسقط رأسي ومدرستي وآلاف الأشياء الأخرى ومن ضمنها هل إني حقاً ابن إقبال سنغ وشعرت بارتياح كلما تكلمت معها أكثر وأكثر وأردت أن أسألها عن قصة والدي الغامضة وفي الوقت نفسه أحببت وجودها الأنثوي في المطبخ وأثر اللقاح القديم في أعلى ذراعها. كانت ترتدي بلوزة بدون أكمام. استدارت فجأة فالتف فستانها إلى الأعلى وبدأ كعبا حذائها العالي ينقران على الأرض وهي عائدة إلى غرفة الاستقبال.

قبل أن تغادر المطبخ قالت لي: تعال لزيارتي يوماً ما. أنبني الشيف قائلاً: لماذا تحدثت مع السيدة باللغة الانكليزية؟ ما زالت روبيا في غرفة الاستقبال مع المربية وقد جلست السيدة إلى جوار الفتاة اليتيمة وداعبت خدها المتورد. كانت الطفلة نسخة طبق الأصل من صورة أمها المتوفية.

كان الرجلان لا يعيران انتباهاً للفتاة والسيدة فقد كان الجنرال يتحدث والمقدم يصغي بعدها تحدث المقدم وأصغى له الجنرال.

تحول الحديث إلى كشمير، لطالما تتحول الأحاديث إلى كشمير.

بدأ جو الغرفة يصبح خانقاً.

المقدم: «سيدي، إن الطريقة التي يعيش بها هؤلاء الناس...».

زوجة المقدم: «عزيزي..ما الذي تعنيه؟».

المقدم: «إن كنت أستطيع القول، فإن كل كشميري لعين لديه زوجة لعينة ثانية».

زوجة المقدم: «هذا يعني أنه يجب أن تكون هناك امرأة ثانية لكثرة النساء في كشمير».

الجنرال: «إن لزوجتك رأياً في هذا الموضوع».

المقدم: «كلا يا سيدي، إن العرائس يأتين إلى كشمير من بنغلادش ويجلبن معهن رجالاً مسلمين لهم علاقة بالمسلمين في أفغانستان وباكستان يقومون بالسكن في الجوامع».

زوجة المقدم: «إن روبيا تستمع لهذا».

«نهض زوجها فجأة ومشى باتجاه النافذة».

المقدم: «اشتد الظلام في الخارج، أيتها الصغيرة لقد كان غناؤك رائعاً، أنت فتاة كبيرة الآن».

زوجة المقدم: «شش، الفتاة».

المقدم: «سيدي أنا أحب بلدي الهند، أيتها الصغيرة، ماذا ستصبحين عندما تكبرين؟».

روبيا: «سأنتحر».

المقدم: «دعي المزاح جانباً ما الذي ستفعلينه بالفعل؟».

روبيا: «سأذهب إلى أميركا».

زوجة المقدم: «ولِمَ ذلك؟».

روبيا: «أبي يقول ذلك».

المقدم: «أميركا بلد مدهش، سيدي إن ابنة الطبيب تدرس في جامعة نيويورك، وهي تحبها».

زوجة المقدم: «دعنا نغادر، نحن جميعاً نحب النوم، أليس كذلك عزيزي؟».

قهقهت.

المقدم: «دعيني أقول للجنرال شيئاً أخيراً يا عزيزتي. لقد توصلت إلى الحل المثالي في التعامل مع الباكستان. سيدي، الآن وبما أننا نمتلك السلاح النووي، إن الأمر بسيط... لقد ناقشت الفكرة مع السيد

جوش ولكن بدا لي يا سيدي أنه لم يهضمها... قبل ليالٍ عدة استيقظت في فراشي مفكراً. لِمَ لا نقوم، وهذه مجرد فكرة، بحفر حفرة في المثلجة وأن ندفن القنبلة في داخلها، بالطريقة نفسها التي قمنا بها في رمال الصحراء، ونقوم بتفجيرها لكي تذوب المثلجة وتتجه ملايين اللترات المكعبة من الماء باتجاههم لتجرف عدوّنا من الوجود سيدي؟».

الجنرال: «لكن العدوّ أيضاً يمتلك السلاح النووي».

المقدم: «سنقوم بذلك أولاً».

زوجة المقدم: «عزيزي، أنت وأفكارك، اسمح لنا يا سيدي أن نغادر».

- «كان شيئاً ساراً».

- «كان مسراً سيدي».

- «عمتم مساءً».

- «عمتَ مساءً سيدي».

- «عمتَ مساءً سيدي».

- «عمتَ مساءً، عمتِ مساءً عمتي».

- «عمت مساءً روبيا».

- «عمتم مساءً».

غادر المقدم وزوجته بعد أن أخذ الوداع وقتاً طويلاً وقد لوّح لهم الجنرال من الشرفة مودعاً فهما يسكنان في بيت قريب وقد استخدما المصباح اليدوي عند سيرهما على الممشى الضيق المغطى بالحصى. كنت أقف خارج المطبخ لاستراحة قصيرة ولتسكن نفسي، فسمعت مصادفة حديثهما. لقد جعلتني أفكار المقدم حول المثلجة قلقاً جداً.

- «بالله عليك يا عزيزي، أنا أعرف أن هناك شيئاً آخر يضايقك».

- «لقد أفسدت فرصة حصولي على الترقية».

- «لا تقل ذلك».

- «لماذا ذكرت شيئاً عن السكاكين؟».

- «عزيزي - ألم تفهم الوضع؟».

- «لقد قمت بتحطيمي».

- «عزيزي، بالله عليك».

- «لا تقولي عزيزي، بل قولي عدوّي، ألم تشاهدي كيف كان الجنرال صامتاً بعد أن قلت ذلك الشيء التافه؟».

- «إنه يحبك».

- «لن أصبح عقيداً بعد الآن».

- «إذن لِمَ ركضت فجأة باتجاه النافذة؟».

- «المشهد».

- «لا تكذب، هل تعتقد بأني لا أعرف؟ لقد اختفيت بسبب... هل تعتقد بأني لا أعرف لِمَ ركضت باتجاه النافذة وضحكت عالياً وضربت بقبضتك بقوة على المنضدة؟».

- «ليس في ذلك عيباً إن لم يلاحظ».

- «يجب على المرء أن يعتذر كما لو أنه سيعطس ويفعل ذلك».

- «كما فعل الجنرال، يجب عليَّ القول بأنه أكثر ذوقاً».

بدأت أصواتهما تخفت وضوء المصباح أصبح نقطة صغيرة واختفيا.

وهيمنت على المكان أصوات الصراصير والخفافيش والذئاب. لاحظت الليل وقد ترنم بالنجوم. لم أسمع من قبل زوجين يتحدثان حديثاً خاصاً، لقد كانا يتحدثان كأبناء المدن.

كان المطبخ ما زال ممتلئاً بعطرها الأخاذ. وقد وجدت أن من الصعب عليَّ أن أعبر عن مشاعري للشيف، لذا أسرعت بإعداد الشاي وقدمته له وشكرته لكي أنقذ نفسي من العقوبة، تحدثت معه عما دار بين المقدم وزوجته وقد سخرت من السيدة باللغة الانكليزية، لكنه استمر صامتاً بشكل غير اعتيادي.

- «هل هناك خطب ما» سيدي؟

- «لا تتحدث بالانكليزية» وحدّق بي.

كان طبيعياً أن يفقد هدوءه في المطبخ عندما يقوم مساعدوه بلعق أصابعهم أو عصر أنوفهم ويهدد بطردهم من المطبخ. ما عدا بعض الاستثناءات فقد كان الشيف ليناً معي، ولكن في ذلك اليوم فقد تلك الليونة، فقد بدأ ينزل بلاءه عليّ، وكل ذلك بسبب الانكليزية لقد صنعت الانكليزية حاجزاً بيننا.

لقد ارتكبت خطأً صغيراً لا قيمة له مقارنة بالخطأ الذي قام به «لقد رفض أن يقدم الشاي لضابط مسلم». ولقد كان يعيد هذه القصة غالباً عندما يكون مزاجه جيداً بشكل استثنائي. كان يتفاخر بلغة هندية سليمة (لقد رفضت تقديم الشاي لذلك الرجل). مرات عديدة، عندما كنت صانعاً عنده حاولت أن أسأله لِمَ يَفعل ذلك؟ هل إن السبب هو الرائحة؟ هل سيستمر في فعل ذلك؟ وماذا بشأن الحدائقي آغا؟ هل كان يكره آغا أيضاً لأنه كان مسلماً؟ غير أني لم أستطع أن أستجمع شجاعتي لألقي عليه السؤال.

«كنت حتماً شخصاً ضعيفاً». هكذا قلت لنفسي في القطار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(9)

في سرينجار ومتى ما كان المقدم جوظري في مهمة على الحدود، خلال غيابه الطويل كنت أخرج للسير وأجتاز منزله، كانت شجرة دردار معمرة في الحديقة رُبطَت في غصن عالٍ منها أرجوحة كانت أحياناً تتحرك لوحدها بفعل الريح وأحياناً كانت زوجة المقدم تهزها بقوة هائلة وكانت قدماها تلامس الأرض بين الحين والآخر.

إلى هذا اليوم لا أستطيع أن أنسى قدميها المثاليتين وقد تلطختا قليلاً بتراب كشمير.

ولكن شيئاً ما يزعجني كلما نظرت إليها أو فكرت بها في غرفتي. فصوت الغيتار الذي يتردد صداه في رأسي. واستحضاري صورة العازف وأصابعه المقطوعة بسبب حبه للسيدة يبعثان قشعريرة باردة في عمودي الفقري. قبل أن أراها لم أجرب هذا الخليط من الخوف والرغبة ولأني إنسان ضعيف فقد بدأ الخوف بالتضخم والرغبة بالتلاشي. ما أنقذني من ذلك الخوف هو نوبة مفاجئة من عسر الهضم، فقد أدى بي الإسهال إلى المستشفى وهناك قابلتُ الممرضة ثانية وتحولت كل رغبتي تجاه السيدة إلى الممرضة، والآن ها أنا أفكر بها ثانية، وكما حدث قبل أشهر عدة فإن كل رغبتي قد تحولت من الممرضة باتجاه السيدة. كانت قدما ويدا الممرضة تشابه قدمي ويدي السيدة كل جسمها يشبه جسم السيدة تقريباً، الفارق الوحيد كان هو أن الممرضة كانت أكثر سمرة، سمارها كلون القرفة الصينية.

ولكن ها آنذا أتجاوز حدود نفسي.

مرة استجمعت شجاعتي ودخلت ماشياً إلى بيت المقدم جوظري، ظاناً أنه لم يكن موجوداً، غير أن الرجل كان موجوداً فقد استقبلني مع زوجته في الحديقة. طلبت مني أن أجلس على الكرسي غير أني نظرت إلى المقدم ولم يوم وجهه لي بقبول طلبها لأن ذوي الرتب الصغيرة لا يجدر بهم الجلوس مع ضابط حتى ولو كان أخاهَم. بقيت واقفاً ويداي خلف ظهري. لقد كانت واقفة أيضاً، قالت: «حسنٌ إنك قدمت». فقلتُ لها وأنا أنظر إلى عينيها: «إن سبب قدومي هو رغبتي بسماع قصة والدي فإنه لم يخبرني تفاصيلها أبداً».

قالت: «نعم، أعتقد ذلك»، «غالباً ما كنت أفكر بك بعد دعوة العشاء في بيت الجنرال». فقاطعها المقدم قائلاً:

- «مَنْ؟ الفتى كربال؟».

- فقالت: «لا، لا الرائد إقبال، لقد كان كتوماً ونادراً ما يفتح فمه ولقد حدث هذا قبل أن ألتقي بك، ومرة وعلى عشاء دعينا له أنا وزوجي السابق، والله وحده يعلم حقيقة الأمر، أبسبب الطعام والخمرة والموسيقى، أطلق الرائد العنان للسانه ذلك المساء ولكن عندما تحول الحديث إلى التقسيم بدأ الصمت ثانية فصببت له كأساً أخرى».

صمتت السيدة لبرهة قصيرة وجلست على الكرسي قائلة:

«لِمَ لا تجلسان أنتما الاثنان أيضاً؟». ضاربة جبينها بيدها. جلس المقدم في الحال فيما جلست أنا على الأرض ولكنها نهضت وخطت باتجاهي ومدت يدها وساعدتني للتحرك إلى الكرسي الفارغ فيما كان المقدم ينظر إلى الجهة الأخرى، في البداية لم أشعر بالارتياح ولكن اتضح لي أنها كانت تريد معاملتي كابنها من خلال طريقتها في رواية قصة أبي لي بحضور المقدم الغاضب.

«في آب 1947 كانت الهند قسمت تواً من قبل البريطانيين.

فوجد الآلاف من السيخ من لاهور أنفسهم على الجانب الخاطئ من الحدود الجديدة، هذا ما أخبرني عنه والدك الرائد إقبال. لقد قال لي: «كنت في التاسعة من عمري واعتدت أن أربط شعري الطويل على شكل عقدة فوق رأسي ولم أكن قد بدأت بارتداء العمامة بعد وقد اعتدت أن أغطي العقدة بقطعة صغيرة من قماش قطني رقيق (وابتكرت أمي طريقة لربطها بواسطة حزام بلاستيكي لإبقاء العقدة ثابتة). كان الإفطار جاهزاً وكان أعمامي وعماتي وجداي مجتمعين في غرفة المعيشة. كنت أستطيع رؤية الأرضية المفروشة والأرائك الناعمة ومن خلال النافذة كنت أرى شجرة المانغو في الساحة. كانت جدتي قد أعدت فطوراً شهياً في المطبخ وحاولت أن تنصح أمي بعدم إرسالي إلى المدرسة بسبب حالة التوتر بين الناس، غير أن أمي قالت بأن التعلم مهم جداً. ركضت طوال الطريق إلى المدرسة حاملاً حقيبتي الثقيلة لأجد إعلاناً كبيراً على الباب الرئيس بأن الدوام في المدرسة قد توقف. كانت المدينة تحترق ودور العرض السينمائي مغلقة والنار والدخان وجثث الهندوسيين والسيخ والمسلمين في كل مكان، عدت راكضاً إلى بيتنا عبر شوارع متفحمة وعند وصولي إلى البيت وجدت جميع أبوابه مفتوحة والمياه تصب من الصنابير بلا سبب محدد. في غرفة المعيشة وجدت على الأرائك وعلى السجادات الحمراء الرؤوس المقطوعة لجدي وجدتي وأمي وأخواتي وبقية أفراد العائلة، لقد قام القتلة بتجميعها وتكديسها بشكل مرتب كما لو أنه كان سوق فواكه.

«ركبت القطار ذلك المساء إلى الهند لكنه توقف، لقد كان القطار الخاطئ» هكذا قال لي والدك. «كان القطار المقبل من الهند باتجاه باكستان الوليدة مليئاً بالمسلمين ولن يعود إلى الهند ثانية، لا يمكنني أن أنسى نظرات المسافرين معي، كان يبدو عليهم القلق عليَّ. كنت خائفاً جداً ولكني أخفيت خوفي. أطلت النظر إلى المرأة الجالسة على المقعد المقابل لي. وقفت وسط الناس المحيطين بها وهي تمتص ثمار المانغو وقطرات الماء تتساقط بين الحين والحين على أظافر قدميها الخضراء، كانت تلبس حذاءً عالياً وثوباً من ثلاث طبقات يصل إلى قدميها. لم تكن تغطي وجهها لكن رأسها وبقية جسمها كان مغطىً بعباءة سوداء كما لم تكن يداها وقدماها مغطاة وبدا عليها التحرر. كانت أثوابها والساري والبرقع ترفرف في الهواء فشباك العربة كان مفتوحاً وكانت الريح تضربنا بعنف.

توقف القطار على رصيف مزدحم وتوقفت معه الريح وأخذ الهواء في العربة يصبح ساخناً راكداً مزعجاً. من خلال النافذة رأيت قطاراً آخر على الجانب الآخر للرصيف، كانت العربات تتشح باللون الأحمر لكثرة الناس في داخلها وعلى سقوفها.

على الرصيف كان خمسة أو ستة من المسلحين بسيوفهم المجردة يسألون المسافرين عن وجود الهندوس والسيخ في القطار. توقفت المرأة عن أكل المانغو وبدأت تحدق بي بعينين قاسيتين كادتا أن تتفجرا. وفجأة سحبتني من رسغي باتجاهها ودفعتني بسرعة تحت مقعدها. لم أكن طويلاً فقد كنت في

التاسعة فقط لذا فقد كان المكان مناسباً، وكانت الأصوات تقترب منا في الممرات باحثة عن السيخ والهندوس. عادت المرأة إلى امتصاص المانغو ثانية، وبدأت القطرات تتساقط، كان الرجال قريبين جداً من عربتنا وللحظة اعتقدت بأنها ستسلمني لهم وبدأت تدق بكعبي حذائها مما أرعبني تحت مقعدها. لِمَ كانت تدق؟ هل كانت تثير الانتباه؟ هل كانت دقات كعب حذائها محاولة لإفهامي شيئاً ما؟ نقرت بقوة لآخر مرة وسحبت أثوابها الثلاثة والساري والعباءة إلى الأعلى في الهواء وحينها فهمت! زحفت قليلاً في الداخل، وفي الحال أنزلت ثيابها لتلامس أرضية العربة فغمرني الظلام من حولي.

- سأل أحد الرجال: «أين الفتى السيخي؟». «لاحظنا من الرصيف وجود فتى سيخياً على متن هذا القطار».

- قال أحد المسافرين: «أي سيخي؟».

ملأ الرجال الشك وفتحوا حقائب عدة ونظروا تحت المقاعد.

لقد كنت أسمعهم ولكني لم أكن قادراً على رؤية شيء فقد كنت محبوساً داخل ظلمة حالكة. كنت وكأني في دار عرض سينمائي لوحدي ملفوفاً بالشاشة البيضاء ولا فيلم يعرض. لقد كان الفيلم الحقيقي يعرض خارج الصالة. استمرت المرأة بأكل المانغو واستمرت القطرات تتساقط ولم ينبس أي من الركاب في العربة بكلمة واحدة وتخيلت بأنهم قد أداروا رؤوسهم بالاتجاه الآخر. لقد كان الركاب جميعاً من المسلمين. عندما توقف القطار ثانية كان الظلام دامساً جداً فزحفت من تحتها فقامت بحل عقدة شعري بسرعة وجعلته ينسدل إلى الأسفل لكي أبدو مثل الفتاة وقالت لي: «هذا كل ما أستطيع فعله، لا أقدر على فعل أي شيء آخر من أجلك».

بعدها قبلتني على خدي وأعطتني قليلاً من الطعام وسارت بي إلى معسكر اللاجئين على حافة المدينة.

قالت زوجة المقدم: «لم أكن لأخبرك هذه القصة لولا أنك قد سألتني عن التفاصيل، لن أكون قادرة على النوم هذه الليلة».

كانت زوجة المقدم ترتجف وأنا مطرق بنظري إلى الأسفل. وقالت: «لحد هذا اليوم لا أستطيع أن أفهم لماذا صار والدك جزءاً من هذه القصة المؤلمة؟». أتذكر أنه عندما كان يخبرنا التفاصيل بدا لي وكأنه غير موجود هناك وبدا عليه بأنه لم يهتم بوجودنا. عادة الرجال لا يراقبون أجزاءً معينة من القصة بحضور امرأة إلا أن إقبال كان في مكان آخر تلك الليلة ولم يهمه إن كنت أستمع أو لا.

«اصغِ لي يا ولدي». قال لي المقدم: «حان الوقت لتعود إلى بيت الجنرال».

«نعم سيدي» «وقمت واقفاً وغادرت».

غادرت السيدة إلى الداخل لذا لم أستطع أن أشكرها. لم أكن قادراً على فعل ما أريده فأنا ضعيف جداً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(10)

كوني من طائفة السيخ فقد كنت مولعاً بشعري، وبعض أكثر ذكرياتي حسية لا علاقة لها بالطعام على الإطلاق، بل هي حول الشَّعْر والطريقة التي كانت أمي تغسله وتمسده وتمشّطه وتظفره وتربطه عقدة على رأسي. لقد كان شعري طويلاً أسود مجعداً وكلما كنت أجففه خارج المنزل كانت الريح تجعل رأسي في دوامة. قصصت شعري قصيراً قبل خمس عشرة سنة ولكن خلال السنوات الأربع الأولى في كشمير جعلته طويلاً واعتدت أن أربطه بعمامة سوداء. يؤمن السيخ بالكتاب المقدس (أدي كرانث) والأمراء العشرة وأولهم مرشد الهندوس (ناناك) وعاشرهم «غوبند سنغ» ولا أحد يعرف ما هو شكل المرشدين الروحيين غير أن أشكالهم في الصور تبدو وكأنهم ضائعون في تأمل عميق غير مبالين بهالات التقديس البيضاء وراء عمائمهم الصوفية.

حاولت في كشمير أن أشتري صورة للنبي محمد فأخبرت بعدم وجود مثل ذلك وكان من الصعب استحضار صورته في الذهن وكلما حاولت ذلك فشلت في تخيل صورته.

في سرينجار وفي المسجد ذي المنارة الواحدة كانت توجد جديلة من شعر النبي التي وصلت إلى كشمير في قارورة ضمن أمتعة أحد العلماء قبل قرنين أو ثلاثة. وفي كل عام يتجمع آلاف البشر في يوم خاص لكي يتبركوا بهذا الأثر المقدس. في البداية كنت أعتقد أن الشعرات التي في القارورة هي من شعر رأس النبي غير أن الشيف صحح لي اعتقادي قائلاً: إنها من لحيته.

إن نسيت بعض التفاصيل عن تلك الفترة من الزمن فإن ذلك بسبب قلة نومي في تلك الأيام. كان المسجد هو الأقدس في كشمير غير أنه تم الاستيلاء عليه من قبل مجموعة من المتطرفين الذين اعتادوا أن يتجمعوا في الحرم ويرددوا الأذكار.

كانت القارورة محفوظة تحت حماية أمنية مشددة غير أنها اختفت في أحد الأيام وقد قرأنا عن هذه السرقة في الصحف. وقد خرج الكشميريون إلى الشوارع بالملايين متظاهرين ضد بلادنا ملقين باللائمة على قادتنا مشعلين النار في المباني الحكومية والسيارات وأصبح الوضع خارج السيطرة. استمرت أفكاري خلال أيام تلك التظاهرات تتحول إلى زوجة المقدم. وفي اليوم الثالث للتظاهرات استجمعت شجاعتي وسرت ثانية إلى بيتها غير أن الحاجب أخبرني بأنها في غرفة المعيشة تتلقى دروساً في الرقص من أحد المدربين. انتظرت في الحديقة ومن خلال النافذة كنت أشاهد خيالهما يدوران بسرعة غير أني لم أستطع سماع خطواتهما. وأخيراً، نادت عليَّ باسمي من الشرفة فرفعت يديّ تحية لها.

- «لماذا جئت إلى هنا؟».

- «هل أنت غير مرتاحة لذلك؟».

- «كلا، كلا».

- «لقد جئت لأتحدث معك».

- «تتحدث معي؟».

- «نعم»، ترددت للحظة، «لا تبدو عليك السعادة».

- «ربما كان مجيئك لكي تطلّع على مطبخي؟».

- «نعم، نعم سيدتي».

- «إذن تفضل بالدخول».

مررنا من خلال غرفة المعيشة، وعلى الأريكة كان رجلاً مألوفاً لي جالساً، إنه مساعد الجنرال، وما أن رأيته حتى تجمد قلبي من الرعب،كان يرتدي قميصاً ذا أكمام فرنسية وحذاءً غالياً وبدت عليه الثقة، ألقيت عليه التحية».

«جاء كب ليتفحص المطبخ». أخبرته السيدة.

«أرى ذلك»، أجابها محدقاً بي.

تبعتها ولم يكن أحدٌ في المطبخ. وقفت بجانب الثلاجة ووقفت إلى جانب حوض غسيل الصحون. قالت لي:

- «ليس لدينا الكثير من الوقت، والآن أخبرني....».

- «نعم سيدتي».

- «ما الذي سمعته عني؟».

- «لا شيء».

- «أخبرني».

- «لا شيء».

- «كذاب، كان والدك مختلفاً».

- «لا شيء حتى الآن سيدتي».

- «في هذه الحالة فإنك ستبدأ حالاً بسماع الأشياء».

- «نعم سيدتي».

- «أتفهم ذلك؟».

- «نعم أفهم».

- «ما الذي سمعته؟».

- «إن سمعت أشياء تخصك فسأغلق أذناي».

- «أستغلق أذنيك؟».

- «نعم، نعم سيدتي».

- «أرني كيف؟».

- وضعت أصابعي في أذني وشعرت كأني طفل.

- «تغلق عينيك أيضاً؟».

فعلت بالضبط ما أمرتني به وأغلقت عيناي.

سمعت خطواتها تقترب مني ولم أكن متأكداً، بعدها شعرت بثوبها يلامس قميصي وللحظات معدودة طعنتني بثدييها النافرين بعدها تراجعت إلى الخلف وبدأت تصفع وجهي بظاهر يدها شمالاً ويميناً وشمالاً ثانية.

- «عمتي». وفتحت عيناي.

- «لا تعد ثانية؟، إنك مثل ابني».

دخلت مسرعة إلى الغرفة المجاورة قائلة شيئاً سخيفاً لمساعد الجنرال واستأنفا دروس الرقص.

سلكت طريق العودة الطويل إلى مقر إقامة الجنرال بأنفاس رطبة جراء الركض فأبطأت وكانت هتافات وشعارات الكشميريين ترن في أذني ولا أستطيع الخلاص منها.

بعد يومين كنت في المطبخ أنظر من خلف الستارة إلى غرفة الطعام، وكان الجنرال وزوجة المقدم وحيدين هناك، كانت تبدو جميلة وصوتها يحمل موجات من الضحك. كان من المفروض أن يكون المقدم موجوداً فكلاهما كان مدعواً لكن الجنرال أرسله لحضور اجتماع القانون والنظام الطارئ مع مدير الشرطة والمحافظ.

كانت الانكليزية التي يتحدثان بها طليقة ومصطلحاتها جيدة وكان العشاء من الكباب المشوي جاهزاً وكانا على وشك البدء عندما رن الهاتف الأحمر وردَّ الشيف الذي كان يقف قريباً من الهاتف:

- «مقر إقامة الجنرال كومار».

- سأل كومار: «مَنْ على الهاتف؟».

- «سيدي سكرتيرة رئيس الوزراء على الخط... رئيس الوزراء يود التحدث إليك لأمر طارئ سيدي»

- «هل هو على الخط؟».

- سيدي ستخبر السكرتيرة الآن السيد رئيس الوزراء بأنك موجود وقد طلبت مني إخبارك ألا تكون بعيداً عن الهاتف، سيدي».

خيم الصمت التام على البيت لمدة عشر دقائق، كان صعباً على زوجة المقدم أن تبقى صامتة إلا أنها بقيت كذلك.

مشى الشيف على رؤوس أصابعه إلى المنضدة وغطى صحون الطعام وكان ذلك أعلى صوت خلال تلك الدقائق العشر.

طلبت السكرتيرة الجنرال ثانية:

- «رئيس الوزراء على الخط، سيدي».

وقف ملتصقاً إلى مائدة الطعام خلال المكالمة. فيما بعد أخبرنا الشيف في المطبخ بالأمور الأساسية. أخبر رئيس الوزراء الجنرال بأن تعود خصلة الشعر المقدسة إلى مكانها الطبيعي خلال مدة ثمان وأربعين ساعة. لم تطرح أسئلة خلال المكالمة. لقد فشلت الشرطة في إنجاز هذه المهمة لذا فإن رئيس الوزراء طلب من الجيش أن يتصدى لذلك.

لم يسبق أن بدا على الجنرال القلق والتوتر. كانت تعابير وجهه كمن أمر لأول مرة في حياته أن يذبح عنزة صغيرة. كان يحك رأسه وينتف شعره بينما يتحدث في التلفون. كان يقول:

- «سيدي سنبذل قصارى جهدنا. نعم سيدي..كلا سيدي... سننجز المطلوب سيدي».

مباشرة بعد انتهاء المكالمة أخذ قطعة من الكباب من على المائدة وظل يمضغها يميناً ويساراً في فمه دون أن يبلعها.

«ماذا ستفعل الآن؟»، سألته زوجة المقدم.

بقي الجنرال مستمراً في مضغ الكباب.

لا أحد يعرف، لغاية هذا اليوم، أين وجدت القارورة التي تحوي الضفيرة المقدسة ولكن بعد مرور ثمان وأربعين ساعة عمَّ الهدوء وواجه الجيش عقبة أخرى فقبل أن تعاد الضفيرة إلى الجامع يجب أن يصادق عليها شرعياً.

سمي الجامع خمسة من الأئمة الأفاضل لتفحص الضفيرة المقدسة من الناحية الشرعية. وقد تم نقلهم جواً إلى سرينجار على متن طائرة من نوع دي سي3 وكان واجبهم أن يؤيدوا أن الشعر الموجود في القارورة حقيقي.

طلب منا مساعد الجنرال في المطبخ أن نعد طعاماً ملائماً لرجال الدين فمن المهم أن نجعلهم يقدرون النوعية العالية لأطباقنا وكان مساعد الجنرال ينظر باتجاهي في أثناء الحديث.

وفيما بعد قال لي الشيف: «هذا هو اختبارك الحقيقي».

«كان اختبار التطوع مجرد شيء تافه. في هذه اللحظة الحاسمة من سيرتي وسيرتك وسيرة الجنرال وفي هذا المفصل الحاسم في علاقات كشمير مع الهند ما هو الطعام الذي ستعده»؟.

- «في هذه الحالة يجب علينا أن نصبح مسلمين».

- «نهتدي إلى الإسلام؟».

- «نعم بالطبع».

- «الشيف ليس جاداً».

- «الشيف جاد فعلاً».

- «إذا كان إعداد طعام إسلامي في المطبخ سيؤدي إلى إحلال السلام في البلدة فأنا أتوق للاهتداء إلى الإسلام ليوم واحد».

- «أحمق».

يقوم الشيف بإعداد الأطباق الإسلامية الكشميرية بيديه بانفعال وتأثر كبير، مَنْ علّمه ذلك؟ سألته فأجابني سأخبرك فيما بعد أيها السيخي إلا أنه لم يفعل ذلك أبداً. بالنسبة لي فقد كانت فرصة أرسلها لي الله لكي أتعلم أساليب المطبخ الغربية وأسماء الأكلات الإسلامية الكشميرية التي لا أعرفها وعددها ست وثلاثون وبعضها غريب وكأنه من الحكايات. أعرف الأكلات الكشميرية الهندوسية لكنها تختلف عنها فأكلات إسلامية معينة تشمل غلي اللحم لسبع أو ثمان ساعات حتى يتجزأ إلى خيوط دقيقة كخيوط الحرير. طبخنا في خيمة نصبت في الحديقة خلف الجامع وقد كنت مستعداً لأن أسحب القدور النحاسية وأخفض شعلة النار. أتذكر نصب منضدة الطعام الطويلة تحت شجرة الدردار وقد غلفت بشرشف أبيض يهفهف في الهواء. تم صف الطعام على المائدة بأنواعه المتعددة ولم يبق مكان فارغ على المائدة.

كانوا على وشك البدء بتناول الطعام.

ولكن...!

طلب كبير العلماء من الجنرال أن يتحدث إلى الطباخ قائلاً:

«أريد أن أحدث الطباخ قليلاً». وضع الشيف قبعته العسكرية على رأسه وطلب مني مرافقته فوضعت عمامتي السوداء على رأسي وزررت سترتي البيضاء. مشينا معاً إلى الشجرة ووقفنا أمام المائدة صامتين ننظر. كان مقدم الكتيبة يجلس على يسار الجنرال، خاطبني قائلاً: «كيشان إن السيد العالم يود أن يوجه إليك سؤالاً». كان الإمام يجلس على يمين الجنرال.

وقف الشيف واثقاً متقدماً عليَّ قليلاً ويداه مشبوكتان خلف ظهره.

بدأ الإمام كلامه متسائلاً: «أردت فقط التأكد من أن اللحم المستخدم مُذكى»؟

تنهدت بارتياح وأعاد الشيف تأكيده للإمام والعلماء الآخرين بأن اللحم المستعمل حلال مذكى غير أنه لم يقف هناك وعبَّر عن أشياء قليلة، أشياء إضافية أعتقد بأنها ما حطّمه. وهذا ما قاله فإن كلماته ما زالت ترن في أذني:

«سيدي، لقد استخدمنا لحماً حلالاً فقد جلبنا اللحم من محل قصاب مسلم في لال جوك. إن العديد من الصحون اللذيذة يمكن تحضيرها باستخدام لحم الخنزير حلالاً كان أو حراماً، لكننا لم نستخدم لحم الخنزير، استخدمنا لحم الضأن فقط. بالنسبة لي شخصياً أنا لا أميل لذبح الخنازير».

توتر الحال حول المائدة وبدا على الإمام بأنه سيتقيأ.

الجنرال: «لم يجرِ استخدام لحم الخنزير؟».

الشيف: «استخدمنا لحم الضأن فقط سيدي».

نظر الجنرال إلى الأمام وبعدها إلى مقدم الكتيبة.

المقدم: «لم يجرِ استخدام لحم الخنزير سيدي».

الشيف: «لحم الضأن فقط يا سيدي وهو حلال بالتأكيد لم يمس رجال الدين صحون اللحم وأكلوا قليلاً من غيرها وأسرعوا إلى خيمة الفحص بعباءاتهم الغامقة وتبعهم البعض ممن يعمل في المطبخ.

نصبت وحدتنا العسكرية خيمة كبيرة في الجانب المرتفع من الحديقة. أجلس العلماء على سجادة ورأيت الجنرال ومدير الشرطة واقفين إلى جانبهم وعدم الارتياح بادٍ على وجهيهما تنقلت القارورة من يد إلى أخرى واستقرت آخر المطاف بيد كبير العلماء الذي كان جالساً يتطلع إليها باندهاش طوال عشرين دقيقة ليعلن فتواه، لم أشاهده يحني رأسه لكنني لاحظت تعابير التوتر على وجه مدير الشرطة قد تحولت إلى ابتسامة وسمعت تنهيدة الارتياح التي أطلقها الجنرال.

أعيدت القارورة إلى الجامع ووضعت في الغرفة الحصينة وتوقفت الاحتجاجات في الشوارع ولم أعرف حينها بأن تلك الساعات كانت آخر سويعات فترة تدريبي على صنعة الطبخ.

في اليوم التالي استلم الشيف أمراً مكتوباً من مكتب المقدم. لقد تم إنزال رتبته ونقله فوراً إلى مثلجة سياشين في مرتفعات كاراكورام.

وعليه أصبحت من حينها شيفاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل أن يغادر أعددت له كعكة إيطالية وملأت له قدحاً كبيراً من البيرة. في أثناء ذلك الغداء أدار شريط التسجيل الذي يحتوي على الموسيقى الألمانية الهادئة وأخبرني الكثير من الأمور الشخصية التي بدت حينها مضحكة ولكن مع مرور الزمن أصبحت أكثر جدية وتحدث لي عن عائلته.

بدأ حديثه بإخباري أن الهندوس الكشميريين ليس لديهم مشكلة في أكل اللحوم فاعترضت عليه بأن البرهاميين لا يأكلون اللحم.

- «إنهم يفعلون ذلك كربال». «في الماضي كانوا يأكلون البقر والديوك.. لا تنظر إليّ هكذا».

ملأ قدحاً آخر من البيرة.

- «في هذا البلد لدينا الكثير من المحضورين وأحياناً أشعر بالإعياء منهم، حقيقة أشعر بالمرض منهم».

- «ولكن في الكلية أخبرنا الأستاذ بأنه بسبب هؤلاء المحضورين فإننا الهنود من الهندوس والسيخ والمسلمين كنا مستعدين للنهوض ضد البريطانيين عام 1857. قام الضباط بتوزيع الأسلحة بأسلوب قديم فقد تم إخبار الجنود بنزع المخازن لغرض إملائها بالعتاد غير أنها كانت مزيتة بزيت الخنازير والبقر الرديئين ولقد رفضنا التمرد. كانت معركتنا الأولى من أجل الاستقلال».

- «نعم، نعم لكن ذلك حدث فيما بعد».

- «لكنه حقيقة يا الشيف».

- «في عام 1857 اصطف السيخ مع البريطانيين».

- «إنك تحاول أن تعدَّ جميع السيخ بواحد». كما لو أن هناك نوعاً واحداً من التوابل؟. نوعاً واحداً من المانغو؟ نوعاً واحداً من المشروبات؟.

- «نوعاً واحداً من النساء!؟».

- «إنني جاد فيما أقول».

- «وأنا كذلك، أنا كذلك، لاحظ يا كربال أن الأطعمة التي لا آكلها والأشياء التي أجدها مثيرة للاشمئزاز تأثيرها أكبر من تأثير الدين في ذكرياتي. فمثلاً الشوكولاته فأنا أبتعد عن الأماكن التي أشعر بوجودها فيها».

- «ولِمَ ذلك؟».

- «بسبب أبي».

- «أبوك؟».

- «على فراش الموت في المستشفى رغب أبي ببعض الشوكولاته». فأسرعت إلى دكان في السوق وحينما رجعت كان قد فارق الحياة. ومنذ تلك اللحظة أصبحت رائحة الشوكولاته مثيرة للاشمئزاز. وأحياناً أسمعه يقول لي: بني كل الشوكولاته إكراماً لي، لكنني ما أن أراها أو أشمها حتى تتحطم رغبتي بها».

«لكن القصة التي أود أن أرويها لك حقيقة هي قصة جدي. على الرغم من كونه برهامياً، لم يكن جدي يؤمن بالطبقة المقدسة اجتماعياً كما لم يؤمن بالمقدسين من الهندوس، نادراً ما كان يدخل المطبخ، لم يكن طباخاً ولا يعرف ماهية طعامه، لم يكن يعير أي اهتمام لمن يطبخ في المطبخ طالما أن الخضار وغيرها كان طعمه جيداً. كان جدي متزوجاً من امرأة عجوز لا تجيد الطبخ وتؤمن بالمقدسين وكانت تقول بصراحة بأنها ستموت لو أن أحداً أقل من المقدسين أعد لها طعامها. ومرة كانت مريضة فأعدت لها الطعام امرأة من طبقة أدنى من المقدسين وفي اللحظة التي كشف لها جدي

هوية الطباخة غادرت المرأة الحياة، سقط رأسها في قدر الحساء على المنضدة التي غطتها البقع الصفراء. بعدها أصبحت الطباخة جدة لي».

«بعد ذلك وفي النهاية، مهما حاولنا فإننا أناس من طبقة دنيا. الجيش ملك الضباط يا كربال، أنا لا أساوي شيئاً. أطعمهم وأخدمهم وأتلقى أوامرهم وأتحمل حرارة نار الفرن ثم أطرد أو أغادر برغبتي. حياتي وعملي لا يساويان شيئاً. ما الذي سأقوم بفعله في المثلجة، إنهم يأكلون الطعام المعلب على المرتفعات العالية. نحن أناس لا يهتم بنا أحد».

في اليوم التالي استقل كيشين الحافلة إلى المثلجة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القسـم الثانـي

(11)

الكثير من الأشياء تبدأ ببيضة. «يبدو الورم لديك كأنه بيضة»، قال الطبيب ذلك ثم أضاف بصوت دقيق ومحذّر: «من ثلاثة أشهر إلى سنة، قد تساعدك الجراحة». و«العلاج الكيميائي عذابٌ قد يطيل حياتك».

قلت له: «لا أقدر على تحمل العلاج، فقط قل لي ما الذي سيحل بي؟».

- «توقع بعض التغييرات»، «أنت طباخ، أليس كذلك؟». السرطان مرض يطبخ أحشاء الجسد، ينتشر من عضو إلى عضو آكلاً نفسه ببطء أحياناً وبسرعة أحياناً أخرى وسيأتي الوقت الذي لا تقدر فيه على حمل ملعقة أو قلم وستفقد الإحساس في أحد جانبي وجهك، ستفقد شعرك وكلماتك وذكرياتك. سيتلاشى الزمن وتضيق المسافات ويصبح أنفك غير قادر على التفريق بين الأطعمة. ستضعف وتموت شهيتك إلى الطعام والمرأة، مثل كل شيء آخر الشهية إلى الطعام والمرأة تسكن الدماغ. ستعيد نفسك وستكون مشوش الفكر والكلمات. ستحاول قول شيء ما لكن شيئاً آخر يلفظ من فمك، ستتكلم لغتك الأم مثل الأجانب. ستكون كلماتك ونطقك لها مثل الأجانب وسيأخذ عنك الناس انطباعاً خاطئاً بأنك تحاول جهدك أن تصبح انكليزياً أو أميركياً. سيزداد غضبك على نفسك وسترتكب أخطاءً عدة وتتلفظ بكلمات فاحشة».

كان يتحدث بأسلوب العراف.

- قلت له: «شش».

- «أمور معينة يمكن في أحسن الأحوال تأجيلها ولكن لا تفقد الأمل».

- «هل إن السرطان الذي عندي يشبه....»؟.

- «لا تقلق، حتى الآن هو بحجم رأس الدبوس، هنا».

أشر على صورة التخطيط الشعاعي بالطريقة نفسها التي يؤشر بها قراء الكف على الخطوط في يد شخص ما.

حين نظرت إلى الصور شعرت بالدوار وبدأ رأسي بالانصداع والنبض يدق بداخله وكانت تلك هي اللحظة الحاسمة التي بدأ تحولي فيها، لقد بدأ موتي، فقلت مع نفسي: «العديد من الأشياء تبدأ ببيضة».

كان القطار يهدر بصوته فوق الجسر. شعرت بالدوار وأنا على الكرسي المحاذي للنافذة فيما استمرت الهند تمر أمامي بقراها الكئيبة، كم كنت أشمئز من هذه القرى وأنفر من المسافرين الذين معي. مدنيون، يسير بنا القطار بسرعة كبيرة والماكنة القديمة تحاول تعويض الوقت الذي ضاع. لن ألحق بالحافلة التي تذهب إلى المرتفعات إذا لم يصل القطار بوقته.

شيء واحد قاله الطبيب بقي يراودني: «الخلايا، يا كربال لأن أجسامنا متكونة من الخلايا، كما ترى، التي تستمر بالتوالد والموت. المصابون بالسرطان يموتون يا كربال لأن أجسامهم في مرحلة معينة

تتوق إلى الخلود».

ولأنني لا أتحمل كثرة المدنيين حولي فلا رغبة عندي بالخلود. يغادر مسافرون ويحتل مقاعدهم مسافرون جدد،كلهم متشابهون لا فرق بينهم. إنني أشعر بالخجل منهم كلهم فكلما شهدت حياتهم كلما ازداد شعوري بالخجل. الخجل من بلدي، أمن أجلهم مات والدي؟ هل فقدنا كل هذا العدد من الرجال في الجيش من أجل هؤلاء الناس غير النافعين؟.

كان ثمانية من المسافرين الجالسين على يساري يتحدثون في وقت واحد، كانوا سكارى يناقشون خطط الهجرة إلى أميركا ومجموعة أخرى عبر الممر كانت تفضل أستراليا. قررت عدم التحدث إليهم إطلاقاً لأنني لو أخبرتهم عن الزمن الذي قضيته في الجيش لطلبوا مني سماع قصص البطولة لجنودنا فهؤلاء الناس يعتقدون أن الحرب فيلم يعرض على التلفاز.

ليس بعيداً عني جلس رجل وزوجته وقد بدا عليهما عدم النوم لليالٍ عدة، كان الرجل أصلع والمرأة قريبة إلى البدانة. كان واضحاً أنهما أكبر سناً من الزوجين الحديثين اللذين رافقاني الليلة الماضية. لم أتبادل الحديث معهما فقد كانا مرعبين، كان عليَّ أن أتحملهما عندما توقف القطار بشكل غير متوقع قبل ساعة.

عند توقف القطار فتح الرجل الشباك وربت على كتف زوجته قائلاً:

الرجل: «سأنزل لبعض الوقت».

الزوجة: «إنها محطة صغيرة».

الرجل: «سنقف لأربعين دقيقة».

الزوجة: «من أخبرك بذلك؟».

لم يجبها.

الزوجة: «لا تذهب بعيداً».

نفض قميصه بيده وسار عابراً المسافرين ووقف عند باب العربة المفتوح. كان الوقت أول الصباح غير أن الجو كان حاراً جداً.على الطرف الأيسر للمحطة كانت كومة من بقايا عربات عسكرية محطمة وركام طائرة من نوع ميك 21 بجناح واحد فيما كان الرصيف يعج بالمدنيين والكلاب الضالة والأجانب البيض بملابس هندية. وكانت الأبقار تجتر النفايات من داخل الصناديق وخارجها. نجح الرجل في أن يتواصل بعينيه مع زوجته من على الرصيف فابتسمت له ونادته لكي يقترب من النافذة وسألته بصوت عالٍ:

الزوجة: «أي محطة هذه؟».

تحرك قريباً من فتحة نافذتها مستنداً على القضيب الذي في وسطها قائلاً:

- «هناك» مؤشراً بإصبعه «لا أستطيع أن أقرأ اللوحة بوضوح».

- بقي واقفاً هناك والعرق يتصبب منه ومرَّ وقت طويل دون أن يتبادلا كلمة واحدة فك أزرار قميصه ومسح رأسه الأصلع.

الزوجة: «الجو حار، أين قبعتك؟».

الزوج: «أنا بخير».

توقفت بائعة الشاي والمعجنات أمام الزوج، كانت تشبه الغجرية لتلبي طلبه وصبت له كوزين مخروطين من الشاي.

الزوج: «هل نشتري صحناً من المعجنات أيضاً» لم تجبه زوجته.

فترات الصمت بينهما كانت غير مربكة وأعتقد بأن هذا ما يصبح عليه المتزوجون مع مرور الوقت.

نظرت الغجرية إلى الزوجة، بينما كان زوجها يناولها كوز الشاي من خلال النافذة، بادلت الزوجة الغجرية النظرة، كانت دمامل متقرحة على قدمي الفتاة، نقاط حمراء تحيط بها دوائر حمراء وكانت تلبس أساور من معصمها إلى كتفها ترن كلما رفعت ذراعيها.

الغجرية: «هل ترغبين بالمعجنات سيدتي؟».

الزوجة: «كلا لا أريد أي معجنات».

الغجرية: «إنها معجونة بالبيض سيدتي؟».

الزوجة: «كلا».

الغجرية: «خذيها سيدتي».

الزوجة صارخة: «ابتعدي».

أخذ الزوج صحن المعجنات وبدأ يأكل بنهم.

الزوجة: «هل عرفت اسم المحطة؟».

الزوج: «لا تقلقي هذه ليست بخارى».

الزوجة: «لِمَ كان علينا أن نستعمل هذا القطار؟».

الزوج: «لا تبدئي ثانية، إن لك رأياً سلبياً».

الزوجة: «أنت من بدأ هذا».

الزوج: «لا أستطيع فهمك».

رفعت الكتاب الذي كانت تقرأ فيه وفتحته عشوائياً.

الزوج: «اسمعيني لقد قالت الطبيبة بأنها ستقوم بذلك بسرعة ولن تقوم بإدخال شيء في بطنك».

الزوجة: «لكني لا أريد القيام بذلك».

الزوج: «لا تقلقي سأذهب معك لقد قالت الطبيبة: إن الأمواج فوق الصوتية أكثر أماناً من الأشعة السينية، إنها تشبه التقاط صورة».

الزوجة: «حقيقة لا أريد ذلك».

الزوج: «فكري بذلك».

كانت أصابعه ملطخة ببيض المعجنات.

الزوجة: «سأفعل أي شيء من أجلك ولكن ليس هذا الفحص».

الزوج: «أرجوك لا تقومي بفعل ذلك إذا كنت غير راغبة، فلا أحد يجبرك عليه».

الزوجة: «وماذا سيحصل إذا كانت الصورة غير جيدة؟».

الزوج: «ستكون جيدة».

الزوجة: «هل أنت متأكدة؟».

الزوج: «هل كذبت عليك من قبل؟».

الزوجة: «لكن كيف يتأكد المرء من ذلك؟».

الزوج: «لأنه إن كانت غير جيدة فيجب أن نجد طريقة

للتأكد منها ألست تجدينها جيدة؟».

- «لكن ماذا لو كانت فتاة؟».

- «بالطبع ستكون ولداً».

- «أنت لا تحب الفتيات».

- «أنا أحبك أنتِ، إنني أذهب إلى العمل كل صباح لأنني أحبك، هل فعلت شيئاً يدل على عدم حبي لك؟».

- «أنا أعرف أنك تحبني لكن هل ستتوقف عن حبي إن لم أقم بذلك الفحص؟».

- إن لم تذهبي إلى الطبيبة فلن يتغير شيء بيننا ولكن سيجعلني ذلك غير سعيد».

- ماذا، إن كانت فتاة؟».

- «ما الذي أفعله لكي أجعل تفكيرك إيجابياً؟».

- «كيف تكون متأكداً؟».

أخرج قطعة معدنية من جيبه ورماها إلى الأعلى ثلاث مرات مستخدماً أصابعه المتسخة.

- «أرأيتِ متأكدٌ بالثلاث، سيكون ولداً».

- «توقف عن هذا أريد أن أقرأ كتابي، توقف».

- «هل أوقفتك مرة؟» قال ذلك ومشى مبتعداً عنها على الرصيف ونادى على الفتاة الغجرية طالباً المزيد من الشاي. وحاولت الفتاة أن تناوله قدحين من الشاي إلا أنه أخذ واحداً فقط قائلاً: «السيدة لا ترغب بالمزيد» وبصق على الرصيف بصوت عالٍ فوضعت إصبعها في أذنها. ثم أكل صحنين إضافيين من المعجنات قبل أن يطلق الحارس إشارته.

«مدنيون»، قلت مع نفسي «مدنيون».

وعادت الهند تمر من أمامي ثانية، الأبقار والحقول الخصبة والتراب، كل الهند بدأت تمر، وبسرعة متزايدة، بخطوط مستقيمة ومنحنية باتجاه المرتفعات الشاهقة في الشمال. ذكريات ثقيلة بدأ يرن صداها في رأسي. اعتقدت أن السفر سيخلصني من ثقل الذكريات. عندما لا يكون المرء هنا أو هناك وعندما تكون هناك أرض واسعة وسماء رحبة خارج حدود النافذة اعتقدت أن الزمن سيخلصني في النهاية.

ولكن ما يحدث بالضبط هو العكس!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(12)

هناك نوعان من الطهاة في العالم، نوع يزعجون البشر بطبيخهم ونوع لا يهتمون لفعل ذلك وأنا من النوع الثاني لأني أحاول أن لا أظهر نفسي. الرضا العظيم يكون عندما ألاحظ مديح الناس لأطباقي، فالطعام الذي يجلب الانتباه هو ليس كمالاً برأيي. فالطعام الرديء يجلب الانتباه بالطبع وكذلك الأطباق التي تعدُّ إعداداً جيداً. الإعداد الأفضل هو ما ينتقل بالناس بعيداً عن مائدة الطعام.

كان الشيف كيشان يعد مائدة مبهرة أي أنه ينقل الناس إلى أماكن تدعو إلى الانبهار. ولكني لم أكن أبداً قادراً على أن أطبخ مثله. لمسته كانت دقيقة كالموسيقى. كان يتفحص الفواكه والخضروات واللحوم باندهاش ويمسكها بتواضع وتبجيل وتأنٍ كما لو أنها أكثر الأشياء هشاشة على الأرض. قبل أن يطبخ كان يسأل الأشياء التي سيقوم بطبخها «ماذا تودون أن تكونوا؟». كان يقول لي: «ليس هناك شيء كالطعام الهندي بطرق إعداده في البنجاب وكشمير والتاميل وغوان والبنغال وحيدر آباد». اسمح لأساليبنا أن تتفاعل مع الطرق الأخرى في العالم كإيطاليا واليابان وأفغانستان وابتكر شيئاً جديداً ولا تكن حبيس الأوطان. كنت أراقب حركة يديه وهو يعمل. ما أن يقشر المواد حتى يخلطها بكل ما يتذكر وبكل ما نسيه ولقد كان يناقض نفسه في بعض الأحيان وهذا أسوأ شيء يمكن السيطرة عليه في المطبخ.

في اليوم الذي اكتشفت فيه إصابتي بالسرطان شيء ما أصاب يديّ، كانتا تبدوان متشابهتين في الشكل لكن أداءهما كان مختلفاً في التقطيع والمسك وحمل الأشياء وصرت أطيل النظر أليهما أكثر من ذي قبل حتى رفع قدح الماء أصبح بشكل غير اعتيادي وبدا لي بأن الزمن قد طال وانحرف بطرق ما عرفتها سابقاً. وشعرت بأني أصبحت بارداً كالمعلقة.

قبل أن يغادر بالحافلة إلى المثلجة طلب مني كيشان أن أهتم بالممرضة في المستشفى. كيف سأهتم بها؟ لقد رفضت محاولاتي السابقة وشعرت بالإهانة. غير أن لقاءنا التالي كان مغرياً. بعد ثمانية أيام على رحيل كيشان لاحظت تكوّن ضباب كثيف في الخارج عندما كنت واقفاً أمام النافذة أقشر البصل وشعرت بحاجة كبيرة لرؤيتها وكانت كحديقة نمت في داخلي. طلبت من مساعدي أن يتولى التقشير ومشيت نازلاً التل باتجاه المستشفى.

كانت جامعاً من قبل واليوم للمستشفى قبة خضراء. كان المكان متواضعاً ذا شكل ساحر. عندما وصلت كانت مشغولة في الجناح وطلبت مني الانتظار خارج القاعة. انتظرت هناك لمدة نصف ساعة مركزاً نظري في الأرض. البلاطات السوداء والبيضاء مُسِحت للتو ولا توجد ذرة غبار عليها. وأخيراً أطلّت ومعها جاءت رائحة البنسلين ومسحوق الطلّق. قلت لها: «مساء الخير» أمسكت ذراعي فدب تيار في داخلي وقالت: «هل تستطيع زيارتي في المساء؟»

- «في المنزل؟» أومأت بالإيجاب وقالت: «لا وقت عندي الآن» كانت هناك شامة صغيرة على الجانب الأيسر من أنفها تشبه حبة الهيل السوداء وقد شعرت برغبة في لمس الشامة غير أنه لا وقت لذلك فقد نادى أحد المرضى: «أيها الممرضة، أيها الممرضة» نظرت إلى ساعتها وقالت: «حسناً» قلت لها: «فيما بعد» وسرنا باتجاهين مختلفين.

اللحم المتبل المشوي الذي حضّرته ذلك اليوم كان واحداً من أفضل أطباقي. سألني مساعدي أسئلة عديدة عن أصول هذا الصحن وأصالته ووجدت نفسي أجيبه مثل كيشان. أخبرني أن طعمه سماوي فقلت له: «ذلك جيد حان وقت استراحتك». راقبته مغادراً باب المطبخ تذكرت قارباً رأيته في بحيرة دال كان اسمه «هيفان». الصباغ الذي طلاه أخطأ في تهجئة كلمة Heaven فخطها Heevan وللحظة قصيرة شعرت بأن مصيري أُخطِئَت تهجئته بالطريقة نفسها. لديَّ موهبة عظيمة في تدمير الأشياء حالما تبدأ بالتكون ولكن في ذلك اليوم وعندما بدأ الضباب بالارتفاع كنت فوق قمة العالم والأفكار السوداء لا يمكن أن تحسم الحرب. لم يكن مفترضاً أن يتناول الجنرال عشاءه في البيت لأنه مدعو للعشاء في مقر كبار الضباط مع عدد من الضباط وزوجاتهم، لقد كان يوم راحتي وكنت على وشك وضع لحم الضأن في حافظة السفر عندما دخل عليَّ سكرتير الجنرال فاتحاً الستارة.

- «كب لمن طبخت هذا اللحم المتبل؟».

- «قلت بحذر: «من أجل الغد سيدي».

- «الجنرال يفضل الطعام الطازج».

- «هذا خطأ مني ولن يحدث ثانية».

بعدها أصبح رقيقاً معي بشكل غير اعتيادي.

- «غالباً ما يمتدح الجنرال الطعام الذي تعده، مرقة السبانخ التي أعددتها قبل بضعة أيام كانت أكثر من رائعة والفطائر بقطع السمك المشوية كانت طبقاً نموذجياً». أحسنت صنعاً قال ذلك وربّت على ظهري.

- «شكراً لك سيدي».

- «إنني مرتاح أيضاً لأنك تنقل المعرفة من مطابخ الضباط إلى بيت الجنرال».

- «شكراً لك سيدي».

كان أول ضابط «وراقص» يضع خطواته في المطبخ منذ مجيئي وكان برتبة نقيب.

- «كب، هذا المساء يود الجنرال أن يكافئك مع بقية العاملين لعملكم الجيد والحفاظ على المقاييس العالية».

- «سيدي».

- «قبل بدء العمل هذا المساء في مقر الضباط سيشرب الجنرال كومار الرم مع العاملين على مرج المقر».

- «الرم سيدي».

- «يجب أن يأتي الجميع».

- «نعم سيدي».

شرب الرم مع الجنرال على مرجة مقر كبار الضباط كان تقديراً نادر الحدوث بالنسبة لنا نحن الأفراد. كنت مهتاجاً بشكل كبير غير أن هذا التطور الجديد تزامن مع الوقت الذي كنت سأقضيه في بيت الممرضة. لم أرغب بتقديم موعدي معها ولم أود أن أحدثها عن العمل أبداً أو أن أتباهى بالتكريم النادر الذي سأحصل عليه من الجنرال.

حلَّ المساء فلمعتُ جزمتي وصرفتُ وقتاً أطول من المعتاد أمام المرآة لأربط عمامتي. ارتديتُ قميصي الأزرق وبنطالي الأسود وشعرتُ قليلاً بعدم الارتياح لأن الملابس لم تكن جديدة. يقع بيت الممرضة في مكان غير بعيد عن بحيرة دال. وفي الطريق إلى بيتها سيطرت عليّ فكرة التأخر وفيما أنا أنظر إلى ماء البحيرة جلست لفترة قصيرة على صخرة وعندما استدرت بنظري رأيتُ رجلاً يصطاد السمك ألقى عليّ السلام فرددته ببطء وسألته:

- «عن أي نوع من السمك تبحث؟».

- أجابني: «السلمون المرقط».

تبين لي بأنه جالس هنا منذ فترة طويلة فقد كانت سلته فارغة. وغير بعيد عنه شاهدت أزهار الياسمين فقطفت واحدة فقد نسيت أن أجلب معي هدية ملائمة غير لحم الضأن المشوي ومهروس الثوم في حافظة السفر.

وقفت أمام بابها وكانت الستائر مصنوعة من الخرز وعندما ظهرت عند الباب لم أعرف كيف أحييها لذا اعتذرت منها ببساطة عن تأخري بعدها اعتذرت هي أيضاً عن تأخرها فقالت لي: «اعتقدت أنك قد جئت إلى هنا ولما لم تجدني غادرت فليس من الجميل أن تتأخر».

في داخل البيت مسكت ذراعي بقوة ثانية قائلة: «أنا آسفة لأني لن أقدم لك الشاي مع وجبة خفيفة لكن يوجد شيء يجب أن تعرفه».

- «رجاءً لا تقولينه فوراً فأنا أعرف ما تحاولين قوله». وضعت وردة الياسمين في المزهرية.

شيء ما جعلني أنفض فتات الخبز من على قميصها.

- «كان كيشان يتعامل معك بوصفك ابناً له».

- أحنيت رأسي قائلاً: «هذا صحيح أوافقك من كل قلبي هل تعرفين بأنه كان يحتفظ بمذكراته؟».

- «نعم، لقد ذكر لي ذلك مرة».

- «ليس كل واحد يعرف ذلك».

- «هل حصل وقرأتها؟».

- «كلا، ولكن قبل يومين من مغادرته أيقظني عند منتصف الليل، كان يكتب شيئاً ما وسألني: ما هي أفضل تجاربك مع الطعام؟ بصوت بدا عليه عدم الارتياح. فركت عيناي وسألته لِمَ أيقظتني في هذه

الساعة؟ فلم يأبه لسؤالي وطلب مني الإجابة أولاً فقلتَ له: إن أفضل طعام أكلته هو طعام الضابا في آمريستار وقد كنت أكذب عليه ولا أعرف سبب كذبي عليه فطعام الضابا لا يصل إلى نصف جودة طعام المعبد الذهبي. ركز نظره عليَّ لمدة طويلة قبل أن تصبح نظرته باردة ويبدأ بالكتابة في مذكراته وأعود إلى النوم ثانية. في الحلم رأيت صحناً وقدراً مصنوعين من أغصان التين الصغيرة وكانت الأغصان مثبتة بعيدان تنظيف الأسنان».

رواية الحلم لها جعلني أشعر بالارتياح لكن عقلها كان في مكان آخر مستمرة بالنظر إلى الزهرية على المنضدة، كانت النقاط على الزهرية بحجم الشامة على أنفها قالت لي:

- «أردت أن أخبرك شيئاً ما».

- فيما بعد فالجنرال سيقوم بتكريمي هذا المساء بمقر كبار الضباط. كم سيكون كيشان فخوراً عندما يسمع ذلك. غالباً ما أسمع صدى صوته: اطبخ دون الخوف من الفشل، يجب عليك أن لا تفشل أبداً».

- «لا أعرف كيف أخبرك بذلك ولكن يجب عليَّ إخبارك»، «أنا أعرف أن كيشان لم يخبرك بذلك، لم نكن متزوجين ولكننا نشبه زوجاً وزوجة».

- «تشبهان ماذا؟».

- «زوجاً وزوجة، أتعرف ما أعنيه؟».

- «نعم، نعم».

- «ذلك هو سبب أن ليس من الصحيح أن أراك تنظر إليَّ بتلك النظرة، لقد أحسستها في عينيك أوقاتاً عدة ووددت أن أقول لك أن ذلك ليس صحيحاً».

- «أنا آسف».

- «كلا، أنا من يأسف فليس عندي شاياً أقدمه لك».

لم أعرف أأبقى أم أغادر؟. من نافذة بيتها تبدو كتلة الثلج والجليد الهائلة على المرتفعات البعيدة غير الواضحة فاقتربت خطوات عدة من النافذة، وأطلت النظر إلى ذلك الشيء, سألت نفسي: «ما الشيء الذي يدعى مثلجة؟ طبقة فوق طبقة من الجليد، ثلوج منذ مئات السنين، أقشِّر هذه وأقشِّر تلك، بلا نهاية ولا حدود عمل لا شكر عليه، تقطع الأصابع. لقد خدعت المثلجة الناس حتى أنها لم تكشف عن حجمها الحقيقي أو نوايها أو عدد طبقاتها، كلا لم تكن كذلك. لم تكن المثلجة شيئاً من الجمال، كانت مثل بصلة بيضاء هائلة تجعل الدموع تتساقط من العيون، دموع ليست ذا فائدة وأكثر ما يحزن فيها أنها ليست ذا فائدة. ربّتت على كتفي وعندما استدرت عانقتني وقالت: «اذهب الآن».

تركت حافظة الغذاء بجانب الزهرية على المنضدة التي كان تحتها ثلاثة نماذج صغيرة لدبابات حربية من نوع السنتوريون بريطانية الصنع لم ألاحظها حين دخلت. قالت لي بإصرار: «اذهب الآن» وبدون أي كلمة وداع خطوت باتجاه جناح الضباط كان الظلام يشتد مع لسعة برد حين اجتزت

العديد من سيارات الجيب والسيارات السوداء المركونة على جانبي الطريق. وصلت قبل عشرين دقيقة من موعد تناول الرم في مقر إقامة كبار الضباط.

كان المقر مضيئاً من الداخل والخارج والمرجة مضاءة بنشرات ضوئية متموجة وأزهار حمراء وصفراء وأرجوانية حولها. اصطففنا خارج المرجة، الحدائقي آغا، السقاء، المنظف والسعاة - الهيئة الداخلية التي تعمل في مقر الجنرال.

كان على المرجة كرسيان فارغان ومن خلفهما ظهرت الطفلة الصغيرة روبيا منادية «أبي لقد حضر الرجال» وركضت بعيداً كأنها خائفة منا.

بعدها استعد الجميع وسمعت خطوات واثقة تحدث صوتاً على الممر المرصوف بالحصى، ظهر الجنرال ببذلته المدنية الأنيقة مرتدياً ربطة عنق مؤثرة. مشى قريباً من الصف وصافحنا الواحد بعد الآخر بعدها أمرنا مقدم الكتيبة أن نقف بوضع الاستراحة. كانت المرة الثانية التي أقف فيها وجهاً لوجه أمام الجنرال، وقفت مستعداً بالطريقة نفسها التي كان يقف فيها أبي في الصور. نظر إليَّ الجنرال بنظرة ثاقبة قائلاً:

- «إن الجيش فخور بوالدك».

- «سيدي». وربّت على ظهري.

- «أنت تعرف يا كربال بأن الرائد إقبال قام بكل العمل وحصلت أنا على العصا ولا أعرف ما أفعل بها».

ضحك بعدها الجنرال.

ما زلت أتذكر الأناقة الرائعة لسترته الزرقاء الغامقة وربطة العنق العسكرية الزرقاء والحمراء. كان في التاسعة والأربعين تقريباً حينها، شربنا معه الرم ذلك اليوم ولم يتغير كثيراً عما عرفته. أتذكر أنه كان لديه مجموعة كبيرة من ربطات العنق وكان عرض ربطة العنق يتغير تبعاً لموضة العام. كان عنقه طويلاً ووجهه صارماً حليقاً.

- «إن انطباعنا مؤثر بعملك النموذجي».

- «شكراً سيدي».

- «لقد أوصى المقدم بترقيتك يا كربال».

- «سيدي».

- «أنت الآن أدنى من الضباط برتبة واحدة».

- «شكراً سيدي».

- «لنشرب نخب ذلك».

رفعنا كؤوسنا والتقت عيناي بعيني الجنرال.

- «إنك أنيق جداً يا بني».

- «أشكرك سيدي». قال مساعد مكتب الجنرال من على بعد.

- «جميل كأنه امرأة سيدي».

- «هل أنت سعيد؟».

- «سيدي هل بالإمكان أن أغادر لمدة ثلاثة أيام بشكل طارئ».

- «متى؟».

- «الأسبوع الأول من تموز سيدي».

- «إلى دلهي؟».

- «كلا سيدي، إلى المثلجة سيدي».

- «فهمت يا كربال، والدك».

بعدها استدار نحو مقدم الكتيبة:

- «أرسل كباً بواجب ما إلى المثلجة، هل هناك عجلة ذاهبة؟».

- «سأنظر في ذلك سيدي، لكن الآن الموقف غير مستقر».

استدار الجنرال فرأى زوجة المقدم جوظري تدخل مقر الضباط فيما كانت زوجات الضباط ينتظرن في قاعة الرقص. تطايرت ذرات مسحوق التجميل باتجاهنا. كان ضوء الغرفة باهتاً وضعيفاً وقبل أن تدخل زوجة المقدم ابتسمت لي من بعيد.

«ما الذي يحدث» تساءل الجنرال، «باكستان في الداخل والهند في الخارج! هذا ليس عدلاً!».

ضحك الضباط لذلك وكان صوت الموسيقى العالية يمكن سماعه.

- «ليس عدلاً سيدي» أن يكون الرجال في الخارج والسيدات في الداخل.

- كرر الجنرال: «ليس عدلاً».

- «هل نبدأ الحفل سيدي؟».

- مخاطباً الضباط: «نعم، نعم»

- «تحيا الهند» موجهاً كلامه لنا.

- «تحيا الهند سيدي». واستدرنا مغادرين.

حيانا الجنرال وأسرع إلى قاعة الرقص يتبعه بقية الضباط. عدت إلى غرفتي بعد أن سرت طويلاً بمحاذاة النهر شعرت خلالها مرة واحدة بأني محتاج لأن أرش الماء على وجهي وكان بارداً مثلجاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(13)

علمتني أمي عندما كنت فتىً أني إن أردت شيئاً ما وقدم لي أن أرفضه مرة وثانية وفي الثالثة أقول حسناً قليلاً. كانت تقصد طبعاً الطعام الذي يقدم لنا في بيوت الآخرين. مرة قُدِمَ لنا كوزٌ من عصير أغصان التامول رفضته أولاً وثانية وعندما أردت أن أقول حسناً القليل منه لم يقم المضيفون بتقديمه لي مرة ثالثة. في البيت قمت بالصراخ بأعلى صوتي بأني أريد ذلك الكوز الآن في هذه اللحظة. تجمع الجيران حول منزلنا مستفسرين من والديَّ عن سبب تعذيبي. «في المرة القادمة عندما تريد شيئاً، اغتصبه! هكذا قال لي والدي. الممرضة، كما عرفت، لم تكن مهتمة بالاغتصاب فيما كانت زوجة المقدم كذلك غير أني كنت أخافها وأخاف من المقدم. كنت أخاف فقدان أصابعي، في الواقع كنت أريد أن أصبح نوعاً من الخضار فالخضراوات لا تخاف أحداً أبداً. أن أصبح مثل الجزر والثوم والبصل واللفت والبنجر أخترق بطن الأرض متضخماً نامياً مرتوياً منها دون أن أخافها أو أخاف عقوبتها».

«تصبرَّ يا كب».

كم هو قليل صبر الناس في هذه المدينة؟.

وكم يكونوا صبورين عندما يتعلق الأمر بالطعام؟ ينتظرون وقتاً طويلاً ليحصلوا عليه جيداً» هكذا كنت أقول لنفسي وأنا جالس على الكرسي بجوار النافذة. كنت أريد استعجال الأشياء وإجبارها عندما تسد طريقي غير أني لم أكن موهوباً بالضغط على الأشياء.

توقفت عن استخدام الدراجة وأصبحت أذهب إلى السوق لابتياع الخضراوات بواسطة السيارات العسكرية وفي بعض الأوقات وعندما يكون هناك حظر للتجوال في مكان ما فإن مساعد مكتب الجنرال يقوم بتهيئة عجلة جيب. صبيحة أحد الأيام وجدت أن سيارة مكتب الجنرال تقوم بأخذ الكلب الأسود إلى الطبيب البيطري وطلبت من السائق أن يقلني معه. كان الكلب يتألم كثيراً وعيناه تجريان. عندما جلست في السيارة وجدت صعوبة في تحمل عواء الحيوان. سألت: «ما الذي ألمَّ به». كان السائق والمراسل غير متأكدين مما به فأجاب: «ليس لدينا أية فكرة، نحن نؤدي واجبنا فقط، لقد أصيب الكلب بمرض غريب».

أنزلاني في السوق وواصلا طريقهما إلى العيادة البيطرية. كان السوق مزدحماً يملأه الغبار ويضج بالضوضاء وكالمعتاد. كان الناس الحزانى واليائسين يتجولون بأردية زاهرة الألوان. اشتريت بعض الأعشاب الطازجة والسمك والخضراوات والفواكه وبقيت أنتظر لساعات عدة في الشارع المزدحم الّا أن السيارة لم تعد ولحسن الحظ أعادتني عجلة عسكرية كان سائقها من معارفي.

وعلى الطريق بمحاذاة حديقة الموغال كانت الممرضة تقف عند موقف الباص أبطأ السائق فقلت له:

- «أنا على عجل».

توقف غير بعيد عنها ونادى.

- «هل أنتِ ذاهبة إلى المعسكر؟».

أومأت برأسها.

- «اركبي».

حشرت نفسها إلى جانبي وأشعلت سيجارة حالما استقرت فقلت لها:

- «رجاءً لا تدخني داخل السيارة».

- «ليس مهماً دعها تدخن» قال ذلك السائق مبتسماً لنا في المرآة.

نظرت إليَّ نظرة قصيرة ورمت السيجارة من النافذة، كانت أكياس المواد محشورة بين أرجلنا، رفعت حزمة الفراولة الملفوفة بصحيفة انكليزية قديمة وقد اختلط حمار الفراولة بصفار ورق الصحيفة. قطعت بعض الفراولة بسكيني العسكرية وقدمته لها فقالت: «لست جائعة». أجبتها: «خذي بعضها إلى البيت» فتمتمت مع نفسها قبل أن تجلس صامتة: «أنا لا أحب الكرز والفراولة». وقبل أن يصل السائق إلى أبواب المعسكر سمعنا صوت صفارات الإنذار وكانت عجلات الطوارئ تتجه إلى المدينة. استدار السائق وتوقف غير بعيد عن المستشفى ودون أن تقول كلمة قفزت خارج السيارة.

لم تتحرك السيارة مباشرة ومن شباكها رأيتها تفتح حقيبتها وتخرج سيجارة جديدة وتضعها بين شفتيها وبدأت تبحث بيديها عن علبة الثقاب. كانت هناك علبة ثقاب في جيب قميص السائق ناولها لي فقفزت خارجاً وركضت إليها وأشعلت عوداً فأدارت وجهها بعيداً وأشعلت عوداً آخر لكنها أدارت رأسها ثانية فصاح بي السائق:

- «لماذا لا تعطيها العلبة؟».

- «حسناً».

أخذت العلبة مني قائلة قبل أن تتوارى:

- «هذه آخر سيجارة أدخنها».

في المطبخ سمعت بأن سيارة الجنرال تعرضت لهجوم برمانة يدوية داخل المدينة، لقد ارتعبتُ لسماع ذلك، إنهم الإرهابيون الكشميريون. قرب العيادة البيطرية وعندما أبطأت السيارة رمى أحد الكشميريين رمانة داخلها فتطايرت متفجرة في الهواء وتبعثرت أجزائها. ومع أن السائق والمراسل هربا سالمين إلا أن الكلب أصيب بجروح بالغة الشدة.

وصل الجنرال إلى موقع الحادث مع عدد من رجاله وفرض حظر التجوال في المدينة وعلت أصوات صفارات الإنذار في الوادي.

كان مدير مكتب الجنرال بمزاج سيئ عندما دخل المطبخ وأعلمني أن الجنرال قد ألغى تمرين ساندهرست ذلك المساء وأن روبيا لا تريد عشاءً إنها حزينة جداً.

- «ولكن كيف تكون متأكداً سيدي؟».

- «كما أقول لك».

- «ولكن يا سيدي خلال أحداث كهذه يشعر المرء بالجوع وليس العكس».

- «كما أقول لك».

- «سيدي».

- «السيد الجنرال سيشرب القهوة فقط وأنت من سيأخذها إلى غرفته في التاسعة بالضبط».

- «أنا سيدي؟».

- «لقد جاء يومك، الليلة أنت من سيكون بخدمة الجنرال في غرفته، أفهمت؟».

- «سيدي».

- «ولا تنسى زجاجة الماء الساخن».

- «ذلك سهل».

كنت منزعجاً، فأسرعت إلى غرفتي وناقشت الأخبار مع مساعدي. كان مشغولاً بالتطلع إلى المجلات الخليعة، قال لي بصوت عالٍ:

- «رئيسي إن النساء هبة السماء».

أخبرته بأن ملامسة الآخرين تجلب الضعف خصوصاً إذا كانوا غير حقيقيين. بدا عليه أنه لا يتفق معي.

- «رئيسي انظر إلى مفاتنها».

كانت لديه مجموعة من المجلات الخليعة على سريره الذي كان يعود لي ولكن عندما نقل كيشان إلى المثلجة انتقلت إلى سريره واحتل مساعدي سريري القديم.

- «إن الاستمناء شيء سيئ».

- «رئيسي ما العيب في أن يمارس الفرد الحب مع نفسه؟ إذا كان الفرد يطبخ لنفسه، وعليه بإمكانه أن يداعب نفسه».

- «لكنه غير حقيقي».

- «رئيسي، هل سبق ورأيت امرأة عارية؟ تعال وانظر.

تملكني غضب شديد أخذ يغلي داخل نفسي وبدأت الصينية ترتجف في يدي كأن هزة أرضية قد وقعت عندما غادرت باتجاه غرفة الجنرال. كنت أرتدي ملابس الجنرال القديمة وحذاؤه التي استلمتها يوم العيد، وقفت أمام باب غرفته في الساعة التاسعة مساءً بالضبط.

تجمَّدت في مكاني منتظراً في الخارج لمدة أطول مما ينبغي. لم أصدق ما سمعته، لقد كان يبكي، كان يستمع إلى بعض الموسيقى الهادئة وكانت اللحظات كئيبة حقاً وكان ينحب بصوت مسموع، كان

يحتضن الكلب وينحب. انتظرت لمدة طويلة خارج الغرفة مع صينية فيها حليب وقهوة وسكر وأكواب وملاعق فضية وأخيراً وبعد أن استعدت شجاعتي نقرت مرتين أو ثلاثاً على الباب. حتماً كانت النقرات خافتة لا تُسمع كأنها النسيم الذي يدخل غرفة الجنرال. عدت على رؤوس أصابعي إلى المطبخ ووضعت القهوة في الثرموس ورجعت لأضع الصينية خارج الباب جنب ممسحة الأقدام بعدها قفلت راجعاً إلى غرفتي.

كان مساعدي لا يزال مستيقظاً في سريره، متكئاً على عكازيه يتطلع في صفحات المجلات اللامعة تفوح منه راحة الرم. ليست هناك عزلة وخصوصية في الجيش إلا أن يكون الفرد ضابطاً. كانت المرة الأولى التي أفقد فيها صبري فصرخت به: «أطفئ النور واخلد إلى النوم». قمت بالاستماع إلى موسيقى خاصة فقد أعطاني الرئيس كيشان شريطاً لموسيقى ألمانية هدية عندما رحل. جعلني الاستماع إلى صوت الموسيقى أنسى أين كنت وما الذي حدث.

لم يعد الكلب كما كان في السابق، لقد فقد عيناً ورؤيته في العين الثانية ضعيفة لذا كان يدور ويدور بلا هدى كما أنه فقد جزءاً كبيراً من عضلات رجليه الخلفيتين. كانت الصغيرة روبيا تعتقد أن الكلب يحب أن يتحرك راقصاً بدوائر كاملة أو غير كاملة وكانت تعد دوراته الواحدة بعد الأخرى منادية عليَّ: «كبنغ».

كانت روبيا تحاول أحياناً أن تمسك الفراشات، كانت تأتي قرب المطبخ غير أن المربية كانت تلحق بها. كانت تكره المدرسة وغالباً ما تهرب منها ولقد كانت تفتح منخريها وهي تخبرني عن مرات هروبها من المدرسة. كان وجهها شبيهاً بوجه صورة السيدة المتوفاة غير أن عينيها كانتا أضيق وخديها ناعمان جافان وساقيها أنحف من جذور نبات اللوتس.

نشأ بيني وبين روبيا، على الرغم من صغر سنها وعلى الرغم من وجود المربية، تفاهم خاص جاوز حدود الكلمات. أحياناً وعندما يكون الجنرال منزعجاً قليلاً من طعامي كانت روبيا تغمز لي وتبتسم وكأنها تقول: «لا تقلق فإن أبي شارد الذهن ومنزعج قليلاً».

كيف كان لي أن أتنبأ حينها أنها ستصبح يوماً ما ذات شأن؟ كيف لي أن أرى الشاعرة فيها؟ كانت غشاوة في عيني تلك الأيام ولكن دعوني أقولها ثانية، تلك الأيام كانت حقاً هي العصر الذهبي في كشمير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(14)

إن السبب الذي أمكن العدو من عبور الحدود وإقامة معسكره فوق المثلجة هو أن ضباط مخابراتنا كانوا نائمين أو يلعبون الغولف أو يبنون الفنادق وقاعات الألعاب والأسواق الكبرى في دلهي أو أنهم كانوا يحتسون الخمرة ويحسنون لهجتهم الأميركية. لقد عرف العدو هذا وفي غضون ذلك دخل البلد وبنى مواقعه عالياً على المرتفعات الشاهقة. قامت البغال وطائرات الهليكوبتر بنقل المؤن للجنود فيما استمر ضباط مخابراتنا غاطين في نومهم واستمر قادتنا ينتصبون أمام عدسات المصورين الذين يتابعون المحادثات الدبلوماسية بين لاهور ودلهي ولا أحد منهم يعلم بأن الجنرال مشرَّف وعدداً من أعضاء قيادته قد اجتازوا خط السيطرة لزيارة ما يدعى «المقاتلون الأحرار» الجنود الباكستانيون في فرقة المشاة الخفيفة الخامسة الذين قاموا ببناء مواضع قوية في أراضينا. ومع مرور الزمن أخبر القرويون المحليون قوات الجيش عن المتسللين غير أن الوقت قد فات. لقد عبرت حدودنا آلافاً من المدافع وجنود العدو وبدأ رجالنا يذبحون كالخراف والكلاب.

في أوائل حزيران وصلتنا الأخبار في المطبخ بأن الوضع على الحدود في مناطق كارجيل على ارتفاع ثمانية عشر ألف قدم، قد تحول من سيّئ إلى أسوأ. كان على مساعدي أن يغادر ضمن قافلة إلى الجبهة وقتل في تولولنغ. لقد أصبح الوقت يمر بشكل مختلف الآن وبالنسبة لنا في المطبخ - فالإفطار نعده في المساء والغداء في الساعة الخامسة صباحاً والعشاء عصراً. في بعض الأيام كل ما نعده كان نيئاً أو نصف مطبوخ أو مما بقي من اليوم السابق. ولمرات عديدة كان الجنرال يأكل مع الجنود في المواضع الحدودية ففي الحروب تنعدم الفوارق بين الجنود والضباط فهم يأكلون من المؤونة نفسها.

لقد فقدت كل اتصال بالرئيس كيشان، قبل الحرب كان المخابر ناير يساعدني بالاتصال به ولكن في أثناء الحرب لا يسمع المخابر أي شيء من مثلجة سياشين. وصلتني أخباره بعد وقف إطلاق النار بعد ستة عشر يوماً ولم تكن أخباراً سارة. ما زال حياً ولكن بعد يومين فقط من مغادرته سرنجار حاول أن يقتل نفسه.

من نافذة المطبخ شاهدت طائرات الهليكوبتر تحوم حول المستنقع وساحة الاستعراض أسفل الوادي وكانت تهزُّ الأشجار إلى اليمين واليسار. ركبت دراجتي إلى المستشفى. كان الموتى والذين هم على مشارف الموت ينقلون إلى الطوارئ. أتذكر أشكال الرجال الذين كانوا يحملون نقالات الجرحى وأصوات الجنود الذين يريدون تأخير العمليات الجراحية لبتر أحد أعضاء أجسامهم لأنهم كانوا جائعين ولم يأكلوا لأيام عدة مضت.

حتى الممرضات والأطباء بدت عليهم المعاناة من عدم النوم والجوع. كانت صالات الطوارئ مليئة بالرجال المشرفين على الموت والممرات مزدحمة بالمصابين إصابات بليغة أو فاقدي ذراع أو ساق.

كان سرير كيشان في غرفة صغيرة من تلك المستشفى الغارقة بالجثث. في الأحوال الاعتيادية الغرفة مخصصة للعناية بالأطفال ولكنها فتحت لأجل حادثة الانتحار الخاصة هذه فالقضية كانت خاضعة للتحقيق وكان هناك حارسان على الباب أخبراني بأن كيشان في غرفة العمليات وأنهما لا يعرفان

متى سيخرج، لا أحد يعرف ما الذي كان يجري في المستشفى فقد كان هناك العديد من الممرضات الجدد وكلهن متشابهات.

انتظرت لوقت طويل بجانب السرير المعدني وأنا أنظر إلى اسمه ورتبته ووحدته التي كتبت على ورقة ملصوقة على الحائط وإلى حذائه الموجود تحت السرير. قرأت في الرَّوسم على صندوقه الأسود: برج كيشان، القيادة الوطنية الشمالية، الفوج الثالث والعشرون. لقد قاموا بنقل جميع أغراضه من المثلجة إلى مكان اعتقاله إلى المستشفى. وكان قلمه ملقىً على صندوقه، التقطته، لطالما شاهدته يكتب بذلك القلم في دفتر مذكراته في المطبخ.

خلال الحرب يقوم الجميع بأفعال غير طبيعية ولا أستثني نفسي من ذلك وكذلك الصغيرة روبيا فقد بدأت هذه الأيام بالقيام بأمور غير طبيعية. لقد أغلقت المدارس وقام الجنرال بتأجيل إجازة المربية السنوية وجراء ذلك أصبح مزاجها متعكراً دائماً ولم تعد تهتم بالفتاة الصغيرة. أصبح لدى روبيا افتتان بمراقبة النار، لقد كانت ترمي ما تحبه وما لا تحبه من الأشياء في موقد الصالة وتظل تراقبه وهو يحترق. كان اللهب يلتهم الأشياء التي تصدر قرقعة وسط خشب الصبار والدردار في الموقد. كانت الفتاة لا تميز بين الأشياء الثمينة أو التي ليس منها فائدة. كانت تنبذُ أشياء والدها بشكل غريب وحتى ملابس وصور وحلي أمها المتوفية، كانت تجلس أمام الموقد، قريبة حتى أن ألسنة اللهب تكاد تحرق خديها، تراقب الأشياء التي تلقيها وألسنة اللهب تحولها إلى رماد، تهرب بعدها لتختبئ ساعات طوال في أي مكان داخل البيت الواسع حتى أنهم وجدوها مرة أو مرتين تختبئ في غرفتي التي لم تكن ملاصقة للبيت. ولقد عنفها الجنرال وعاقبها مرات عدة غير أن الحرب أبعدته عن البيت وقد رأيته لمدة قصيرة في المستشفى عندما ذهبت أبحث عن كيشان وعند العودة إلى البيت لم أكن بحالة مريحة لكي ألتقي به بعد هذه المدة القصيرة. تلّقت روبيا تعنيفاً شديداً من والدها على الغداء ورفضت أن تلمس الطعام الذي أعددته وذهبت إلى غرفتها وانسحب الجنرال إلى غرفة نومه دون أن يقوم بأي محاولة مع فتاته الغاضبة. أدى النقص في عدد العاملين إلى مضاعفة واجباتي فأصبحت من يقدم له الشاي بعد الغداء في غرفته. كان يقطع الغرفة الواسعة التي تعمها الفوضى جيئة وذهاباً، كان السرير غير مرتب والمنضدة والكراسي في غير مواضعها. تركت الصينية على المنضدة وسط الغرفة ولحظت على جانبها مجموعة من الملفات السرية وليس بعيداً عنها دفتر أحمر وكان توقيع كيشان باللغة الكشميرية واضحاً على غلافه، ما الذي جاء به إلى غرفة نوم الجنرال؟ كانت الحروف الهندية باهتة قليلاً غير أنها ما زالت موجودة، شعرت برغبة في تقليبه غير أني كبحت جماح نفسي.

- «كب، لا حاجة لأن تدير السكر».

- «سيدي».

- «بإمكانك المغادرة».

- «طاب مساؤك سيدي».

في المطبخ حاولت أن أستحضر ترتيب الأحداث التي حصلت، قامت قيادة الكتيبة بنقل مقتنيات كيشان بعد محاولة الانتحار وسلمت دفتره إلى فصيل المخابرات وقام منتسبو المخابرات بإيصاله إلى

الجنرال عن طريق ضابط كبير.

كنت واقفاً في غرفة الجنرال كان صدى صوت كيشان يتردد على مسامعي، كان عليّ أن أفعل شيئاً غير أني كنت خائفاً. يجب عليّ أن أفعل شيئاً «إذا رأيت هذا الدفتر في المكان الخاطئ اتلفه يا كربال».

بعد يومين كان الدفتر ما زال متروكاً على المنضدة في غرفة الجنرال. دخلت غرفة الجنرال عصراً بعد أن غادر. وكنت على وشك التقاط الدفتر عندما سمعت أصواتاً، لقد كانت المربية وروبيا في الممر. ما الذي سيحصل لو اكتشفتا وجودي في الغرفة؟ لكن الأصوات خفّت فقد دخلت المربية إلى الحمام وذهبت روبيا حافية إلى الحديقة تلعب مع كلبها. ما زلت في غرفة نوم الجنرال واقفاً أمام المنضدة، حملت الملفات السرية والدفتر الأحمر وانطلقت إلى غرفة الاستقبال الدافئة.

في ذلك المساء اعتمد الجنرال على ما قالته المربية وعنَّف وعاقب روبيا على إحراقها وثائقه المهمة قائلاً: «إلى هذا الحد، لقد أحرقت وثائقي السرية للغاية». بكت واحتجت قائلة: «ولكني لم أفعل ذلك يا أبي» ولم يصدقها لا أبوها ولا المربية التي قالت: «سيدي ها هي نصف الصفحة الوحيدة التي بقيت من الفايلات بسبب طيرانها من الموقد». فيما كانت روبيا تردد: «لم أفعل ذلك مطلقاً يا أبي، أبد يا أبي» كانت الفتاة تفقد ثقتها بالعالم ولم أدرك ذلك حينها والآن أدركه بشكل أفضل.

لم أكن قادراً على أن أسامح نفسي عما سببته من دموع وألم للفتاة الصغيرة فتلك اللحظة كنت أشعر بأني شخص آخر. ولطالما استذكرت تلك اللحظات لأرى نفسي مسرعاً إلى غرفة الاستقبال حاملاً الملفات والدفتر في يدي وأنا أشاهد من النافذة روبيا تلعب في الحديقة مع كلبها الذي كان يدور حولها وتأكدت من أني أسمع صوت جريان الماء في الحمام حيث كانت المربية تغتسل. كنت واقفاً أمام الموقد وموجات الحرارة تضرب وجهي، ارتجفتُ، ترددتُ، شعرتُ بوجود شبح المرأة الميتة يخرج من صورتها المعلقة على الحائط ويحدق بي، غيّرت رأيي، لكني كنت قد اتخذت قراري، تركت الأشياء تغادر يدي فبدأت ألسنة النار الصغيرة تلحس الصفحات وبعدها بدأ صوت لهيب النار في الموقد.

الشيء الوحيد الذي لم أقوَ على رميه إلى النار كان الدفتر الأحمر. فيما بعد داخل غرفتي فتحت الدفتر، لا لكي أحكم على أي أحد بل لأعرف سبب محاولة كيشان قتل نفسه؟ ما نوع المعلومات الحساسة المكتوبة في الدفتر لكي تكون سبباً في تغيير مكان الدفتر إلى غرفة الجنرال.

كان دفتراً صغيراً لا يحتوي على أكثر من مائتي صفحة بقياس سبعة إنجات طولاً وخمسة إنجات عرضاً. في دلهي احتفظت به لمدة طويلة في صندوق مقفول ولكن بسبب قيامي بهذه الرحلة فقد أخرجته وجلبته معي وهو الآن معي في القطار. المرة الأولى التي حاولت أن اقرأه (في مطبخ الجنرال) كانت بالغة الصعوبة، فقد كتب كيشان مواده بشكل متلاصق جداً وبخط رديء وباللغتين الهندية والبنجابية.

بدا وكأن دفتر المذكرات يعود لي وأنا أقلب صفحاته، لم يكن لي أبداً دفتر مذكرات، ولكن لو كان، لكتبت الكلمات نفسها. عندما اقرأ هذه الصفحات أحس تشابهاً واضحاً في الأسلوب. لقد كان نفسي

الثانية أو ربما أنا كنت ما كانه. إن أعظم هدية قدمها لي لم تكن الطعام أو حتى الوصفات الأجنبية لإعداده، لقد منحني لساناً... قدرة على التعبير.

تغيرت النغمة والأسلوب منذ اللحظة التي نقل فيها إلى المثلجة غير أنه يعود للتحدث عن بناء أول فرن حجري في سياشين واستخدام البغال في نقل أجزاء الفرن إلى معسكر فوق المثلجة كما ذكر أسلوباً مفصلاً لكيفية نصب هذه الأجزاء. لم يوص بإلقاء الفرن الطيني كاملاً بواسطة المظلة فوق المثلجة باستخدام الهليكوبتر بالطريقة نفسها التي كانت تنقل بها المدافع السويدية.

كتب: «أوائل حزيران، وبقلب مثقل بالأحزان جمعت أغراضي بسرعة وغادرت مركز قيادة القاعدة وسلكنا الطريق الطويل والخطر إلى لاداخ» بعد ذلك نقلتنا طائرة من نوع جيتا إلى معسكر المثلجة على ارتفاع عشرين ألف قدم وقد شعرت بالدوار وأنا على متن الهليكوبتر وعندما كنت أنظر إلى الأسفل كنت أحس بأني سيغمى عليَّ. كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها حقول الثلج عن قرب، كانت كاسمها واسعة بيضاء لا نهاية لها، حيث بإمكان مئة ألف لعب الكريكت والغولف لأيام، غير أن المكان خالٍ ومعزول وليس فيه أكثر من معسكرين للجيش وكان معسكرنا أعلى ارتفاعاً من معسكر العدو. درجة الحرارة - 58 مئوية ساعدنا اللهّ جميعاً. أخبرني أحد الجنود بأن هذا المكان هو ثاني أبرد مكان في الأرض. يبلغ طول المثلجة ثمانون ميلاً ويعني اسمها «الوردة البرية» فالورود البرية تنمو في أسفل هذا الوحش حيث يعيش البالطيون وبلغتهم كلمة سياشين «تعني» «وردة البرية» كتب: «لا يمر يوم واحد دون إطلاق نار من كل جانب. نحن لا نهاجم أيام الجمع وقد أخبرني أحد الجنود بأن أيام الجمع مميزة عند العدو لأنها أيام صلاتهم وعبادتهم. أيام السبت أفضل ففيها تضيء القمم وكأنها بطن التنور».

إن معظم القمم الجبلية هنا بدون اسم لذلك نطلق عليها أسماءً لأننا لم يكن لدينا الكثير من الواجبات في المطبخ فقد كنا نجد وسائل نشغل فيها أنفسنا وإطلاق الأسماء على القمم يقتل الوقت.

بيوتنا كانت خياماً قطبية بيضاء تتسع الواحدة منها لثلاث حقائب نوم. في المساء والصباح وبعد الظهر كنت أسمع الشيء نفسه من الرجال. يصبح الرجال هنا متدينون حدَّ الإفراط. يقرأ الجنود الهندوس الهانومان ومالجالسيا فيما يقرأ السيخ الجابوجي والمسلمون القرآن وعددهم ليس كثيراً في الجيش.

كتب: هناك جنود يتطلعون إلى صور الممثلات الهنديات لساعات طويلة فيما يستمع آخرون إلى الأغاني من الراديو الترانزستور، وكان معي جهاز التسجيل من نوع سوني. أحياناً، وعندما أحتاج لأن أكون وحيداً، أرتدي عباءتي وقمصاني الداخلية الصوفية وأربط حذاء الثلج وألبس كفوفي وأخرج للسير على الثلج السميك الرخو. مصطحباً جهاز التسجيل وعندما أصبح بعيداً كفاية عن معسكرنا أدير شريط الموسيقى الألمانية. كانت الموسيقى غريبة على أذنيَّ ولربما كان ذلك سبب حبي لها أكثر من موسيقانا».

كتب في صفحة لاحقة: «كنا نغتسل مرة في الشهر باستخدام النفط الأبيض بإذابة الثلج، كانت السخانات النفطية تشتغل على مدار الساعة في الخيام وقد تعلمنا أن لا نضيع قطرة ماء واحدة... كان

النفط الأبيض يسوِّد وجوهنا وأصابعنا. كنا نغادر خيامنا لقضاء حاجتنا الطبيعية وقد حذرنا الطبيب بأن لا نعرض أنفسنا إلى البرد أكثر من نصف دقيقة فالبرد قاسٍ جداً فوق سياشين».

«لقد كان الجنود السيخ يعانون الألم أكثر من الباقين بسبب البلورات الحادة والدَّلاة الثلجية التي تتكون في لحاهم والشعر الطويل تحت عماماتهم ينجدل بالتدريج وتراهم يصرخون جراء الألم محاولين تصفيف شعورهم».

«لا تصدق من يقول لك بأن الرجال فوق المثلجة يموتون كما تموت الحيوانات، كلا إنهم لا يموتون بالطريقة نفسها. فالبغل عندما ينزلق في صدع عميق فإنه يصرخ عالياً من سكرة الموت لمدة ساعة بعدها يخلد في صمت عميق، فيما يموت الرجال إما في الحال أو بعد أيام عدة».

«في الرابع من آذار مات نايك سورندران في أثناء نومه بسبب فشل رئوي جراء نقص الأوكسجين وبعد يومين سقط ملازم ثان من ارتفاع أربعة عشر ألف قدم وقد فشل فريق الإنقاذ في استرداد جثته وقد عادوا ومعهم عريف ميت كانت أصابعه مقطوبة إلى شعره». بعد هذه النقطة كانت هناك ثلمات قليلة في كتابة كيشان. فقد بدأ يعيد نفسه وكأنه قد التصق داخل دوامة بيضاء باردة. كتب: «يفترض بالجيوش أن تصبح متقلبة كالنمور والثعالب ولكننا أصبحنا ثلجاً جامداً».

«كل شيء هنا أبيض حتى الزمن أصبح ذا لون أبيض وهذه هي ساعاتي البيضاء... المثلجة ليست مكاناً لضعيفي القلب، فنحن لا نقتل من قبل الجيش الباكستاني فقط ولكن من قبل البرد القاسي أيضاً. فالبرد الشديد هنا يأكل دماغ الإنسان وبطنه ويجمِّد قلبه. يستخدم الرجال زيت الكيروسين لتدفئة مدافع البوفورز. إننا محظوظون لأن لدينا مدافع البوفورز السويدية فإنها تدفع القنابل التي تزن أربعين كيلوغراماً إلى مواضع جيش العدو على بعد ثلاثين أو أربعين ميلاً فالمدافع تساعدنا في أن نشوي الباكستانيين. ولكن من أجل استخدام المدفع على الجنود الوقوف في البرد. يشتكي الرجال من مرض الجبال الذي يدعى «هاكو» وهو غرق الدماغ في سائل الجمجمة مما يؤدي إلى أن يزرّق جسم الإنسان ومرض «الهابو» وهو الفشل الرئوي جراء نقص الأوكسجين. يفقد الرجال القدرة على النوم ويهلوسون ويصابون بالعنَّة. بالأمس وبينما كان رامي المدفع يتناول طعامه ويقص علينا انتصاراته مع النساء وفجأة انهار وبدأ ينتحب ويقول بأنه أصبح غير قادر على فعل شيء. يبدو لي أن سبب فقدانه لرجولته هو مكوثه مدة طويلة جداً على هذا الارتفاع، ستة أشهر بدون انقطاع فوق المثلجة. لم يجد الضابط المسؤول عنه أي بديل له، حاولت أن أواسيه فلكمني على فمي قائلاً: «ما الذي تعرفونه يا خدم المطبخ»؟ ولم أعرف كيف أردُّ على هذا الرجل، لم يكن شاباً، كان في أواخر العشرينيات. في اللحظة التي انهار بها توقف الرجال في الخيمة عن الضحك والأكل ولم يعد لدينا الاستعداد للتحدث عن منطقة الأضواء الحمراء في بومباي.

سابراً غور هذه الصفحات، قلت لنفسي، وأنا على الكرسي المجاور للنافذة في هذا القطار: هذه المذكرات لا تبدو أنها تعود لرجل كان سيحاول قتل نفسه أو سيقوم بمحاولة جادة. في المذكرات قال كيشان: «إنه معجب بالضباط الذين لا يعيرون انتباهاً عندما لا ينفذ الجنود أوامرهم على المثلجة. فمثلجة سياشين مكان غريب». الروابط بين الرجال تقوى هنا وتضعف وتتلاشى مع الرياح الباردة. لو كان باستطاعتي أن أعجب أو أتظاهر بالإعجاب بجمال هذه الأرض الثلجية الضائعة وأن أجد

شعراً يصف الخيام والأفرشة والأغطية، المثلجة التي اسودت بفعل احتراق الكيروسين وأبخرة الزيت والمظلات التي تلقي أجزاء مدافع البوفورز والطعام المعلب واللحم.... لو أني أستطيع الإعجاب بكل هذه الأشياء....».

بعدها فجأة يكتب كيشان عني، كتب يقول: «لا أعتقد أن الفتى كربال سيمكث طويلاً، في الواقع هو لا ينتمي إلى المؤسسة العسكرية.لقد أُلصِقَ كربال بوالده لذلك هو موجود في الجيش الآن. للفتى حاسة شم حادة كأنه كلب ويوماً ما سيكتشف الحقيقة».

«يوماً ما سيتعلم أن من يعش حياةً اعتيادية عليه أن يسمح لوالديه بالموت. مرة رأيت والده يقبل امرأة كشميرية في متنزه الموغال. كنت في الجانب الآخر من النافورة، ولم يستطيعا رؤيتي، كان وجه المرأة مبللاً بسبب الضباب، فرشت شرشفاً من الخام على الحشائش تحت شجرة الدردار وجلست على طرف الشرشف ويداها مشبوكتان على ركبتيها المرتفعتين، تضايقت من الشال المطرز الذي تلف به رأسها، أثنته بتأنٍ خلف أذنيها وأنزلته على جانبي قميصها الأزرق. أخذها بعد ذلك بين ذراعيه ملتفتاً حوله ليتأكد من عدم وجود من يراقبه وحالما تأكد من ذلك قبّلها. كانت قبلة قصيرة إلا أنها قبلة. دفعته بعيداً عنها كما لو أنها تحاول إخباره بأن لا يأخذ حريته ثانية، لكنها في الحقيقة كانت تريد عكس ذلك».

«ينتمي والد كربال إلى فئة الضباط السّادة. ضباط مثل اللواء خانولكار واللواء ثيمايا والعميد هارباش سنغ والعميد أورورا. كانوا يعرفون الواجب والشرف والإنسانية. ضباط مثله (على الرغم من الحقيقة في أنهم يستسلمون إلى النساء في لحظات الضعف) هم السبب الرئيس لبقائي في الجيش. البعض من آمرينا هنا فوق المثلجة مؤذين جداً جعلوا من هذا الجحيم جحيماً أكبر».

«كتب الرئيس كيشان: «لا توجد أشجار هنا ويوماً رأيت شجرة وبدأت السير باتجاهها غير أن أحد الجنود قال لي بأنها تبعد مسيرة ثلاثة أيام وأنها غير موجودة على الإطلاق».

بدأت أشعر بالبرد وأنا أقرأ وأقلب هذه الصفحات محاولاً الوصول إلى الصفحة المحددة، الصفحة التي اكتشفتها في بيت الجنرال، الصفحة التي لمحت منها سبب محاولة الرئيس كيشان قتل نفسه:

«يهتم الجنود بملابسهم وأجسامهم، كم هم مطيعون وصبورون؟ وعندما يموتون في أثناء الواجب تبقى على شفاههم أسماء زوجاتهم حتى آخر لحظة من حياتهم ولقد سمعت من جنود آخرين بأنه هناك دائماً جنود لا يعودون. أطبخ معتقداً أنهم سيعودون ولكن هناك دائماً من لا يعود. أحياناً ولكي أنسى هذا الجحيم أقوم بترديد الأسماء المضحكة لمواقعنا الحدودية: خاشلا1 وخاشلا2 روميو1 وروميو2 وأغلق عيناي وأتذكر كل أسماء الشوارع والمناطق في سرنجار حيث تقع قاعدة معسكرنا وفي اللحظة التي أفعل فيها ذلك أرى وجوه أناس حقيقيين وأكون قادراً على تحمل هذا الجحيم. أحياناً أسمع صفارة قطار يقترب ويقف عند رصيف على المرتفعات. كربال يتوجه إلى معسكر بادامي باغ، والرّقة تملأ عيناه. أحياناً أسير قرب الخيام في الليل وأشعر وكأننا سفينة محطمة وأشعر بأن المثلجة تتحرك تحت قدمي تهزأ بي. أين أنا يا إلهي»؟.

«نحن مدانون وليس من أمل لنا. جيش العدو يطلق النار علينا من الجانب الآخر. هل هم مفعمون بالأمل؟ مواقعهم أوطأ ارتفاعاً من مواقعنا ومع ذلك يملؤهم الأمل. يؤمنون بأنهم سيذهبون مباشرة إلى السماء عند موتهم وعندما نلقي القبض على أحد أفراد العدو لا أستطيع الانتظار لأن أسأله. أخبرني ما هو شكل سماؤكم؟ هنا رجاءً ارسمها لي على هذه الورقة وما هو الطعام الذي يأكله الناس في السماء»؟.

كتب قبل نهاية دفتره: «كل شيء يبدو غريباً، لقد انتهت الحرب ولن أمكث فوق المثلجة، الأشياء في مقر القاعدة لا تعني لي شيئاً، عاد الرجال لصبغ أحذية الضباط وممارسة لعبة الكرة الطائرة والذهاب إلى المحلات للتسوق وكل شيء آخر كل هذه الأشياء لا تعني لي شيئاً».

من هذه النقطة بدأت كتابته ملتصقة مع بعضها ومن الصعب قراءتها، كانت خليطاً غريباً، ثلثاها باللغة الهندية وثلث باللغة البنجابية وكانت لغته الهندية متفوقة على البنجابية.

«طبخت لي الممرضة طعاماً» كتب في مذكراته «وبينما كانت تعدُّ المائدة سألتها لم نلتصق بوردة المثلجة ولم تلتصق الوردة فينا»؟.

«لم تسمعني وبينما كانت تقدم الطعام كنت أفكر بالقمامة والفضلات على المثلجة، أكوام مدافع البوفورز المدمرة، الأسلحة الأميركية والبريطانية، العجلات والدبابات المدمرة. ما هو اسم الرياح التي تهب على المثلجة؟ أود أن أعرف اسماً للرياح». «سألتني: «لماذا لا تعيرني اهتمامك؟ قامت الممرضة بتقبيلي وأرادت أن نقوم بما كنا نقوم به في السابق فلم أقدر وطلبت منها المغادرة كنت محطماً بالكامل».

ثمة صفحات فارغة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القسم الثالث

(15)

كان النهر المقدس بنياً كالطين. علا صوت القطار فوق الجسر ومياه النهر تجري ورغوة صناعية تعلوها فيما الأطفال العراة يقفزون في الماء. الهند، بلاد اللّه العارية، تمر أمامي. حقول الخردل تتمايل في الهواء كالجدائل. أعداد من الجرارات والعربات التي تجرها العجول تملأ الحقول (جعلتني الحقول أفكر بالأخبار التي نشرت البارحة: عمليات انتحار واسعة وسط المزارعين الجائعين في الجنوب) دخان يرتفع من مدخنة مصفى النفط، سيسخم هذا الدخان بلاطات تاج محل. معمل مبيدات يبدو من بعيد. (قتل المزارعون أنفسهم بشرب ثمانية لترات من المبيدات الزراعية) كل هذا هراء.

إنها من المواد البلاستيكية، تلول من القناني والحقائب وأعقاب السجاير. أبراج الهواتف الخلوية، غيمة من الفراشات وطفلة صغيرة بثوب قرنفلي مجعد تحاول الإمساك بها. منجم يورانيوم شجرة تين البانغال هائلة الحجم وكأنها قرية لا ينمو تحتها شيء لضخامتها. كلاب نحيفة في الشوارع وماعز سمينة ومحل قصابة. قطيع من الجاموس يطير فوقه وعليه البعوض حاملاً المرض. مبنى لسوق كبير تحت الإنشاء. حاويات ماء.أرصفة تختفي، مدن تختفي، أرتال من السيارات الصغيرة، لا شيء بعدها، كان اللّه في عوننا.

في أثناء الخريف في كشمير تصفر أوراق الأشجار لكنها لا تسقط بل تلتصق بالأشجار بقوة. تتساقط أوراق الدردار ولكن هناك أشجاراً تلتصق أوراقها الصفراء بأغصانها، أوراق السنة الماضية ملتصقة بأوراق السنة الحالية وحتى الرياح العاتية لا تتمكن من إسقاطها، ما القوة التي تجعلها مرتبطة هكذا؟.

عندما كنت شاباً كنت أفكر بأني إن أصبت بمرض مهلك فإني سأقتل نفسي، غير أن رأيي في هذا الأمر قد تغير، فأنا أحبُّ أن ألتصق بكل ما هو حي في داخلي.

ولكن.

هناك شيء واحد كتبه في مذكراته أحرقني ولا سبيل لمحاولة نسيانه فإنه ما زال يحرقني، ولو أن احداً غيره قال ذلك عني لما أعرته اهتمامي لكن كيشان كتب تلك الكلمات بيده، وهذا ما أثار غضبي عليه وعلى نفسي لأني لم أعبِّر عنه أو أكشفه. وعلى الرغم من كلماته واصلت زيارته وإطعامه في المستشفى في أثناء فترة نقاهته ولم أبين له ذلك أبداً.

وها أنا أقرأ الدفتر ثانية ويداي ترتجفان. ادعاء وزعم كيشان يشمل الجنرال أيضاً.

كتب: «كنت يوماً أجلس مع أحد الجنود في مخزن المستشفى وتمتم الجندي بشيء بذيء عن الممرضة قائلاً: «بغي متمنعة، وقحة ذات وشم على بطنها» فسحبته من ياقة قميصه قائلاً: «إنها تخصني دعها وشأنها» فسألني: هل أنت متأكد بأنها تخصك؟ إنها تفعل ذلك مع الضباط فقط». أشعرتني ملاحظة الجندي بالاهتياج وازداد غضبي فسألته: «كيف عرفت أن لديها وشماً على بطنها إن كانت تفعل ذلك فقط مع الضباط؟» فأجاب: «عندما كنت في المثلجة ذَهَبتْ إلى المقر الحدودي مع الجنرال كومار وقضيا الليلة في الملجأ المحصن نفسه. وبعد شهرين أرسلها الجنرال إلى المستشفى

الرئيس في دلهي لمدة من الزمن. وقد أخبرنا العاملون في دلهي بأن وشم الوردة تحول إلى وردة بشعة الشكل عندما انتفخت بطنها وأكثر بشاعة عندما زال الانتفاخ فالأشياء لا تعود كما كانت. إذن فقد أرسلني الجنرال إلى سياشين ليفعل ما يحلو له معها. وقد أخبرتني بأنه لم يحدث شيء بينهما وأنا لا أصدق كلمة مما قالت. كانت تكذب على الرغم من أن تلك الساقطة لم تكذب عليَّ يوماً».

كتب كيشان حديثاً طويلاً بخط رديء أسفل الصفحة.

هي: «لقد نمنا على سريرين منفصلين في الملجأ ولم يحدث شيء».

أنا: «وماذا عن الوشم؟».

هي: «كم مرة عليَّ أن أخبرك بأن الوشم على البطن يتشوه بمرور الزمن؟».

أنا: «كانت عملية إجهاض؟».

هي: «غير صحيح».

أنا: «ما الذي أعطاه لك الجنرال لتلزمي الصمت؟».

هي: «إنك مجنون حقاً».

أنا: «إن كان الجنرال بريئاً فأنا أعرف من فعل ذلك».

هي: «من هو؟».

كتب أيضاً: «أتمنى أن أعود شاباً ثانية. الكشميريات الجميلات، زوجات العسكريين الجميلات، الممرضات كلهن يقعن بسهولة بحب الفتى الذي ليس لديه حتى لحية كاملة مثل كربال الذي يحوم حول الجميع».

لربما كتب هذه الكلمات تحت تأثير السّكر، إلا أن السّكر ليس عذراً.

لا شيء من هذا صحيح. لم يفعل الجنرال كومار ذلك فلا دليل عند كيشان، كان الجنرال من ذوي الأخلاق العالية ومن ناحية أخرى فأنا لم أكن بعد قد عاشرت امرأة، لا تجربة عندي أكثر من أحلامي. كنت أتجه إلى الضياع لأن ابن الزنا الحقير كيشان كتب أكاذيب عن الجنرال وعني.

على الرغم من أكاذيبه واصلت إعداد الطعام له وهو في المستشفى. كنت أقدم له حصتي من الرَّم. أطعمه الطعام الذي يلائمه. كنت أحمل الطعام بالحافظات على الدراجة. لم يتكلم أبداً، لم يكلِّم أي شخص. بدا عليه الانكسار الشديد وهو على ذلك السرير المعدني، ولم أقدر على مَسْك شيء ضده. نائماً على السرير الأبيض، مغطًى ببطانية وذراعه الموشوم خارجها وعلى رسغه جرح مقطوب بقطبات عدة عرفت بالضبط ما الذي كان يفكر به، كان يفكر بأن الحياة قد انتهت قبل أن تبدأ. لقد امتصته المثلجة وأيبست عروقه، حقل الثلج والجليد ذاك، ملايين الأطنان من الثلوج تلك، طبقات فوق بعضها جلست فوقه ودكَّت أعضاء جسده ولم يعد قادراً على إنهاضها فقد غدت حطاماً. على لسانه ما زال مذاق جسد المرأة وعطرها غير أن المثلجة قد هرسته ولم يعد قادراً على فعل أي شيء.

كلا، فهناك وعلى ارتفاع عشرين ألف قدم كان دماغه وكل أعضائه تغرق في دمه. كان يفكر بأنه لا توجد عدالة على الأرض.

سقط شيء من سريره، إنها محفظته التي يضع فيها صورة زوجته، التقطتها ووضعتها إلى جانبه ولاحظت بأنه لم يدُر عينيه بل استمر بالنظر إليَّ بمرارة. بدأ تنفسه يكون ثقيلاً غير أنه لا يرمش. كان يفكر مع نفسه ويقول لها: هذا الرجل الشاب الطويل كشجرة الأرز الذي يحوم حول النساء طوال اليوم، شابات كشميريات فاتنات ونسوة متزوجات يدعونه إلى بيوتهن. شعرت بأنه يريدني أن أخبره عن تجاربي مع النساء، يريد أن يسمع كل شيء غير أنه يكره التحدث معي. ما كان يكره أن يسمعه مني هو الحقيقة كما أعتقد. كنت في العشرين وما زلت نقياً غير مدنس، نعم أنا كربال ما زلت نقياً غير مدنس.

في الخارج كانت الشمس تلقي بضوئها على أشجار الدردار والريح المنعشة تهبُّ في الوادي، أدركت حينها بأن الوقت مناسب للذهاب إلى السوق. كانت الشوارع حمراء، على الطريق رأيت نسوة يكنسن الأوراق بأكوام كبيرة يملأن أكياسهن الكبيرة بها لكي يصنعن الفحم النباتي في منازلهن لاستخدامه لأغراض التدفئة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(16)

التسامح مسألة غريبة فليس الكثير من الناس على هذه الأرض يعرفون كيف يطلبون السماح والقليل من الناس يعرفون كيف يسامحون حقاً. عدت إلى المستشفى لطلب السماح وفي الحقيقة لم أكن محتاجاً لضماد فالجرح الذي في إصبعي كان صغيراً. بعض الردهات كانت تغرق بالظلام وواحدة أو اثنتين كانت مضاءة بمصابيح الطوارئ وكانت رائحة الصراصير الميتة والكلوفورم تغطي المكان كله. ذهبت إليها فتجاهلتني وكان صوت كعبي حذائها في الردهة لا يحتمل أخيراً أوقفتها في الممر.

- «أيتها الممرضة كنت أنوي أن أقول لك بأني آسف».

- «قل ذلك بسرعة».

- «كنت مخطئاً، الطريقة التي نظرت بها إليك كانت خاطئة ولن يحدث ذلك مرة أخرى».

مسكت ذراعي وشعرت بأنها قد سامحتني.

- «أنا أحبك».

مباشرة بعد أن قالت ذلك دخلت إلى الردهة شبه المظلمة. ألقى الحارس عليها التحية. انتظرت في الممر حتى خرجت من الردهة لتدخين سيجارة. عندما اختفت وأدار الحارس بوجهه إلى الجهة الأخرى، دخلت إلى الردهة. كانت بطانية تغطي وجهه، والضوء الوحيد الذي يدخل الردهة كان الضوء المقبل من الشباك في الزاوية. كانت البطانية ترتفع وتنخفض. تحرك كيشان غير أنه لم يبعد البطانية عن وجهه وهذا ما جعل مهمتي أسهل. وبصوت منخفض اعتذرت عن شيئين، أولاً لقراءتي مذكراته وثانياً لحبي امرأته.

- «لم يحدث شيء بيننا أيها الرئيس، لقد قلت لها أحبك فقط ولم أفعل شيئاً غير ذلك».

لم أعد الكلمات نفسها ولكني اعتذرت ووضعت الدفتر الأحمر جنب وسادته وأسرعت بالخروج من الباب: نظر الحارس إليَّ بريبة ولم ينبس ببنت شفة.

في الممر كان رجل يضرب بحذائه على الأرض وفتى نحيف من كتيبة مدراس يلعب على كرسي متحرك بلعابه ويهز برأسه ببطء يميناً وشمالاً مثل الماكينة. كانت الممرضة تقف مع ثلاث من الممرضات وقد نظرن إلي جميعاً بفضول. فقلت للممرضة:

- «كنت فقط أحاول أن أقول شيئاً للرئيس».

- «لمن؟».

- «كيشان».

- «لكنه ليس هنا».

- «ليس هنا؟»

- «لقد غادر».

- «غادر؟».

- «قدم طلباً إلى المقدم للعودة إلى مثلجة الوردة».

- «ولماذا تركوه يذهب؟».

- «لأنه لا أحد يريد الذهاب».

كان الممر يعمُّه الاضطراب، ضباط يأتون يعقبهم آخرون، رأيت المقدم وفصيلته يدخلون الممر وكان الطبيب يمشي بموازاته بسترته المقفلة. كان المقدم يحمل بيده عصا التفتيش والطبيب يدخن سيجارة مارلبورو.

الطبيب «الطاقة الكهربائية غير معقولة سيدي».

تبعهم الآخرون إلى الردهة. مكث الضباط طويلاً داخل الردهة وطلبوا الشاي وبعد نصف ساعة خرج الساعي من الردهة يحمل صينية فارغة فسألته:

- «ما الذي يحدث بالداخل؟».

- «نحن نعيش حقاً في بلد أجنبي، إنهم يتعاملون مع أحد الأعداء».

- «أحد الأعداء؟».

- «نعم يحتاجون إلى مترجم في الداخل فلا أحد يعرف اللغة الكشميرية هنا».

- «أنا أعرفها».

طرقت على الباب.

- «أتسمح لي بالدخول سيدي؟».

- «كيب.... كربال؟».

- «إذا لم يكن هناك مانع سيدي، أنا أجيد اللغة فقد درستها سيدي».

سمح لي بالدخول قائلاً: «ممتاز».

نظر إلي الضباط، الذين كانوا يرتدون بزاتهم الرسمية وأحذيتهم السوداء الطويلة، بارتياح وكأني قد جئت لإنقاذهم.

كان الأسير ممدداً على السرير، لقد كان الأسير امرأة. أول عدو أراه كان امرأة. كنت قد اعتذرت لها قبل دقائق عن شيئين دون أن أدري. أول شيء لاحظته عليها هو الحركة اللاشعورية لرأسها وسرعة التنفس والرعب في عينيها وأقدامها الريفية. كان الخاتم في إصبعها يلمع بفعل ضوء المصباح وكانت مصابة بجرح في قدمها اليسرى.

طلب مني المقدم الجلوس على الكرسي المجاور للسرير. أخذت نفساً عميقاً وبعدها بدأ التحقيق. كانت تلك هي المرة الأولى التي أقوم فيها بالترجمة. كنت ألقي عليها الأسئلة ببطء. وكانت تتمتم بإجابتها ولم أطلب منها إعادة الأشياء غير المفهومة في كلامها بعد معرفتي جوهر كلامها.

- الاسم؟

- آرم.

- اسم الأب؟

- مقبول بوت.

- الجنسية؟.

- كشميرية.

- المقدم: أعد السؤال؟.

- الجنسية؟

- كشميرية.

- هل أنت متزوجة؟.

- نعم.

- وما اسم الزوج؟.

- رضا نعماني.

- هل لديكِ مشاكل؟.

- سيدي كل الزيجات فيها مشاكل.

- المقدم، كلا، نقصد هل لديك أطفال؟.

- هل لديكِ أطفال؟.

- كلا لا مشاكل سيدي.

وقفة قصيرة سادها الصمت.

- سيدة آرم، لماذا أنتِ في الهند؟.

- إن الله يعاقبني بسبب ذنوبي.

بدأ تنفس الأسيرة يتثاقل، تمتم المقدم بشيء، كانت تلهث لكي تتنفس فقدمت لها الممرضة قدحاً من الماء غير أنها فقدت الوعي. مسك الطبيب رسغها لثوانٍ عدة وتركه.

في تلك الردهة بالتحديد (وخصوصاً على سريرها) لم تعثر عيناي على دفتر كيشان الأحمر. فيما كانت حشرات صغيرة تتسلق الحائط الذي بجانب السرير. توقعت محاكمة، محاكمة عسكرية كبيرة وعلى الأقل تحقيقاً. عدت إلى مطبخ الجنرال خالي الوفاض ولقد ارتجف عمودي الفقري من الألم عندما هاتفني مدير مكتب الجنرال:

- «السيد الجنرال يود أن يراك يا كربال قبل أن يذهب للعب الغولف في الساعة الثالثة والنصف».

بقلق عظيم سرت إلى ملعب الغولف، لقد ارتكبت جرماً كبيراً ولكن الجنرال كان بمزاج رائق وهو بملابسه المدنية وقد طلب من بقية الضباط تركنا لوحدنا. كان يحمل عصا غولف غالية والتقط كرة بيضاء.

- «هل ترى هذا يا كربال؟».

- «إنها كرة غولف سيدي».

- «جيد».

- «سيدي».

- «هل ترى النقر يا كربال؟».

- «أراها سيدي».

- «لماذا تنقّر الكرة؟».

- «ليس لديَّ فكرة سيدي».

- «خمِّن؟».

- «لكي تتدحرج ببطء سيدي».

- «بشكل أسرع».

- «أيمزح سيدي؟».

- «انا لا أمزح كيب؟».

- «سيدي».

- «لقد اتصل بي المقدم، لقد أخبرني بما جرى في المستشفى صباح اليوم».

- «سيدي».

- «أحسنت العمل».

- «أشكرك سيدي».

- «هذه فرصتك لتحصل على رتبة ثانية وربما وساماً».

- «سيدي».

- «هل فهمتني؟».

- «ليس بالضبط سيدي».

- «اكتشف كل شيء عن الأسيرة».

- «كيف ذلك سيدي؟».

- «أنت شاب جميل».

- «هذا واجب غير اعتيادي سيدي».

- «واجب لذيذ يا كربال».

- «أكيد سيدي؟».

- «بالتأكيد».

- «سيدي، إن كان بمقدوري، متى سأذهب إلى المثلجة؟».

- «إن الأمور تتطور وسأنظر بذلك شخصياً. وكيب...».

- «نعم سيدي».

- «كل شيء يجب أن يبقى سرياً».

- «أمرك سيدي».

- «ما الذي تحدثنا عنه؟».

- «كرات الغولف سيدي».

- ‹«بإمكانك الانصراف».

ركزَّ نظره وضرب الكرة بعصا الغولف فيما استدرت عائداً. في الطريق إلى غرفتي فكّرت بكل الكرات التي ضاعت من ملعب الغولف، وتساءلت كم من كرات الغولف تعود إلى العدو؟ إذا كان النقر يجعل الكرات مسرعة هل هناك طريقة لجعلها بطيئة؟ وفجأة بدأت بالتفكير بالسريع والبطيء. السرعة والبطء في المطبخ... السرعة والبطء في المطبخ... ذلك بالتحديد ما كنا نحاول أن نفعله في المطبخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(17)

يعرف الرجال في الثكنات عنها أكثر مما عرفته. لقد عبرت النهر من الجانب المعادي إلى معسكرنا. إحدى الروايات تقول بأنها انتحارية كان هدفها مدرسة الأطفال فيما تزعم رواية ثانية بأنها عميلة للمخابرات المعادية وثالثة تقول بأنها قد جاءت لحث الشباب في كشمير على الالتحاق بالميليشيات. عدت في اليوم التالي وكانت ترتدي ثوباً فضفاضاً وكان ثلث جسدها يكسوه ضماد ثقيل ورأسها مغطى بوشاح وبدت جميلة حتى وهي مريضة.

«هناك جرح على قدمك، لماذا لم يجرِ تضميده؟ سألتها ذلك فأدارت قدمها ودسته تحت الغطاء كأنه فأرة صغيرة قائلة: «أعرف ذلك».

- «من فعل ذلك؟».

لم تقل شيئاً لذا استدرت ماشياً باتجاه النافذة. في الخارج كانت مجاميع الجنود تسير في ساحة العرض وسط الغبار. قلت لها:

- «إنكم تأكلون الكلاب في الباكستان».

اشتدَّ الغبار في الخارج واستمر الجنود بمسيرهم، واحد - اثنان - واحد.

صرخت عالياً: «إنكم تأكلون الكلاب».

ردت قائلة: «كلا».

استدرت وكانت مطرقة بنظرها إلى الأرض.

«إنكم تأكلون أرجل الدجاج.... الأفاعي - السحالي..تشتهون...».

كتب كيشان بأن العدو يأكلون الأبقار والثيران والأكلة المفضلة على موائدهم هي شرائح لحم العجل المطبوخة جيداً.

كسرت صمتها قائلة: «أعرف سبب وجودك هنا».

كانت لغتها الكشميرية ذات سمة إسلامية قوية (واللغة التي تعلمتها تبدو أكثر فصاحة).

- سألتها: «ولماذا؟».

كانت عيونها محمرة، أخرجت دفتر مذكرات كيشان من تحت الغطاء.خطوت إلى رأس السرير وانتزعته منها.

سألتها غاضباً: «هل قرأتيه؟».

- «الشخص الذي كتب هذا كان غاضباً أحياناً وسعيداً جداً أحياناً أخرى».

- «إنه مكتوب بالهندية، لقد كذبت يوم أمس أنك تعرفين الهندية».

بدا عليها الخوف عندما قلت ذلك بصوت عال.

- «كلا أيها الصاحب».

- «أنتم الباكستانيون لا يمكن الوثوق بكم».

- «لم أدخل المدرسة قط أيها الصاحب».

- «ما معنى ذلك؟».

- «لا أعرف القراءة والكتابة أيها الصاحب».

- لا تخاطبيني بـ«الصاحب» فقط أجيبيني، إذا كنت لم تقرئينه كيف تقولين بأنه كان غاضباً أحياناً وسعيداً في أخرى؟».

- «بدا القلم مسرعاً وبطيئاً في الكتابة».

كان حديثها بطيئاً يصعب سماعه في الأغلب وكأنه شريط محطم في جهاز تسجيل مما أغضبني ولكني واصلت تركها تتحدث.

- «إنك لا تحتاج أن تعرف اللغة أيها الصاحب لتعرف إن كان كاتب الكلمات غاضباً أو حزيناً أو سعيداً».

- «حسناً فأنتِ أمية».

إنها لا تعرف القراءة والكتابة وهذا ما أسرني.

بدا على وجهها الذكاء غير أنها لا تستطيع القراءة من اليسار إلى اليمين أو من اليمين إلى اليسار وهذا ما أسرني فعلاً.

لم تكن تملك الوسيلة لمعرفة أفكار كيشان الحميمة. ولكن وعندما كنت أسير عائداً إلى منزل الجنرال تملكني الحزن لأن الكثير من الناس في بلادي وبلاد العدوّ لا يعرفون القراءة والكتابة وشعرت بالأسى عليها فقد كانت امرأة جميلة ذكية لكنها في الحقيقة كانت تعيش حياة حيوان.

لم تلمس صينية الطعام الموجودة إلى جانب السرير وعلى الحائط الذي بجانبها كان المزيد من الحشرات تتقدم ببطء.

- «إن الطعام أيها الصاحب لا يليق بإنسان».

بعدها، لا أعرف ما الذي جعلني أقول: «سأكون متأكداً بأنك ستتناولين طعاماً جيداً وسأجعلك متأكدة من معرفة حقيقة الضيافة الهندية».

حانت فرصة تحضير وجبة ملائمة لها في الحال فقد غادر الجنرال إلى دلهي للقاء رئيس أركان الجيش وكان الطبيب مشغولاً بواجب أمني. أوصيت الممرضة أن لا تقفل غرفته في المستشفى لأن الغرفة تطلّ على منظر جميل للمرتفعات البعيدة، كانت تبدو زرقاء بالكامل ولا تعكس ظلاً....

الأشياء البعيدة تبدو دائماً زرقاء لسبب غير معروف. اللون الأزرق هو لون ماضينا، لون ماضينا المحطَّم.

لم يكن إنجازي الأفضل لكني فعلت جهدي لإطعام أسيرة العدوّ. أعددت الطعام في مطبخ الجنرال وقدمته لها في غرفة الطبيب في المستشفى بحضور الممرضة. ولا أفهم لماذا بقيت ألقبها «أسيرة العدوّ» إلى هذا اليوم فأحياناً تفلت العبارة من فمي.

كان اسمها آرم.

خلعت فردتي حذائها قبل أن تخطو على السجادة السميكة في غرفة الطبيب، مثل كل الكشميريين، فقد قدمت للسجادة الاحترام الذي تستحقه، فيما ظلت الممرضة مرتدية حذاءها القذر وهي تنظر بتشامخ إلى مريضتها. كانت ساحة مكشوفة للعرض السينمائي غير بعيدة عن المستشفى تعرض فيلماً وقد ذهب إليها معظم العاملين والحراس والمرضى من ذوي الحالات البسيطة لذا كانت المستشفى نصف فارغة. كان لدى الممرضة جرعة من الرم ولآرم أعددت شراب الليمون. كانت الموسيقى تصل من ساحة العرض السينمائي وتدخل الغرفة كالنسيم. ترددت آرم بالجلوس على الأريكة لذا فقد جلست على السجادة محدقة بصور السحالي والعناكب والعقارب المرسومة على السجادة الرائعة التي تشبه ألوانها ألوان الخضراوات والفواكه مع ألوان خضراء وحمراء باهتة.

قالت لي الممرضة بالانكليزية بأنها تتوق إلى النوم وكأنها الوحيدة التي لم تنم. بدأت آرم تشعر بعدم الارتياح في الغرفة فكانت تحمل قدحها وكأنه الشيء الوحيد الذي يريحها، فقد كان الرعب ما زال بادياً في عينيها وبدا لي بأن شفتيها كانتا تتحركان ببطء فقد كان هناك جرح في شفتها العليا. مسحت التكاثف ودوَّرت كأس الليمون بالطريقة نفسها التي يدوِّر فيها البوذيون في لاداخ أقراص الصلاة.

نظرت الممرضة إليها فيما كانت المريضة تنظر إلى الصورة المعلقة على الجدار. نهضت آرم على قدميها ودون أن تعيرنا أي انتباه سارت ببطء باتجاه الجدار ووقفت أمام الصورة الكبيرة. كانت اللوحة عبارة عن صورة لخمس أو ست نساء بثياب إسلامية يقفن على حافة صخرية شديدة الانحدار. اثنتان أو ثلاث يؤدين الصلاة وواحدة تنظر إلى السماء الواسعة وأخرى إلى أسفل الوادي حيث أشجار الحَوْر والصفصاف والدردار وحقول الفواكه والبحيرة والبيوت ذات الواجهات الخشبية. امرأة أخرى تقف حافية ويداها مرفوعتان وراحتاها مفتوحتان تدعو. شريط من الغيوم لا يعرف إن كان يلامس راحتيها أو ثنيات الجبل.

وضع غريب أن أنظر إلى ظهر آرم وهي تنظر إلى النسوة في اللوحة، لربما كُنَّ أكثر من ستة، الطويلة منهن تخفي القصيرة.

ببطء ستصبح آرم جزءاً من العمل الفني ولم أحب أن أزعجها غير أن نفسي أصبح ثقيلاً وبدأت الممرضة تضرب الأرض بقدمها. قلت بالكشميرية: «آرم جي لقد طبخت روجان جوش (يخني لحم الضأن) حلال عندك وغير حلال عندنا».

لم تردَّ عليَّ.

لذا بدأت أخبرها بمواصفات ومقادير الأكلة فاستدارت وتمتمت بشيء فطلبت أن تعيده فقالت: «الطماطة لا تستخدم أبداً في الروجان جوش».

طلبت الممرضة أن أترجم كلامها.

- «لا طماطة في الروجان جوش».

ضحكت الممرضة فيما ظلَّت آرم صامتة. قلت لها:

- «كيف يكون ذلك ممكناً؟ صحن بلا طماطة كالفيلم بدون صوت».

- «بدون طماطة».

- «آرم جي، «رجاءً» اكتبي لي مقادير روجان جوش».

ولكن ما إن فتحت فمي حتى أدركت خطئي فقلت: «إني آسف لأنك لا تكتبين».

كانت الممرضة تنظر إلينا.

- «ولكن لماذا تكون الروجان جوش حمراء جداً إذا كانت لا تحتوي على الطماطة؟».

بقيت آرم صامتة.

- «أخبريني، أنا مُصِرٌّ، أرجوك».

- «اللون بسبب الفلفل الأحمر».

- «لكن لون الصحن أحمر بالكامل».

- «هذا لون الصلصة الكشميرية وزهور الموال».

- «ذلك مقبول ولكن بعدم وجود الطماطة من أين جاء طعم الحموضة؟».

- «الحموضة بسبب الخثرة «الخميرة»».

قالت الممرضة بالانكليزية: «إنني أشعر بالجوع وغير قادرة على استيعاب اللغة الكشميرية».

لم تجلس آرم لا على الأريكة ولا على الكرسي بل جلست على السجادة لذا فرشت شرشفاً أبيض على السجادة ونقلت الصحون عليه. أغلقت عينيها ورفعت راحتيها ورددت دعاءً قصيراً وبدأت تأكل ببطء، تسارع بعد ذلك. وفجأة تذكرت أنها ليست لوحدها في الغرفة فأبطأت ثانية. لقد كانت تستخدم يدها اليسرى في الأكل وقد لعقت مرة أو مرتين أصابعها.

في أثناء العشاء انفتحت علينا وشاركتنا قصتها، لم تعد مترددة بعد ذلك.

لقد قفزت في النهر لتنهي حياتها، قتل النفس حرام وضد الدين، كما قالت: إنه ذنب كبير. لكن الحياة التي كانت تعيشها أسوأ من الموت، لقد كان زوجها وأمه ينتقدنها دائماً لعدم قدرتها على الحمل».

«كان صباحاً تشرينياً مشمساً، كان طعم فمي يشبه طعم اللوز المر وفجأة أدركت ما أنا فاعلة، مشيت إلى الصخرة العالية على جانب النهر وقفزت منها. قبل أن أقفز رأيت صور ملائكة ودعوت اللّه أن يميتني والآن فإنه يعاقبني لأني أردت ارتكاب تلك المعصية».

«لم أغرق، بل طفوت باتجاه أسفل النهر إلى الجانب الهندي بدلاً من الموت حيث أخرجني أحد حرس الحدود. أخبرت حرس الحدود بأني من الجانب الآخر وأني لست من الثوار. وبعد أن سألني عن جواز سفري وسبب دخولي أرض الهند بشكل غير قانوني سلمني إلى السلطة العسكرية التي أرسلتني إلى هذه المستشفى».

كانت على ثوبها رسوم غريبة مطرزة. لقد قفزت في النهر وهي ترتدي ذلك الثوب وقد التصق بجسدها في أثناء رحلتها من أرض العدوّ إلى أرضنا. بعد أن استمعت إلى قصتها تلك الليلة ركبت دراجتي عائداً إلى منزل الجنرال حاملاً الحافظة الفارغة والسكاكين وإزارها فقد اتسخ في أثناء العشاء فطلبت مني الممرضة أن آخذه إلى محل الغسيل على طريقي.

بقيت أسترجع كل شيء حدث في أثناء العشاء وأنا أقود دراجتي إلى منزل الجنرال، كان ذلك يشبه إعادة عرض فيلم بالأبيض والأسود مرة بعد مرة، كل محاولة كانت غير مرضية فكان عليَّ أن أبدأ ثانية وأفشل ثانية وأبدأ ثانية. أخذت الإزار إلى غرفتي، وعندما كان مساعدي ليس على مقربة. كانت تنبعث منه رائحة حلاوة المرأة الجميلة. لم أكن أعرف اسم هذا النمط من التطريز. وكلما دققت في الحاشية المطرزة أشعر بأن هذا النمط يُحتَمل أن يكون رمزاً لشيء ما.

كانت تلك الليلة أول ليلة أشعر فيها وكأن كشمير وطن لي... على الرغم من ذلك اضطجعت في السرير بحذائي وبذلتي وقد ذكرني مساعدي مرة أو مرتين بأن أغيّر ملابسي غير أني طلبت منه الابتعاد واستمر تفكيري بالدقائق الخمس التي قضيتها لوحدي مع آرم. فقد غادرت الممرضة الغرفة لتنضم إلى أحد المرضى في الردهة وقضيت خمس دقائق كاملة لوحدي مع آرم. فقلت لها:

- «أنا آسف فقد رفعت صوتي هذا الصباح».

- «لا يهم ذلك».

- «هل هناك شيء تحبين أن أفعله لك؟».

- «كلا».

- «أود أن أساعدك».

- «لا شيء».

- «أخبريني أرجوك».

- «إذا كان ممكناً اجلب لي القرآن».

- «ولكن».

- «لكن ماذا؟».

- «أنت لا تعرفين القراءة».

- «أستطيع مسك القرآن وحمله».

حلَّ صمت مربك. كانت عيناها حمراوين، كانت تحتاج القرآن أكثر من حاجتها للطعام.

- «هناك مجاميع عدة من المسلمين، لقد سمعت عن الشيعة والسنة والصوفية. أي نوع من المسلمين أنت؟».

- «الذين لا وطن لهم».

إجابتها خففت التوتر بيننا.

«هل ترين ذلك الجبل العالي حيث الأضواء اللامعة؟». «وأشرت بيدي من خلال النافذة، غرفتي في ذلك المكان».

أشارت برأسها.

- «عشت هناك، في الثكنات، منذ مدة إلى الآن. أحياناً عندما أنزل إلى الوادي أو هنا في المستشفى خلال الليل يبدو الجبل في الأعلى شبيهاً بطائرة ضخمة وعندما تضيء الأنوار في المساء تبدو وكأن الطائرة تستعد للإقلاع».

بقيت صامتة وأنا مستمر بالحديث والآن حينما أتذكر ذلك أقول أي أحمق كنت؟ والى اليوم لا أستطيع أن أتصور كيف أتوقف عن الكلام بوجود امرأة جميلة؟.

- «في ليالٍ معينة أسمع أصوات صفارات الإنذار لسيارات الإسعاف مسرعة إلى المستشفى وأحسُّ كأن الطائرة على وشك الانفجار».

اقتربت من النافذة حاملة صحن لحم الضأن. كان في مشيتها عرجٌ خفيف.

- «إنك تتحدث مثل الممثلين في أفلام بومباي».

الطريقة التي قالت بها ذلك كانت خالية من الخوف وغير متوقعة مما أثر بي كثيراً.

- «يمكن رؤية الجبل من جانبنا أيضاً، من الجانب الآخر من النهر ونحن أيضاً نستطيع رؤيته». «الأطفال في قريتنا يؤشرون إلى الرمز التذكاري في أعلى قمة الجبل. هل ذهبت إلى هناك؟».

- «كلا».

استدارت، كانت جميلة جداً ولا أستطيع أن أحدد جزءاً من وجهها لكي أقول لماذا هي جميلة. فقط ابعد ناظري عنها.

- «نصب مهيروكولا».

ركزت نظري وحاولت جاهداً أن أجد عيباً في ذلك الجمال. فشلت وبعدها نجحت، هناك فراغات بين أسنانها التي لم تكن جميلة.

- «مهيروكو لا؟».

- «نصب الهونيّ الأبيض».

- «الهونيّ؟.

كان كلامها البطيء جداً يكشف عن أسنانها. أخبرتني شيئاً لا ترويه النساء عادة للرجال الذين التقت بهم تواً: كانت في قريتنا حديقة هي الآن خراب. دخلها الهونيّ الأبيض مع جيش كبير من الفيلة.

- «فيلة؟».

- «نعم، فيلة وسقط أحدهم من الحافة الصخرية من ارتفاع عشرة آلاف قدم إلى الأسفل. كان الهونيّ يحبه. تسلى الهونيّ بصراخ الحيوان الساقط وبإصبع صغير واحد أمر رجاله بدفع أربعمائة فيل إلى الهاوية من أجل تسليته لا غير. أصوات تشبه أصوات البوق. طوال أيام بعدها كان أجدادي يسمعون صدى أصوات المخلوقات المحتضرة. «وبعدها حلّ السُّكون». في قريتي أصوات سيارات الإسعاف تذكرنا بالأفيال».

- «لماذا تروين لي هذا؟».

حاولت أن تجلس فسقط الصحن من يدها المرتجفة فتلطخ إزارها الملون بألوان قوس قزح وسقطت المعلقة بطيئاً على السجادة. سألتها: «لماذا أخبرتيني بذلك؟». «أنتم الكشميريون من أكبر رجل فيكم شأناً إلى أبسط رجل كلكم تعادون الهند».

احمرت عيناها كالقرميد وقالت: «أيها الصاحبان لست كذلك».

بعض المتشددين في قريتنا يخططون للقتل غير أني لا أريد العودة إلى كشمير إذا كان معظمنا سينتهي إلى الموت».

- «من الذي يريد الرجال قتله؟».

- «الضابط الأعلى في جيشكم».

- «الجنرال؟».

- «أعتقد ذلك».

- «وكيف عرفت؟».

- «سمعت ذلك في القرية، أرجوك انقذه، يجب أن لا تعبر سيارته الجسر رقم صفر».

- «ولا كلمة زيادة».

كانت الممرضة غاضبة من آرم عندما عادت فقد كان بعض اليخني على السجادة وأثره الطويل كان واضحاً على إزار آرم. طلبت مني الممرضة أن أخرج لمدة دقيقة وعندما عدت كانت آرم قد لبست بيجاما مخططة وقد بدا عليها عدم الارتياح داخل البيجاما الكبيرة القياس، كانت أكمامها متدلية. أطرقت بنظري إلى الأسفل فصرت أرى السجادة وقدميها.

صباح اليوم التالي استيقظت وإزار آرم تحت وسادتي وكانت فيه رائحة غامضة. بعثت مساعدي إلى السوق وغسلت الإزار مع ملابسي وجففته على الحبل في غرفتي مخفياً إياه تحت ملابسي. وعندما قمت بكيه كنت حذراً أن لا أكسر أزراره التي في الخلف التي فقد منها اثنان. في أثناء قيامي بالكي تساءلت أليس من المضحك أن تكون كلمة مكواة (IRON) باللغة الهندية تعني المرأة والمكواة في الوقت نفسه؟

رششتُ الماء على الإزار وكويته حتى اختفت التجعدات جميعها.

نظرت عند المساء إلى الجبل مرة أخرى وكانت أشجار الدردار تغير لونها. لا توجد في الجبل ذكرى للأفيال الساقطة، لو كان هناك شيء يسقط فهو الأوراق الحمراء التي تسقط ببطء وبلا صراخ. قدتُ دراجتي إلى الأسفل واضعاً الإزار المطوى في حقيبة الأدوات. عندما رأيتها فكّرت أنه يجب عليَّ إخبارها أن تقف أمام الشباك ثانية وأن تنظر إلى المنحدرات في ضوء المساء. ما الذي يجعل الأوراق تبقى على الأشجار في الخريف؟ أردت أن أسأل أسئلة كثيرة. كنت أريد أن أعرف ما كان شكلها قبل أن تتزوج؟ ما كان شكلها وهي بعدُ بنتٌ؟.

كيف كان الغرباء الآخرون يستجيبون إليها؟ ما هو الطعام الذي كانت لا تحبه؟ هل كان لديها ما يكفيها لتأكل؟ مَنْ علمها الطبخ؟ أردت أن أسألها كل هذه الأسئلة وأن أعرف الأجوبة كلها.

عندما وصلت إلى المستشفى ركنت دراجتي وسرت إلى داخل الجناح غير أنها لم تكن هناك. لم أعرف ما الذي أفعله. عليه ركبت دراجتي وذهبت إلى جامع «حضرت بال» مقابل الجسر رقم صفر. كان هناك أناس فوق الجسر وشرطيان يحرسان الدعامات الخضراء وكان النهر مرتفعاً وماؤه خابطاً. كان الجامع يقع في المنطقة المنخفضة على بعد ستمائة متر عن الجسر، حدوث الفيضان كان ممكناً. كانت امرأة مسنة تطعم الحمام في ساحة مبنى الجامع. خلعت حذائي ودخلت حافياً على البلاطات لأصل إليها. كانت كبيرة السن لكنها ما زالت جميلة، النساء في كشمير كن دائماً جميلات، لم تكن لديَّ فكرة عن كيفية شراء قرآن، وبينما أنا أتقدم إليها لاحظت بأن الرجال ينظرون إليَّ بريبة وكأنهم يظنون بأني جئت لأسرق الأثر المقدس وأخبئه في عمامتي. كانت عيونهم قاسية وأجسامهم مبتلة تقطر ماءً كأنهم قد خرجوا تواً من الحمام. أشارت المرأة المسنة بإصبعها إلى الدكان في الشارع قائلة: «القرآن لا يشترى من الجامع» وواصلت إطعام الحمام. كانت تقطع الخبز إلى قطع صغيرة جداً بصبر، كانت هناك آلاف الحمامات تلقي بفضلاتها في المكان نفسه الذي تُطْعمُ فيه.

الله أكبر، الله أكبر

الله أكبر، الله أكبر

أشهد أن لا إله إلّا الله

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله

أشهد أن محمداً رسول الله

حيَّ على الصلاة

حيَّ على الصلاة

حيَّ على الفلاح

حيَّ على الفلاح

الله أكبر الله أكبر

لا إله إلّا الله

الفتى في المخزن لم يكن يعير اهتماماً للأذان كان يقوم بحل مسائل حسابية فقد كان مذياعه يبث هذه المسائل. إلى اليوم أتذكر المسألة التي يحاول حلها والتي مرت عليَّ قبل سنوات أيام المدرسة:

{س^3 + ص^3 = ل^3 + م^3 = 1729}

سَعَلت فرفع نظره وكان أنفه مزكوماً.

- «هل تبيع القرآن؟».

- «كم تريد منها؟». سألني ظاناً أني سأشتري دزينة.

- «أيها الفتى، اشرح لي أولاً الطريقة الصحيحة لاحترام القرآن؟».

- «هل ستشتري؟».

- «بالطبع، أريد واحداً».

- «عليه سأعلمك».

مسح الفتى الكتاب بقطعة قماش.

- «اغسل يديك قبل الصلاة».

- «نفعل الشيء نفسه في الديانة السيخية».

لم يبد عليه الاهتمام بديانتي فعاد إلى مسائله الحسابية وكنت تقريباً سأخبره بالحل الصحيح غير أني غيّرت رأيي 1729 هو أصغر رقم يمكن أن يمثل مجموع مربعين بطريقتين مختلفتين:

س= 1، ص 12، ل= 9، م= 10.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أول رجل حلَّ هذه المسألة هو عالم الرياضيات الهندي الجنوبي رامانوجان. كان عبقرياً وقد حلَّ هذه المسألة وهو على فراش الموت وعمره تسع وعشرون سنة. في المدرسة اعتادت المدرسة أن تخبرنا قصصاً عديدة عن الرياضيات، كذلك أخبرتنا بأن الصفر، وهو القيمة الأكثر أهمية في الرياضيات، تم اكتشافه في بلادنا وبعدها انتقلت النظرية إلى البلاد العربية.

كان الظلام يقترب عندما قدت دراجتي عائداً إلى المعسكر ومعي القرآن في الصندوق الأمامي وفي صندوق المعدات كان هناك تفاحاً وسمكة سلمون مرقطة ملفوفة بجريدة. مقترباً من المعسكر لاحظت شيئاً كنت قد رأيته مرات عديدة سابقاً ولم أعتقده ذا أهمية. ليس بعيداً عن الجسر يرتفع الطريق بشدة ومن نقطة مهمة شاهدت نقاط ضوء مفاجئة وشهدت اللحظة الحاسمة فقد أضاءت الأنوار الكهربائية في بلادنا وبلاد العدو. أضاء العدو أنواره على المرتفعات البنية التي يحتلها وفي اللحظة الحاسمة نفسها لاحظت بأننا أضأنا الأنوار على مرتفعاتنا. يعلن الجانبان حلول الليل في اللحظة نفسها على الرغم من فارق الوقت. أوقفت دراجتي وانتظرت عند الحاجز لمدة طويلة فكرت خلالها بالمختلف والمتشابه بين الجانبين وبالمطر الذي يتساقط الآن على الجانبين جاعلاً خطوط القتال غَبِشة ضبابية مشوشة.

كان منزل الجنرال يزهو بأنواره الصفراء، إنه ثاني منزل لامع ومضيء على الحدود من جانبنا بعد منزل المحافظ الذي يضيء بغموض على التل.

شعرت تلك الليلة وأنا أقدم الشاي إلى الجنرال في غرفته بأني في مكانين في الوقت نفسه، كنت على الجسر، رقم صفر أنظر إلى الأضواء في منزل الجنرال كما كنت في المنزل في داخله حاملاً صينية الشاي. عاد الجنرال من سفره ولربما شعر هو أيضاً بأنه في مكانين في الوقت نفسه. طرقت الباب.

- «ادخل».

توقف الجنرال عن القراءة في الكتاب الذي بين يديه.

- «كيب».

- «سيدي».

طلب مني أن أضيء المصباح الأبيض.

- «يتوجب عليَّ أن أخبرك بأن الكركم الذي تضيفه إلى الشاي يساعد في آلام معدتي».

- «شكراً لك سيدي».

- «كيب» «سيدي».

- «حاول أكثر مع العدوّة».

- «إنها بريئة سيدي».

كان الجنرال يحتسي رشفات صغيرة من الشاي وأنا أخبره قصة غرقها في النهر.

- «هل من شيء آخر؟».

كنت أريد أن أضيف، لكني لا أستطيع أن أكشف قصة التفجير لأني كنت خائفاً على آرم.

- «كلا سيدي».

- «لماذا ترتجف؟».

- «آسف سيدي لقد كنت أقود دراجتي في المطر».

- «أي معلومة عن النشاط الإرهابي؟».

- «كلا سيدي»، كذبت، ولكن علينا أن نحقق أكثر».

- «ما السبب؟».

- «أيها الصاحب، ربما لو تأنينا في التحقيق».

- «نتأنى».

- «إلى هذا الحد، فإني قد أجريت التحقيقات بسرعة كبيرة ولكني أخطط لأن أتقدم ببطء من الآن ولاحقاً، بنفس طريقة صناعة كرات الغولف سيدي».

- «كيب، ولدي، لقد انتهت مهمتك».

- «انتهت، سيدي»؟

- «لا حاجة لأن تتقصى عن العدوّ بعد الآن».

- «لكني يا سيدي قد بدأت ذلك تواً».

- «كيب لقد جمعنا معلومات كافية، التقصي يجب أن يتوقف».

أبقيت نظري ثابتاً على كعب الكتاب المغلق على المائدة.

- «سيدي».

- «سيكتب المقدم حالاً شهادة توصية لك».

- «ولكن سيدي».

- «تستطيع الذهاب الآن».

- «سيدي».

كل صباح أدقق مع سائق الجنرال في المسالك التي سيمر بها. الجسر رقم صفر وبسبب الأمطار فإنه غير مدرج في المسالك وهذا كان إعادة للتأكيد. لكني كنت قلقاً جداً لذا ركبت دراجتي وذهبت إلى مكتب البريد في المدينة وأرسلت رسالة غير موقعة إلى المركز الرئيس للجيش أحذرهم من هجوم متوقع على الجنرال كومار. وكان للرسالة تأثيرها المباشر، فقد شدد الجيش من إجراءاته الأمنية حول الجسر وحققوا مع السكان المحليين، داهموا عدداً من بيوت الكشميريين في المنطقة. وكتب أحد الصحفيين بثقة في الصحيفة الوطنية بأن السلام قد عاد إلى الوادي. بعد أيام عدة عبرت سيارة الجنرال، العسكرية السوداء التي ترفع العلم والنجوم الأربعة، الجسر رقم صفر ولم يحدث شيء. وبعد ثلاث ثوانٍ انفجر الجسر.

حمل النهر الأجزاء المتناثرة والقناطر الرئيسة المتفجرة ولأيام عدة بدت المياه عالية ذات لون طيني أسود.

أخبرني السائق فيما بعد: «في اللحظة التي انفجر فيها الجسر شعرت بأن قلبي قد نزع من صدري وشعرت بيد اللّه الخفية تقوم بحمايتنا. لا أستطيع نسيان هدير مطر الأخشاب والحديد والنار. بدأت السيارة بالطيران وبعده صوت الانفجار المرعب، نزلت السيارة وبقيت مسيطراً على مقودها. صاح الجنرال من الكرسي الخلفي: «تج، تج، بسرعة أسرع»، كانت قدمي على دواسة الوقود تطحنها بقوة. انظر إلى هذا الثقب في بدن السيارة، قدَّر اللّه لنا ثقباً صغيراً في خلفية السيارة وبعض الإضرار داخلها. لقد جعلني اللّه أقود بسرعة، هل أنت معي؟

- «نعم، نعم».

- «إن اللّه عظيم».

قلت في نفسي: «إنها بريئة، آرم بريئة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(18)

ظلت سمكة السلمون المرقطة تحدق بي لأيام عدة في المطبخ، يمكن أن تقطّع السمكة بأي طريقة وهي أفضل من اللحم ولا خلاف على كونها حلالاً أو حراماً. سمكة السلمون كانت أفضل طريقة، كما اعتقدت للتحدث مع العدوة غير أن الجنرال طلب إيقاف كل المحادثات.

في الخارج، استمر المطر بالتساقط على النافذة مؤكسداً أدوات المائدة، لقد هزأ بي المطر لأيام عدة كما هزأت بي عينا تلك السمكة. لقد كان للجو القاسي تأثيرٌ معاكسٌ على إعدادي للطعام فالرطوبة في الهواء تمنع الجفاف. نثرت بذور الكزبرة الطازجة والكروباء على السمكة الرطبة. صديقي الساعي قام بإيصال حافظة الطعام إلى المستشفى وكذلك أوصل القرآن المقدس. لم ترسل أي رسالة لي لكنها قبّلت القرآن كما أخبرني الساعي.

قال الساعي: «لقد رفضت أكل السمكة».

- «هل قالت شيئاً ما؟».

- «لقد كانت الممرضة واقفة إلى جانب السرير وقد قالت العدوة (مستخدمة الإشارات») بأنها لا تنوي الأكل خلال الثلاثين يوماً المقبلة».

- «لماذا لم تقل بأنه رمضان؟».

- «هل ارتكبت خطأ؟، إني أعتذر».

- «كلا، كلا».

- «أيها الرئيس».

- «أرجوك اتركني لوحدي».

- «قالت شيئاً آخر».

- «ما هو؟».

- «عندما تأكل بشكل اعتيادي تشعر بالجوع عند العصر. لكن الآن فإنها تأكل بشكل غير اعتيادي، أعني أنها صائمة فإنها تشعر بالعطش فقط عند العصر».

- «وماذا بعد؟».

- «هذا كل شيء، الآن سأذهب بعيداً».

- «نعم ولا تريني وجهك ثانية».

وجدت نفسي غير قادر على النوم، مستيقظاً وحنجرتي جافة. في أثناء الحلم كنت جائعاً، لم آكل لأيام عدة، رأيت نفسي في صف مدرسي في الباكستان وكان المعلم الذي يأكل كباباً غاضباً مني. كان على

السبورة كلمات كتبت بالأوردية بطباشير سميك، لاحظت بأن المعلم يقترب من رحلتي حاملاً عصا في يده اليمنى، كان صوت بسطاله يزداد علواً كلما اقترب. الآن نحن واقفان وجهاً لوجه ورائحة الكباب تغزو منخري، كان المعلم يلبس الزي العسكري والنياشين على صدره فسألته: «الرئيس الجنرال مشّرف؟». قال لي: «افتح راحتك» فسألته: «وما جريمتي؟». قال: «إنك تجلس إلى جانب فتاة»، أدرت رقبتي: الفتاة، تفحصت وجهها بسرعة، كانت صامتة جداً، شفتاها مغلقتان بإحكام، إنها لا تأكل، شعرت بألم في معدتي.

- افتح راحتك وبدأ الجنرال يضرب راحتي بعصاه فأغلقت الفتاة عينيها وجسدها يرتجف واستمرت العصا تضرب راحتي وفجأة بدأت الفتاة تضحك فقلت لها: «لا تضحكي عليَّ، ليس هنا».

في أثناء المطر ورمضان كنت أعدُّ وجبات عشاء كثيرة، وبدا على المطبخ كثرة العمل بسبب أفواج الزائرين القادمين لتهنئة الجنرال على سلامته من الانفجار. لقد تم طرد مدير الأمن فيما أودع السجن أربعة ضباط آخرين مسؤولين عن حماية الجسر وتم مداهمة العديد من المنازل المحلية لاصطياد الإرهابيين.

لم يكن لدى الجنرال وقت لإراحة نفسه فقد انشغل بالمحكمة العسكرية العليا التي سيأتي العديد من ضباطها إلى مقر إقامته. وقد وجدت نفسي متوتراً قليلاً، أنام أربع أو خمس ساعات في اليوم، جاءني مدير مكتب الجنرال ووجهني بطبخ أطباق بنجابية للعميد باش الذي يرأس المحكمة العسكرية العليا. كان العميد باش يلقب ب- «الأب غاندي» وقد كان مشهوراً بنزاهته ونباتيته.

ها قد وصل العميد المعروف باش، صافحه الجنرال مرحباً به في غرفة الاستقبال ومن خلف الستارة سمعت الحديث الذي دار بين الرجلين.

- «هل هناك شهادة؟».

- «غير مكتوبة على الورق».

رنت الأقداح وقعقعت الصحون وخشخشت الملاعق غير أني لا أنسى مقاطع صوت الجنرال الحاد.

- «الرجل بريء وتأكد بأن سيرته غير ملطخة».

- «ولكن يا سيدي أنا أفترض بأن الجيش يريد أن يعرف. حتى لو كنا غير مهتمين فالأمر كله قد سُجّل بواسطة كاميرا جاسوس. ثلاثة مراسلين انتحلوا صفة تجار سلاح من بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية زاروا المقدم جوظري في منزله وقدموا له قناني الويسكي. فقال لهم المقدم: «إذا كنتم تريدون رشوتي حقاً فعلى الأقل ارشوني بخمسة كرور روبية (الكرور= 10 ملايين روبية) ووسكي علامة (بلو ليبل) فإن (بلاك ليبل) لن يفيد. ثم إن هناك خديعة التوابيت.

- «هذه تهمة ملفقة أيها العميد باش. ألا ترى بأن الصور هذه الأيام يمكن أن تعالج تكنولوجياً. ليس هناك أي شهادة مكتوبة، لا شهادة حقيقية ضده. المقدم لم يكن ليبيع شبابنا من أجل سعر الويسكي علامة (بلو ليبل).

الصحف المحلية كانت مليئة بالأخبار عن المقدم جوظري من الفرقة الجبلية الخامسة فقد كان متورطاً بعدة قضايا مشبوهة وآخرها خديعة التوابيت. لقد اشترى المقدم المئات من توابيت الألمنيوم من شركة أميركية بسعر مائتي دولار للتابوت الواحد وتحاسب مع الجيش بسعر 1800 دولار للتابوت الواحد. كلما مات عدد أكبر من الجنود الهنود في الجبهة كلما ازدادت أرباح المقدم وأصدقائه السياسيين في دلهي وواشنطن. صحيفة أو أكثر حملت الجنرال كومار مسؤولية خديعة التوابيت. لكن الجنرال كان بريئاً حقاً، لقد استغل المقدم ثقة الجنرال به. وعلى الرغم من ذلك كان الجنرال يحاول إنقاذه.

- «ضعه تحت المراقبة ولا تباشر شيئاً جديداً ضده، إنه نظيف، اتركه وشأنه».

- «ولكن، سيدي، هل تطلب مني أن أكذب؟».

- «يجب علينا حماية معنويات جيشنا».

- «إن كذبت فسأشعر بالسوء وإن قلت الحقيقة فسأشعر بالسوء، ما الذي يجب عليَّ فعله؟».

- «لا شيء».

- «لا شيء سيدي؟».

- «كل الطعام أيها العميد، هل أعجبك؟»

- «ممتاز، سيدي».

استمرت تمطر لمدة تسعة وثلاثين يوماً بعدها توقف المطر لليلة واحدة وعادت تمطر مرة أخرى. من نافذة المطبخ كنت أسمع وأشم رائحة الأوراق المتساقطة. في النهار تبدو الأشجار مبللة وجرداء وميتة ولكن في الليل تتحرك السيقان المدببة كأنها تنبض بالحياة. نزل المطر على مقر إقامة كبار الضباط ومقر الحرس حيث ستنعقد المحكمة العسكرية. لم تكن الجلسات تعني لي شيئاً حينها. أشعر بالارتباك عندما أعترف بأن النوم كان أفضل فهو نادر في الخدمة العسكرية.

حدث شيء ما في المستشفى، وجدت آرم جديلة من الشعر في العشاء الذي أرسلته إليها قبل العيد بأسبوع. قال لي الحراس: انتابت المرأة حالة بكاء غير مسيطر عليها فتوجب على الممرضة إعطاءها حقنة مهدئة. أخرجت المرأة خصلة الشعر تلك من قدر الحساء ورفعتها عالياً أمام الضوء ونظرت إليها مثل المحقق وبدأت بعدها بالبكاء والنحيب.

لا أعرف ما أفعله مع آرم. بينما أقوم بالطبخ كنت أستمع إلى موسيقى كيشان الألمانية، كانت الأنغام تعلو وتنخفض وتجعلني أغوص أعمق وأعمق داخل شيء جميل ومن ثم ارتفع مثل سمكة في بحيرة ميتة تخترق الأمواج. عند فترة استراحتي أنزل إلى المستشفى مع جهاز التسجيل في صندوق العُدد. كانت القطعات تستعرض تحت المطر وعلى الأرض الموحلة المحددة بالعجلات العسكرية، كانت قطرات المطر تتراقص على لوحات أرقامها. لم أهتم بمخاوفي، بدا طبيعياً الذهاب إليها. دخلت الردهة وكانت الضمادات التي تلفها أقل وبدت أقوى وهي جالسة على السرير المعدني، كان رأسها مغطىً بالشال نفسه وللمرة الأولى أكتشف أن ملامحها تشابه ملامح الممثلة الهندية وحيدة، الوجه

نفسه المنحوت والأنف نفسه والخدود نفسها. كان في يد آرم اليسرى كرة غولف، كانت تركز بنظرها على الكرة فيما استمر المطر في الخارج بالنزول على الأشجار الجرداء. تصورت بأن الكرة قد دخلت من النافذة حتماً. كانت تتفحص الحفر التي على الكرة ودون أن تحرك عينيها رحبت بي:

- «سلام».

- «سلام».

استمرت بتفحص الكرة.

- «بكرات مثل هذه يلعب الضباط الغولف على المروج».

كانت أصابعها تحاول ضغط الكرة بلطف كما يضغط الناس الفاكهة قبل شرائها. قلت:

- «هناك سبب لوجود الحفر فيها».

- «أعرف ذلك».

- «تعرفين ذلك؟».

- «إنها تجعل الكرة أسرع».

ابتسمت غير أنها توقفت عن إجابتي، وفي الخارج بدت الأشجار مظلمة مبللة عارية.

قلت لها:

- «اصغي لي، إنك امرأة ذكية ولكن هناك أشياء لا تعرفينها وهذا سبب إهدارك لدموعك وقد جئت لأكشف لك شيئاً عن نفسي إن لم تعرفيه سابقاً فيجب عليك معرفته. بنفس واحد قصير أود أن أخبرك. هنا. انظري إلى وجهي».

ركزت بنظرها على حذائي وليس على وجهي.

- «انظري إلى وجهي».

بدا طبيعياً أن أفعل ما فعلته بعدها. نزعت عمامتي وحللت عقدة شعري فوق رأسي. رفعت نظرها وتفحصتني بفضول.

- «لدي شعر طويل».

لا أتذكر هل أسقطت الكرة أم أنها سقطت لوحدها من يدها، تطبطبت الكرة لمرات عدة قبل أن تدور وتقف ساكنة. نزل شعري إلى ركبتيَّ.

- «ذلك هو سبب عثورك على الخصلة في الحساء» «لقد بكيت دون سبب يذكر».

- «إذن فقد أعلموك كل شيء عني».

- «لأني أود أن أعرفك».

- «كذب».

- «كلا».

- «ما الذي تريد معرفته عني؟».

- «كل شيء».

تطلعت إلى شعري الطويل بفضول شديد. كانت المرة الأولى التي تنظر فيها إليَّ مباشرة.

- «هناك نسوة يحسدنني لأن لي شعراً أطول من شعورهن».

استمرت بالنظر إليّ بالفضول نفسه، كانت تنظر إليَّ مباشرة وببطء فتحت عقدة الشال الذي على رأسها وجعلته يسقط ببطء.

- قالت: «الشعر».

تابعت عيناي حركة الشال عند سقوطه على الأرض وبعدها سمعت ضحكتها المتشنجة القوية، ورفعت عيناي وتطلّعت: لقد قاموا بحلق شعرها، انفجرت ضاحكة قبل أن تبكي مثل الطفل. لماذا حلقوا لها شعرها؟ وسألت نفسي، لماذا قمنا بحلاقة رأسها؟.

تفجرت عيناي بالدموع فإن لي شعراً طويلاً وهذه المرأة تنوح لفقدان شعرها. كان شالها على الأرض وعمامتي على المنضدة، شعرت وكأن كلاهما الشال والعمامة يحدثان بعضهما البعض.

قبل أن أعود إلى المطبخ تركت جهاز التسجيل والشريط إلى جانب سريرها.

- «سأترك جهاز التسجيل لك، أعلاه مكسور لذا كوني حذرة، انظري إلى إصبعي، هنا هذا الزر تضغطينه لكي يشتغل، وتضغطين الزر الآخر لإخراج الشريط هكذا.

ظلّت تنظر إلى الكسر في الجهاز.

ضغطت الزر.

استمعت إلى الموسيقى، جفلت في بداية الأمر وتغيرت ملامح وجهها مرات عدة إلى أن ابتسمت. لاحظت ثانية الحشرات التي تتسلق الحائط الأبيض إلى جانب سريرها. كانت الحشرات تهتز أيضاً. رغبت في أن أسألها أسئلة عدة وتصورت أنها ستجيب بتلك اللغة الكشميرية الإسلامية غير أنها واصلت الاستماع إلى الموسيقى حتى غطت في النوم.

نائمة، ويدها مبسوطة، بدت يدها وكأنها مرسومة، كان هناك إحساس بالرسم. كانت يدها تتحرك مع الموسيقى. وعندما توقف الشريط بدأت أسمع صوت أنفاسها، كان هناك تناقض أكيد بين السعادة على وجهها النائم وسعادة أحلامها وساعات اليقظة الحزينة. ما الذي كانت تحلم به؟ هل كانت تحلم بالريح والماء والثلج؟ عدت إلى المطبخ بصحن الطعام الذي لم تلمسه. لم تأكل ذلك اليوم. إذا كنا نعني بحلاقة شعرها إذلالها فقد نجحنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(19)

في تشرين الثاني طار الجنرال كومار ووزير الدفاع بطائرة عمودية لتفتيش الفوجين المرابضين فوق مثلجة سياشين وقد اصطحبني معه قائلاً: «كيب، السيد الوزير وأنا سنفتش القطعات وأنت ستفتش المطابخ فوق المثلجة».

في الطائرة العمودية كان الوضع يجلب المغص، لقد أجلسني الطيار على كرسي خلف الجنرال مباشرة. تحدث الوزير مع الجنرال حول القضايا المتعلقة بالأمن في بلادنا مستخدمين كلمات مشفرة مثل (القمة 18) أو (ن ج 8942). من جبل ثلجي أبيض إلى الذي يليه كنا نطير مثل النسر وقد شعرت بضغط متعب في أمعائي وكان الدوار مجهداً أكثر فأكثر. صرخت على الجنرال: «أيها الصاحب لا أستطيع تحمّل ذلك». غير أنه لم يسمعني. ركزّت نظري على حذائه الملّمع وجواربه ولربما كانت جواربه السوداء هي التي أراحتني. أغلقت عيني وبدأت أفكر بالطباخ المتدرب لديَّ. لقد جاء الرجل قبل يومين إلى المطبخ وعند أول ظهيرة استخدم جَوَرب الجنرال الأسود لتصفية الشاي. أنبته على ذلك في الحال فقال لي مدافعاً عن نفسه: «لم أخطئ أيها الرئيس هكذا نصفي الشاي في قريتنا بيواكوف».

«لماذا تضحك يا كربال». سألني الجنرال في الطائرة غير أن رائحة الشاي القذرة كانت محتبسة في أنفي.

- «سيدي فقط لأنني لا أستطيع أن أكون طبيعياً بوجود هذه الجبال العالية وهذا الثلج الأبدي».

تحركت الطائرة إلى الأعلى بشكل لولبي فأحسَّت رئتاي بنقص الهواء وفجأة انخفضنا لمئات عدة من الأقدام. لقد انخفضت قدرة المحرك على الارتفاع دون سابق إنذار.

- «سيدي الوزير، هذا الفتى فقد أباه في عملية الراقم - ن ج 9842».

- «إن عواطفي ومشاعري معك يا ولدي».

حطَّت الطائرة العمودية على مهبط المثلجة. سياشين هي ثاني أبرد مكان في العالم. قام اثنان من كبار الضباط باصطحاب الجنرال والوزير إلى خيمة خاصة.

ظهر كيشان من وسط الضباب الكثيف والبرد لاستقبالي.

كان أقل مني رتبة بنجمة وأنا أعلى منه رتبة بنجمة غير أن كل ذلك ليس أكثر من أضحوكة. لقد كان رئيساً لي وكنت متدرباً عنده لكن رتبتينا اتخذتا منحىً آخر لأكون أنا الأعلى وهو الأدنى. استعد كيشان ضارباً كعبيه وحياني قائلاً: «أهلاً بك» مضيفاً إلى الترحيب كلمة «سيدي».

مددت يدي بانزعاج وتردد في مصافحتي لكنه غير رأيه وضغط يدي كأنها فصوص ثوم.

أخذني داخل الخيمة القطبية البيضاء، جلسنا وكانت الريح تشتد في الخارج ضاربة قماش الخيمة. كانت المدفأة النفطية متقدة وكان وجهه واضحاً تحت ضوء المدفئة. كانت دوائر غامقة تحت عينيه

وبدا لي أنه أكبر سناً من عمره.

- «إذن فقد جئت».

- «سيدي».

- «لا تناديني ب- سيدي أيها.... الصغير».

- «هل نبدأ بالتفتيش؟».

- «أيها السيخي الصغير أتعتقد بأنك قد جئت إلى هنا لتفتيش ممرات الفئران؟ وهل نعاني من مشاكل الصراصير في المطبخ؟ هل نعرف كيف نصنع الطعام الياباني؟ ما الذي تنوي فعله؟ وكيف ستبدأ؟

- «طلب مني الجنرال كومار أن....».

- «متملق متزلفٌ للجنرال أنت».

- «هل نستطيع أن نبدأ؟».

- «ماذا نبدأ؟».

- «يود الجنرال أن يطَّلع على المشاكل في المطبخ».

- «أيّ مشاكل؟ ليس لدينا مشاكل».

كان عقله في مكان آخر. عندها دخل الخيمة كلب بني، نفض الثلج عنه وجاء يشمني وبلا سبب قفز ولحس برقعي فربتُّ على رأسه واقترحت أن نخرج للمشي وأدهشني نهوض كيشان في الحال. لفعنا أنفسنا وغادرنا الخيمة. ما زلت أذكر الصوت الذي كانت تحدثه أحذيتنا المطاطية فوق الثلج الهش. وكذلك صوت لهاث الكلب. كانت الريح تضرب خدودنا وهو مستمر بتحريك ذراعيه إلى الأعلى والأسفل في الهواء تحت السماء، كنا عالين جداً بحيث أصبحنا جزءاً من السماء وهو يحرك ذراعيه أعلى وأسفل محركاً كفيه داخل قفازاته. قال لي: «هكذا يتواصل الناس مع الموسيقى في بلاد الشيف مولر وها أنا أتواصل مع الموسيقى».

أضاف قائلاً: «هذه الموسيقى تجعلني أفكر بملحمة «ماهابهاراتا» عندما كبرا تحرك (الباندافاس) باتجاه الجبال متسلقين أعلى فأعلى ليصلوا إلى بوابات السماء. ولم يلحق بهم أحد سوى كلب تائه. سقط الإخوان الواحد بعد الآخر على الطريق الشاهق. الأكبر يا ظيستر وكلبه فقط بلغا البوابات. قال له حارس البوابة: «تستطيع الدخول، لكن الحيوان غير مسموح له أن يكون في السماء» فاحتج يا ظيستر «لقد تبعني طوال الطريق، لقد تخلى إخوتي عني ولكن هذا المخلوق كان رفيقي المخلص، لن أدخل لوحدي».

سألته: «وهل فعل ذلك؟».

كان كيشان صامتاً. مشى بي فوق ثلوج رخوة إلى صدع عميق وأشار إلى دليات الجليد الأبيض المدببة على الجانب الآخر وقال: «كان الصدع في الواقع فم المثلجة والدليات أسنانها البيضاء هكذا

تأكل المثلجة».

بدأ الكلب يركض حول الصدع العميق. قال لي كيشان:

- «لا تقلق».

- «كم يبلغ عمقها؟».

أخرج حصاة من جيب برقعه وأسقطها. سمعنا صوتاً بعد عشرين ثانية من اختفاء الحصاة في الصدع.

- «ما رأيك بالمثلجة؟».

- «من الطائرة تبدو وكأنها لسان رجل عملاق خارج فمه يلحس سرة امرأة، كانت سياشين وشماً كبيراً فوق بطن امرأة حامل».

التفت ونظر إليَّ.

- «لقد قرأت مذكراتي».

لم أجبه.

- «أيها السيخي الصغير، لقد قرأت مذكراتي؟».

كانت كلمات باردة جداً تتجمد في فمي. فجأة رأيت كأن المثلجة تشبه مخلوقاً حياً هائلاً على وشك أن يأخذني ويأخذنا جميعاً. لقد شلَّ هذا المخلوق أفكاري ناديتُ: أبي، وصرخت: يا أبي».

- «اضربني، أرجوك أن تضربني».

وضع ذراعه حول كتفي فشعرت بها هزيلة بسبب طبقات الملابس التي بيننا.

- «اضربني».

- «سبق وضربتك» قالها كيشان ضاحكاً.

كانت ضحكة عالية خرج أثناءها الدخان الأبيض من فمه.

كانت شفتاه تطقطقان.

- «أقول لك: اضربني».

- «سبق وضربتك، ألا يكفي؟ ضربتك في أماكن موجعة، ألا تعرف ذلك؟ ألا تعرف بأني أضربك بكتاباتي؟».

- «إنني مشوش الذهن».

- «لقد قرأت مذكراتي لأنك أردت قراءتها لكني كنت سأعطيها لك بكل الأحوال، أنا أيضاً أردت أن تقرأها».

- «إنك تمزح؟».

- «هل هي مؤذية؟».

- «ولكن لماذا؟، لماذا أردت أن أقرأها؟».

- «لأن...».

قبل أن يستطيع الإجابة شعرت بأن غضبي يزداد.

- «لأن الرجال المختلفين غرباء فيما بينهم، حتى لو حملنا الجروح نفسها فإننا نظل غرباء. لا نستطيع أن نعبر عن أنفسنا بشكل طبيعي، ولا حتى عن غضبنا. لقد كنت قادراً على أن أكتب أشياء معينة لأني كنت أكتبها لك، كنت غاضباً منك وغاضباً من نفسي وغاضباً من الكثير من الناس. ولكن».

- «ولكن ماذا؟».

- «لم أكن قادراً». «اطلب شيئاً واحداً فقط. أرجوك لا تكن غاضباً مني، أنت لست رجلاً واحداً، كنت دائماً أراك رجلين، أنت عزيز عندي وأنت شاهدي أيضاً».

- «شاهدك؟».

- «الآن أستطيع الرحيل».

- «إلى أين؟».

- «عندما أموت يجب عليك أن لا تندبني».

في تلك اللحظة أطلعني على الخطة. واقفاً إلى جانب الصدع أطلعني على التفاصيل بثقة تامة. توسلت إليه أن لا يفعل ذلك وقلت له:

- «لن أكون جزءاً من ذلك» فقال لي: «اصغِ إليَّ، لو كان والدك حياً سيفعل بالضبط ما سأفعله، الفعل نفسه بالضبط. اصغِ إليَّ أيها السيخي، لقد كنت معلمك وعندما يفتح المعلم فمه فإن التلميذ يصغي وعندما يطلب المعلم شيئاً يجب على التلميذ تهيئة الثمن. هل تعرف المهابهاراتا؟».

- «إنها طويلة جداً».

- «ما الذي تعنيه بطويلة؟». أنتم الفتيان لا تقرأون هذه الأمور هذه الأيام، ولكن دعني أخبرك، في ملحمة المهابهاراتا، يعتقد معظم الناس بأن القصة حول إخوة يتقاتلون على المُلْك. لا شيء يمكن أن يكون أبعد من الحقيقة. القصة الحقيقية هي قصة ذلك الفتى الأسود من الطبقة الدنيا من الشعب. لقد وُلِدَ ماهراً موهوباً في رمي السهام. وذهب إلى البرهامي ليعلمه ويطور موهبته. كان البرهامي معلماً

لولدي الملك. فرفض أن يعلم الفتى الأسود. عاد الفتى إلى الغابة وصنع تمثالاً طينياً للبرهامي ووضعه أمام شجرة منعزلة علم الفتى نفسه الرماية وأصبح أكثر موهبة من ولدي الملك. ونتيجة لذلك نشأوا يغارون منه وأصبح المعلم قلقاً. لذا ذهب المعلم إلى الفتى الأسود وأخبره أنه سيعلمه مقابل ثمن. سُرَّ الفتى لأن المعلم قَبِل أن يكون تلميذه وكان مستعداً لأن يعطي أي شيء يطلبه المعلم. ويفترض بالتلميذ أن يقدم حياته إن طلبها المعلم. لم يطلب البرهامي من الفتى حياته، كل ما طلبه هو إبهامه الأيمن، في تلك اللحظة الحاسمة تناول الفتى سكيناً حاداً وقطع إبهامه الأسود الذي كان بسواد وجهه وقَدَّمه إلى معلمه. أصبح أشل ولم يستطع أن يمارس الرماية ثانية. أفهمت؟ إنني لا أطلب منك يا كربال أن تقدم لي إبهامك أو أصابع يدك كل ما أحتاجه هو شيء واحد، إن تكون شاهدي.

لم أستطع أن أردّ نظرة كيشان التي اخترقت كياني. قلت له:

- «إن الحياة غالية» فقال: «أذلك» سألته: «وهل سيصيب الجنرال كومار أي أذى؟».

- «كلا» أكد لي «بأن لا شعرة واحدة من شعره سيصيبها الأذى».

مع نهاية ذلك اليوم رحل الرئيس كيشان إلى بارئه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(20)

أصبح كل شيء جاهزاً فقد تم إنجاز تفتيش الفوجين فوق المثلجة، كان هناك ضباب فوق سياشين خلال الليلة السابقة والآن انقشع الضباب وأصبحت القمم واضحة والشمس ساطعة سطوعاً يسبّب بقعاً سوداء أمام العين، ولون السماء فضي مزرق.

بدأ الجنرال ووزير الدفاع بتناول الغداء في خيمة الضباط. أرسل المقدم صبياً إلى المطبخ ليخبرنا بأن وزير الدفاع يود التكلم مع الطباخ. نظرت إلى الرئيس كيشان. لقد أعد الطعام كله بيديه، نظرت إلى مساعديه الأربعة ومن ثم أعدت النظر إلى الرئيس كيشان، كان يتفحصني بعينيه الثاقبتين، لاحظت التصميم والعزم يملأهم ولهذا قررت أن أستمر بالخطة.

ذهبت مصراً إلى خيمة الضباط. سمعت الجنرال يشرح للوزير فن تربية أشجار البونساي وسمعت سؤال الوزير بشأن شبابيك الخيمة، أجاب الجنرال: لقد طور السويسريون تكنولوجيا جديدة.

كما ذكرت من قبل، من هنا نستطيع رؤية الرجال في الخارج ولكنهم لا يستطيعون رؤيتنا... نعم، نعم، كيب، ادخل. أديت التحية.

«أحسنت يا كيب، طعام جيد». أخبرت الجنرال بأن الرئيس كيشان هو من طبخ الطعام. إذا كان أحداً يستحق المديح فإنه هو وليس أنا. طلب مني الجنرال أن أستدعي كيشان فعدت لإحضاره.

كانوا على أتم الاستعداد.

أدى مساعدو كيشان الأربعة التحية له. كانوا ينادونه بالآمر. كان الآمر بملابس عسكرية كاملة.

كانت الحرارة في الخارج (- 49) درجة مئوية. كان في عيني دموع غير مجربة. في الطريق توقف الآمر كيشان أمام خيمة الجنود ووقف قرب صندوق الرسائل. أخرج من جيبه رسالتين واحدة معنونة إلى أولاده والأخرى لزوجته. ضحك قليلاً مثل رجل طيب أجبرته الظروف على ارتكاب عمل سيّئ.

ساروا بنسق باتجاه خيمة الضباط وأنا معهم وكانت الأبخرة تخرج من أفواهنا. توقفنا خارج الخيمة السويسرية.

دخلت قائلاً: «الآمر ومساعدوه ينتظرون في الخارج. سيدي الرئيس كيشان هنا يطلب الإذن بالدخول». فقال الجنرال: «قد سمحنا له بالدخول».

كيشان - قال كيشان: سيدي لقد جاء مساعديَّ الأربعة معي، أتسمح بدخولهم؟».

الجنرال: «قد سمحنا بدخولهم».

الوزير: ما اسمك؟».

كيشان: «الشيف كيشان سيدي».

الجنرال: «حراس السفارة هم من أطلق عليه هذا الاسم. لقد تدرب كيشان هناك، إنه يجيد الطبخ بمهارة سيدي. استدار الجنرال باتجاه وزير الدفاع.

الوزير: «طعام جيد، أحسنتم».

كيشان: «شكراً لك سيدي».

الوزير: «هل تدربت في السفارة اليابانية؟».

كيشان: «قبل سنوات سيدي».

الوزير: «يجب أن أقول بأن هذا الطعام هو أفضل طعام تناولته».

كيشان: «شكراً لك سيدي».

الوزير: «كيشان أي طعام تعتقده ملائماً في المثلجة؟».

كيشان: «شرائح اللحم المشوية للضباط سيدي».

الوزير: «بالتأكيد».

كيشان: «من أجل عمل شرائح اللحم فإن التقطيع مهم. إنه التقطيع سيدي. السكاكين مهمة جداً».

الوزير: «وأنتم أيها الشباب تعرفونها كلها؟».

كيشان: «أتسمح بعرضها أمامكم سيدي؟».

الوزير: «قد سمحنا بذلك».

كانت المنضدة مضيئة لامعة بسبب الضوء القوي الذي يمر من خلال نافذة الخيمة. وضع مساعدو الآمر السكاكين اللامعة. عندما استرجعوا السكاكين أعطى الآمر إشارة سريعة لمساعديه فاسرعوا باتجاه الجنرال والوزير وقيدوهما بحبال إلى العمود ولصقوا شفاههما بشريط لاصق. ثم فعلوا الشيء نفسه معي. كل شيء يسير حسب الخطة. عليَّ أن أتصرف وكأني لست معهم.

المقدم، الذي يقف في الخارج حارساً، شعر بشيء غريب داخل الخيمة فحاول أن يدخل غير أنه صُدَّ.؟ وحاول ثانية وقال: «إذا حدث شيء للجنرال.... أحد مساعدي الآمر الأربعة قال بصوت عالٍ بأن لا أذى سيصيب الجنرال والوزير وكربال، لدينا ثلاثة مطالب مخاطباً المقدم: المطلب الأول: تجميع جميع جنود الفوجين خارج خيمة الجنرال. المطلب الثاني: سيخاطب الآمر كيشان الجنود وعليهم الاستماع له بصمت كامل. المطلب الثالث: وسائل الإعلام والصحافة يجب أن تشهد الخطاب.

كان المقدم رجلاً عاقلاً، وافق على المطالب. أطلق أبواق الطوارئ وجمع الفوجين بأكملهما قرب خيمة الجنرال خلال اثنتي عشرة دقيقة. من داخل الخيمة كنا نسمع أصوات أحذية الجنود تضرب على الثلج ونرى اصطفافهم بتشكيل خمسة - ثلاثة - خمسة. مرت نصف ساعة ولم تحدث أي إشارة حول مجيء وسائل الإعلام والصحافة.

كيشان: أيها المقدم «لا تلعب معنا».

المقدم: «وسائل الإعلام في الطريق إلينا لقد اتصلت بهم ثلاث مرات. خرج الآمر من الخيمة وتبعه أحد مساعديه واقفاً خلفه».

في الداخل سمعنا أصوات فتح عتلات الأمان للبنادق ولكن لا يوجد إطلاق نار. ثلاثة من المساعدين ظلوا يحرسون الرهائن الثلاثة داخل الخيمة.في الحال حامت طائرة عمودية فوقنا في الهواء وحطت على الأرض، خفقت جوانب الخيمة وسمعنا صوت المروحة. وصل مراسلو الصحف والتلفاز والمصورون. وهما جالسان قريبان مني جداً بدا الجنرال والوزير وكأنهما فأران صغيران. حاولت أن أحرر نفسي، لم تكن الحبال التي تقيدني مربوطة بشدة مثلهما، لم يكن تحرير نفسي جزءاً من الخطة. شعرت للحظة بأني سأغير هذه الخطة المجنونة.

في الخارج، بدأ الآمر كيشان خطابه، كانت الريح تعوي بجنون بدأ خطابه بصوت منخفض وبعدها رفع صوته، بدأ بتقديم الشكر إلى الرجال كلهم الذين ماتوا دفاعاً عن بلادنا.

شكراً لكم يا جنود الفوج الثامن والكتيبة الجبلية السابعة والفوج الثالث والعشرون في الفرقة الخامسة عشرة. إن الجيش هو روح البلاد غير أن التقاليد القديمة في العدل والإنسانية قد ماتت في كتائبنا. إن لدينا ضباطاً قد بنوا فنادق وأسواق ضخمة في دلهي وجورجون. لدينا ضباطٌ جمعوا المال من بيع أرزاق الجنود ومن معاملات التطوع».

«لدينا رجال متورطون بقضية التوابيت، كلما مات عدد أكبر من الهنود في الجبهات كلما ازداد ربح الضباط وأصدقائهم في دلهي. السؤال الذي أسأله اليوم هو: هل نموت من أجل لا شيء؟ هباءً؟ نحن نعزز الجيش ونعمل بجد وأولئك الذين في قمة السلطة يخدعوننا. أريد منكم أن تحتجوا على هذا وأن تفكروا ملياً، ما الذي نفعله فوق المثلجة، فوق حقول الجليد هذه؟ تساءلوا لماذا نريد إذابة المثلجة، إن النفط والسموم الأخرى التي نطرحها على المثلجة ستنتهي تدفق أنهارنا المقدسة. لزمن طويل آمنا نحن الهنود بأن الآلهة تعيش في الجبال. لماذا نقوم بهدم بيوت الآلهة الآن؟ لماذا نحتاج كشمير؟ تساءلوا، هل أن كشمير بحاجة إلينا؟ نحن نتبول ونتغوط هنا وهذه تتجمد ويجب علينا كسرها بسلاحنا. وأقول الشيء نفسه إلى الأنذال على الجانب الآخر، من أجل أي شيء يموتون؟ هذه الثلوج ليست مكاناً للبشر، لقد ضاعت فيها حياة جنودنا». كان يحاول جاهداً أن يشرح ما في نفسه، يحاول شرح شيء يقدمه لهم. لكن جنود الفوجين لا يستجيبون إليه بشكل جيد. في الحال حامت طائرات عمودية عدة فوق المثلجة، صفّر الجنود وصرخوا وأحدثوا لغطاً كما أحدثت الطائرات جلبة وهي تنثر الثلج في عيون الجنود، كان الصوت يصم الآذان ودرجة الحرارة - 55مْ تحت الصفر.

أصبح الجنود غير قادرين على سماعه. ظهرت طائرتان عموديتان كنت أحاول أن أحرر نفسي. بدأ الحبل يرتخي. خطاب الآمر لا يستمر بشكل جيد. عاد ومساعده إلى الخيمة. في زاوية الخيمة يوجد جلكان من النفط. حاولت أن أصرخ فلم تخرج كلماتي. رشّ الآمر كيشان نفسه بالنفط وكذلك فعل مساعدوه. «لا تفعلوا ذلك». توسلت إليهم مهتزاً بعنف في الكرسي. أشعل كيشان عود ثقاب وأشعل النار في جسده وأجساد مساعديه.

«أيها الأنذال» لقد غيروا الخطة. كانت الخطة تنص على أنهم يفكون وثاقنا ويسلمون أنفسهم ولم تكن النار جزءاً من الخطة. حاولت، صرخت، حررت يديّ وكان لهب النار ينتشر. زحفت باتجاه المقيدين وفككت الحبال. ركض الجنرال مع وزير الدفاع خارج الخيمة. ما الذي فعلته يا كيشان، بدأ جنود القوات الخاصة بإطلاق النار فأمرهم الجنرال بالتوقف عن الرمي. دخل الجنود الخيمة يتبعهم المقدم الذي حاول أن يجرني خارج الخيمة، قاومته، سقطت الصحون إلى الأرض، تمكن المقدم من جري خارجاً وآخر شيء سمعته هو عواء كلب عالٍ.

كانت طائرة عمودية في الانتظار ومروحتها تدور. أسرع المقدم بإدخال الجنرال ووزير الدفاع وإدخالي إلى الطائرة.

من الأعالي شاهدنا ألسنة اللهب والدخان والجنود المبعثرين. كانت الريح شديدة حتى أنها قسمت الخيمة إلى نصفين. من الأعالي وعلى البعد رأيت برتقالتين صغيرتين واحدة على الجانب الهندي والأخرى تتدحرج باتجاه الجانب الباكستاني من المثلجة.

«إن رائحة الجلد المحترق لا يمكن أن تتركنا أبداً» هكذا قلت لنفسي على متن ذلك القطار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(21)

سألت نفسي هل بالإمكان أن يطبخ الإنسان بشكل جيد عندما يملؤه الحزن بالكامل؟ أو عندما تغمره السعادة بالكامل؟ في بلادنا حيث نصف الأطفال يعانون من سوء التغذية ولا يعرفون حتى القراءة والكتابة. هل من الصحيح أن بعض الناس يأكلون جيداً؟ أغلقت عيناي محاولاً الإجابة ولكن كل ما أراه ظلالاً. ظِلُّ الرئيس كيشان في المطبخ وظِلُّ الجنرال كومار على السجادات وعلى الجنود فوق المثلجة. تؤلمني عيناي عندما أفكر بالمثلجة. أشرقت الشمس والسماء زرقاء فضية، الزرقة لامعة جداً لأجلي.

رأسي ودماغي يؤلماني، أنا ميت من زمن.

استمر مرور الهند من أمامي.

خارج القطار الأراضي فقيرة لا زرع فيها ولا نهر سوى جدول ملوث. الأرض جافة وصفراء منبسطة بانتفاخات متفرقة. انبساطها مرعب، مرَّ حيوان موسمي، مرَّ رجل عليل أو امرأة عليلة. مررنا بمدينة باثانكوت. قطعات ودبابات تمر. بدأت سفوح الجبال تلوح من بعيد، الجبال البعيدة، جبال بيربانجالز صارت تلوح للنظر. الآن نحن بعيدون جداً عن دلهي وبومباي. بعيدون جداً عن المدن الكبرى، بعيدون جداً عن ملايين من الناس ومآسيهم وكآباتهم وسوداوياتهم. صارت كشمير قريبة، أكاد أشمها. الجمال، حزن الجبال، إزعاج الأشجار الجرداء. تراكم الثلوج. رقائق كبيرة وذرور تسقط فوق الشوارع المرصوفة. في الشتاء جميع الشوارع متشابهة، كل البيوت متشابهة. الثلج يدور في الهواء. أيها الجمال إني قادم إليك، إني في الطريق إليك، لم أنسَ معجناتك الهشّة، انتفاخات خبزك المختمر، أنصاف الرمان في ثلاجة الجنرال، الكرز الأحمر الذي يصبغ أصابع روبيا وآرم لكبره. حقيقة أنتِ يا كشمير، لقد أعطيتيني السعادة والألم كلاهما في وقت واحد. أنتِ حلمي وأملي، شقائي، دماغي، صداعي الضارب بعنف. أنتِ عشبي الضار، سرطاني، مُخُّ بيضتي. إنكِ أشدُّ برودة من الموت والحب. كشمير، كاشمير، كوشمير، كاسمير، كيرشيمير، كوشمار أكاد أشمك أيتها الجنة. الثلج والجنة.

لا أستطيع رؤية شيء.

هل حلمت بالمثلجة؟

هل أنا ميت؟

- ما الذي أفعله هنا؟ قبل دقائق استيقظت في هذه العربة المكيفة ذات النوافذ الزجاجية المزدوجة.

- «ما الذي أفعله هنا؟» سألت الرجل الذي يرتدي الخاكي. «لماذا أنا في هذه العربة؟» «لقد كنت أركب في الدرجة الثانية، ما الذي حدث؟.»

- «أيها السيد، نحو الساعة العاشرة، قبل أربع ساعات، قمت بالدخول إلى حمام الدرجة الثانية التي تسافر عليها».

- «نعم، نعم».

- «لقد أغمي عليك في الحمام».

- «وقعت مغشياً عليّ؟».

نظرت إلى نفسي، كانت يداي متسخة.

- «عارض مفاجئ يا سيد لحسن الحظ أن هناك طبيباً في العربة، وبناءً على توصيته قمنا نحن موظفو السكك بنقلك على حمالة إلى هذه العربة المكيّفة».

- «أقدم شكري الجزيل، يجب عليَّ أن أدفع فارق ثمن التذكرة». بعض العاملين في السكك الحديدية يعدّون من النوع الاستثنائي من الناس. أنا لا أتحدث عن فاحصي البطاقات الفاسدين والوزراء المحتالين بل عن عاملين من هذا القبيل. هذا النوع النادر من الناس الذين لا يتوقعون مكافأة تماماً مثل الجنود في الجيش.

- «كلا أيها السيد لن أقبل أي مال إضافي».

قلت بإصرار: «ولكن يجب عليك ذلك».

- «لا تهتم أيها السيد، لقد خدمت في الجيش».

- «وكيف عرفت أني قد خدمت في الجيش؟».

- «القطار بأكمله يعرف أنك قد خدمت في الجيش. إن الأخبار تنتشر بسرعة على متن القطارات أيها السيد».

حتى في القطارات لا توجد خصوصية. سألت: «هل سيصل القطار في موعده، إن لم يصل في وقته فإن موعد الحافلة سيفوتني».

كيف ومتى نقلوني وأمتعتي إلى هذه العربة؟ لا أتذكر شيئاً.

إنه أول رجل في القطار أشعر أني أرغب بالتحدث إليه. كان يرتدي زياً خاكياً. قال لي بأنه اعتاد أن يعمل مراقباً للخطوط. لقد عمل لمدة واحد وثلاثين عاماً كمراقب لخطوط السكك الحديدية ولم يكن خلال تلك المدة سعيداً وعندما تقدم به العمر نقلوه داخل القطار. كان يعمل عملاً شاقاً لا يستطيع معه أن ينام ولو لمدة ساعتين فقد كان يغيّر الخطوط ويعطي الإشارات ويتحمل مسؤولية كبيرة. قال لي: «حياة الكثيرين تعتمد عليَّ». «لم أكن أتصور ارتكاب خطأ واحد، فارتكاب خطأ واحد يساوي جريمة قتل جماعية». كان الهواء داخل المقصورة بارداً ومنعشاً. لقد انتقلت من الجو الحار جداً إلى البارد جداً. لم أقل له ذلك بل طلبت بطانية وقلت له. إنك الآن تعمل داخل القطار، هل أنت غير قلق من أن مراقباً للخطوط قد يرتكب خطأ في أثناء ساعتي النوم تلك؟».

- «لا أيها السيد، لأنه لن يكون خطئي، العمل داخل القطار أفضل كثيراً من واجب مراقب الخطوط في الخارج».

- «إذن أنت لا تخاف من أنك ربما تموت؟».

- «إن فكرت بالموت طوال الوقت فلن أستطيع العمل. والآن أيها السيد اسمح لي».

غادر إلى مقصورته لكي يلعب الورق مع زميله كما عرفت فيما بعد.

كنت أسمع حفيف هواء المكيف والكثير من اللهجات الأجنبية في هذه العربة. من مضجعي كنت قادراً على رؤية امرأتين أجنبيتين ترتديان الزي الهندي، غير أنهما لم تستطيعا أن تكونا مثل الهنديات على الرغم من محاولاتهما ذلك. كانتا أنيقتان جميلتان وكانت إحداهما ذات عينين زرقاوين.

الأولى: «كندية؟.

الثانية: كلا، أنا من تكساس.

الأولى: «ولكنك تضعين العلم الكندي على حقيبتك؟.

الثانية: العلم الأميركي وضعني في ورطة.

الأولى: اسمي فيرونيكا أنا من مكسيكو ستي.

الثانية: أنا ولّو من تكساس عبر الحدود. تصافحتا.

قالت إحداهما: «الشيء المخزي الوحيد في الهند على مرِّ الزمن كان القطار».

من قال ذلك؟ ولّو أم فيرونيكا؟.

كان رأسي يدق وجسمي يرتعش، ناديت على المراقب وقلت:

- «أرجوك، إنها باردة جداً».

لم يكن كلامي تشكياً، بل طلباً بسيطاً.

- «درجة الحرارة مثبتة مسبقاً أيها السيد».

- «هل تستطيع أن تفعل شيئاً للضوضاء على الأقل، عندي صداع مؤلم».

- «التكييف يحدث الكثير من الضوضاء، فهذه العربات قديمة أيها السيد وهذه العربة منذ أيام البريطانيين، لقد تم تثبيت مكيف الهواء في موضع صناديق الثلج في هذه العربات. هذه الأيام يحافظون على برودة العربات باستخدام قوالب الثلج. وعندما يقف القطار في محطة ما فإن المسؤولين عن التبريد ينقلون الثلج إلى الصناديق أيها السيد».

- «أرجوك إن رأسي ينسحق».

كانت ولّو وفيرونيكا تحملان هاتفاً خلوياً وبدا عليهما بأنهما قد طورتا صداقتهما بسرعة ولا أدري أيهما كانت المبادرة في ذلك أهي ولّو أو فيرونيكا أو ربما كلاهما. لقد كانتا تضحكان كثيراً. في البداية اعتقدتُ بأنهما تضحكان على فقر بلادي. غير أني كنت مخطئاً. كان الضحك لنسيان المصاعب التي

تلاقيهما جراء تعاملهما مع السكان المحليين، لقد ضحكنا كثيراً من المرافق الصحية والمراحيض في الثكنات.

مجرد الاستماع لهما جعلني أشعر بالشباب ثانية. دخل بائع الطعام إلى عربتنا، طلبت المرأتين بيضاً مسلوقاً، فقال لهما بأنه لم يعد لديه بيضاً وأن لديه البطاطا المقطعة فقط. اشترتا قطع البطاطا. قلت له: إنه من المؤسف أن لا يكون عنده بيض غير أنه ابتسم وقدم لي بيضة مسلوقة كاملة.

- «لماذا لم تبع الفتاتين البيض المسلوق».؟

- «أيها السيد، لديَّ بيضة واحدة وهما اثنتان ولا أستطيع اختيار من تحصل منهما على البيضة لذا قررت ألا أعطي أيًّا منهما البيضة».

نظرت إحداهما إليَّ، قمت بالترجمة من الهندية إلى الانكليزية. أخبرتها بوجهة نظر البائع بدقة وما أن أنهيت كلامي حتى أصابتهما نوبة من الضحك. وسألتني إحداهما:

- «من أي مكان في الهند أنت؟».

كنت كمن أضاع الكلمات.

- «أنا لست هندياً، أنا برازيلي».

ساد الصمت بعدها.

«أليس حذائي جميلاً؟ سيبقى بعدي مستمراً بالحياة، لن يحرق فأنا لا أحب أن أحرق فلا شيء مقدس في النار، وليس لي رغبة في أن أدفن بعد موتي. البارسيون يتركون أجساد الموتى للنسور تأكلها وهي تطير ليصبح الجسد لا على الأرض ولا في السماء. وفي بعض الأحيان تسقط نتفة من منقار الطير فتتمعج في الأرض وتنعشها كما تنعش النهر والشجر.

ما الذي سيحصل يوم أموت؟.

ستتصادم الغيوم مع قمم الجبال وترعد وبعده الصمت.

وما إن أموت فلا أريد العودة إلى هذه الأرض، فلا وجود للتناسخ».

«كانت لخمسة أو ستة منا لقاء مع قداسته في خرامشالا» قالت ولّو لفيرونيكا: قصَّ علينا الدالاي لاما قصة، قضى ناسك ثمانية عشر عاماً في أحد سجون الصين وأطلق سراحه بشرط ألا يعود إلى التبت، وعندما التقاه اللاما لأول مرة أخبره الناسك بأنه في خطر كبير وفي أوقات كثيرة لم يعتقد أنه يستطيع الالتزام بذلك. سأله اللاما ما نوع الخطر الذي هو فيه؟

أجاب الناسك بأن الخطر في فقدان الشفقة تجاه الأميركيين.

«قصة جميلة» قالت فيرونيكا. فطلبت منها ولّو أن تستبدل الصين بأميركا والتبت بالعراق. إنه لخطر عظيم يا فيرونيكا، خطر فقدان الشفقة تجاه الأميركان».

هذه المرة لم تضحك المرأتان.

عندما يتحدث الناس عن الدين والسياسة أتجه بأفكاري نحو الطعام، نحو السعادة في تناول طعام أعده الآخرون.

إن الفتاة جميلة حقاً.

ولّو أم فيرونيكا؟

ربما كلاهما.

ذهبتا إلى الحمام لمدة. عادت إحداهما مرتدية قميصاً كبير الحجم مكتوباً عليه: «السائح العالمي رقم 1» وتحت العبارة صورة تمثل الرئيس الأميركي.

بدأت الفتاتان بالضحك ثانية. كنت متعباً جداً، ضحكهما يذكرني بالضحك الكئيب لأهالي كشمير، إنهم حقاً مثل الجوكر ضمن ورق اللعب، فأنا أسمعهم في كل مكان ومن المستحيل الهروب منهم. ضحكات الكشميريين تجرحني أينما ذهبت. لقد كانت كشمير مكاناً جميلاً ونحن من جعل منها فوضى دموية. هل سيفقد الكشميريون أيضاً الشفقة تجاه الهنود؟ هل سأفقد الحنين والحب اتجاه أناس معينين؟

هناك أناس سكنوا ويسكنون تفكيري الوقت كله وقد حطّموني، لقد جعلوا مني ما أنا عليه اليوم، أنحني لهم وأشكرهم، غير أن الأكيد، هو أن هؤلاء الناس عملوا على تحطيمي. كانوا ضعفاء في إصدار الأوامر وكنت ضعيفاً في تقبلهم، كنت أحياناً، ومن أجل إرضائهم أفعل ما يحبون فعله وأتظاهر بأني أحب ما يفعلون. كان الرئيس كيشان يحب ركوب الدراجة ولكني لو أمكنني حينها لكنت أختار النوم أكثر فلقد كان هناك وقت قليل للنوم في الجيش.

أتمنى لو أني ملكت عقلي، عقلاً حراً، أتمنى لو أن حياتي كانت بعيدة عن التأثير. لقد كنت أشبه بالطفل وكانت أصابعي بأيدي اثنين أو ثلاثة من الناس المهمين يجذبونني لهذا الطريق أو ذاك.

بعد موت الرئيس كيشان لم أقرأ الصحف لفترة من الزمن، ولكن عندما فعلت ذلك لم أجد أي خبر أو قصة عنه بأي حال. لقد مات من أجل لا شيء. لم يعرض التلفزيون عنه شيئاً والصحافة والإعلام لم تقل للشعب شيئاً لهذا السبب فإني أعتقد بأن الرجل مات من أجل لا شيء.

من ناحية أخرى كانت هناك تقارير عن المقدم الذي نظم معارك وهمية على المثلجة وقام بتصويرها من أجل الحصول على وسام الجرأة. كذلك كانت الصحف مليئة بالحديث المستمر بخصوص خديعة التوابيت إلا أنه لم يكن هناك أي ذكر لقصة كيشان التي قطعها مقص رقيب الحكومة. لقد كان مصير كيشان مشابهاً لمصير الجنود والضباط الباكستانيين الذين ماتوا في الحرب. لقد أرسلتهم الباكستان إلى الهند على أنهم مقاتلو الحرية وعندما ماتوا لم تعترف بهم الباكستان جنوداً ميتين وقام الجنود المسلمون في قطعاتنا بدفن الجنود الباكستانيين القتلى لأن جيش العدوّ لم يقبل استلام جثثهم وقد تبنت الباكستان رواية من جانبها وأن ما قاله كيشان ذلك الصباح في خطابه فوق المثلجة كان هو الحقيقة ولكن كان يجب علينا أن نتبنى الكذب ولكن بعد محاولته الانتحار بدأ الناس يقولون بأنهم لم يكونوا يعرفونه على الإطلاق.

حتى أولئك الذين التهموا أكلاته بدأوا يقولون كيشان؟ من هو كيشان؟ لقد كان الأكثر جدية وإخلاصاً بيننا لكنه مات، ولم تفقد أي ساعة يد في بلادنا ثانية واحدة، لقد ولدته بلادنا من خلال البؤس والآلام ومن ثم رمته بعيداً. لم يقتل كيشان نفسه بل هي بلادنا التي قتلته. والآن هذا.... ما يقتلني.

كان سبب قراءتي للصحف ومشاهدتي للتلفاز هو معرفة رد فعل والديه ومحبيه، ليس من أجل التفاصيل التي أعرفها ولكن لأعرف شيئاً عن عائلته، سرت إلى المستشفى ورأيت الممرضة، كانت بردائها الأبيض، كانت ترتدي الأبيض دائماً، ولكن في ذلك اليوم كان للّون دلالة خاصة.

كانت تعرف بموته وتتوقع قدومي وسألتني إن كان كيشان قد ذكرها، فلم أجبها، غصّت بالبكاء وهي تمسك ذراعي فقلت:

- «لقد تحدث عنك كثيراً، لقد تحدث عنك فقط».

- «هل كان الحريق حادثاً؟».

- «نعم - كذبت عليها - كان حادث مطبخ».

«أي طريقة للموت؟».

كانت تبكيه بمرارة ولكني أعتقد أن لا أحد يجب عليه بكاءه فقد فعل ما كان يجب أن يفعله تماماً. لقد أعَّد قائمة طعام كاملة من أجل المثلجة، لقد تجرأ كيشان على مساءلة العالم. لقد سأل عن فضيحة توابيت سياشين وفضيحة الأرزاق التي كلفت مليار ونصف المليار روبية. لم أخبرها بأن المقدم والعقيد والرائد والضباط الآخرين المتورطين في هذه الفضائح لم تجرِ محاسبتهم بل إنهم حصلوا على تقاعد مبكر مع كامل مستحقاتهم والآن يديرون الفنادق والأسواق ويركبون سيارات الهمر الصفراء واثنان أو ثلاثة منهم يمثلون بلادنا في البلاد الأجنبية كسفراء. أليس هذا أكبر أمر مخجل على الأرض؟ أن يُنسى الرجل الذي أراد إصلاح الجيش؟ ولا يعرف حتى؟ والرجال الذين دمروا الجيش يستلمون كل شهر صكوكاً بمبالغ عالية؟ لماذا ولدت في هذا البلد؟

السرطان الذي ينمو في داخلي لم أكن سبباً في وجوده، سببه هذه البلاد وعلى الرغم من ذلك لا تخجل مني. هناك أصوات في داخلي، أصوات أناس قريبين إليّ استمروا بالقول بأني شخصياً مسؤول عن المرض الذي أعانيه لكنه ليس غلطتي على الإطلاق.

سرت باتجاه ردهة النساء، لم يكن أحد بداخلها، لقد كانت الردهة خالية حتى من حذاء وأشياء آرم. وقفت إلى جانب سرير آرم وقد اختفى اسمها ورقمها عن الحائط الذي ظلت الحشرات تتسلقه. أخبرتني الممرضة بأن الأسيرة قد نقلت إلى مكان ما.

«أي مكان؟».

لم تكن تعرف وقالت:

- «إنهم يبحثون عنك».

- «عني؟».

- «يجب أن تحضر في مكتب المقدم».

كان الضباب ينزل فسلكت الطريق المعبد للوصول إلى مكتب الإدارة العسكرية. كان المقدم لوحده في الغرفة، لذا لم أنتظر طويلاً. أعلمهُ مراسلهُ بقدومي على الرغم من أنه لم يرفع رأسه فقد دخلتُ على أية حال، كانت قبعته فوق المنضدة وهو يقرأ بملف سميك.

- «تحيا الهند، سيدي».

لم يرد على التحية. شاهدتُ آثاراً دائرية لأقداح الشاي والقهوة على المنضدة.

سعلت، وفجأة، رفع رأسه، نظر إلي وطقطق أصابعه وطلب من الساعي أن يجلب «الشيء»، نظرت إلى سترة المقدم المزراة وشعره المتموج والزيت الذي يلمع على تموجات شعره.

فتح الساعي الدولاب الذي في الغرفة وسحب «الشيء».

- «أدره».

قام الساعي بإدارة جهاز التسجيل العائد لي.

- «لقد صادرناه من الأسيرة في ردهة المستشفى».

- «سيدي».

- «هل أعطيت الأسيرة هذه الموسيقى الأميركية».

- «موسيقى ألمانية، سيدي».

- «نعم، نعم أعرف كانت الأسيرة تدير الموسيقى، لماذا أعطيتها ذلك؟».

- «سيدي، اعتقدت يا سيدي بأن الموسيقى ستقلل التوتر. لقد طلب مني الجنرال كومار أن أجري التحقيقات مباشرة».

- «لقد انتهت التحقيقات يا كربال».

- «سيدي».

- «لقد كان هذا خرقاً جاداً للأوامر يا كربال وأنا أحذرك لآخر مرة. لقد عرف الجنرال كومار والدك كما عرفته أنا أيضاً. لقد كان من ألمع ضباطنا ولقد تم مسامحتك لأجل والدك وهذا يجب أن لا يحدث ثانية، أتفهم ذلك؟».

عاد إلى الملف الذي بين يديه. نظرت إلى آثار أقداح الشاي والقهوة على المنضدة وإلى قبعته وسعلتُ.

- «هل ما زلت هنا؟».

- «سيدي، أين المرأة يا سيدي»؟

- «المرأة؟».

- «أسيرة العدو، سيدي؟».

- «إنها ليست هنا».

- «سيدي».

- «انصرف».

الآن أنا أعرف الموسيقى التي سمعتها. لقد أخذها الرئيس كيشان من الرئيس مولر في السفارة الألمانية في أثناء تدريبه لكنه لم يكن يعرف عنوانها ولسنوات عديدة لم أعرف عنوانها أنا أيضاً. قبل سنة واحدة فقط عرفت عنوان تلك الموسيقى.

ذهبت إلى السفارة الألمانية في دلهي، أرسلتني الفتاة الشقراء في السفارة إلى دار كوته حيث المكتبة الموسيقية.

حاولت....

طلبت مني مسؤولة المكتبة إعادة المحاولة...

أعد المحاولة مرة أخرى....

أعدها ثانية....

وثانية....

قلت لها: «اللحن على الأغلب مارشاً عسكرياً». وأعدت ترديده.

- «يبدو لي أن هذا اللحن تركي، ليس هناك شيء من هذا، في الموروث الألماني لا يوجد مثل هذا».

- «لكني سمعت هذه الموسيقى». تحركت يداي إلى الأعلى في الهواء ثم إلى الأسفل ثم إلى الأعلى ووجدت نفسي أتواصل بالضبط كما كان كيشان يفعل فوق المثلجة وما أن غنيت أو حاولت غناء تلك الموسيقى.... حتى قفزت من مقعدها مرددة «التاسعة».

- «التاسعة؟».

- «بيتهوفن».

- «باي - توه - بهن؟».

- «بيتهوفن».

- «بيتهوفن».

- «نعم».

- «هل كتب موسيقى مثل تلك؟».

- «كلا، لقد قضى ثلاثين عاماً لكي يكتبها». «لقد ارتكب أخطاءً عدة وفي النهاية وصل إلى الكمال».

أعطتني سماعتي أذن واستمعت إلى الموسيقى داخل كابينة.أخبرتني من أين أشتري أعمال بيتهوفن الموسيقية.

- «لكني مهتم بالتاسعة فقط».

- «ربما».

قدمت لي كتاباً، قرأته، لقد كان الرجل أصم بالكامل عندما كتب تلك القطعة الموسيقية. ببساطة لم أصدق ذلك، إن هذا يشبه طباخاً فاقداً لحاسة الشم والذوق ويحاول أن يبتكر صحناً من الطعام يسعد ملايين الناس. بقي ذلك في فكري طوال هذه السنين. بقيت معي «التاسعة» إنها ليست مجرد موسيقى، إنها الواقع. كل حياتي المحطمة مطمورة فيها. أنا لا أعير اهتماماً لكونها موسيقى ألمانية، فإني أموت لكني أستمع إلى الموسيقى، خوفي ورعبي مسراتي وأحزاني وكل شيء مدفون في هذه القطعة. «التاسعة» هي «الواقع» تخترق وتتخلل جسمي كالعطر وكالطعام. وبعد، إنها صلبة وشاملة وواسعة مثل المثلجة تمتصُّ وتجزِّئ وتذيب وبعدها تصبح هواءً. عندما أستمع إلى هذه الموسيقى ترحل بداخلي أماكن عدة وأزمنة عدة وأصوات عدة. أصوات تخرسني.

وأنا مستعد لأن أقول لأول مرة بأن «التاسعة» هي الواقع وهي القبلة وهي أقوى وألذ قبلة للعالم بأجمعه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(22)

في تشرين الثاني عينت دلهي الجنرال كومار محافظاً لكشمير. لقد كان الاختيار جيداً لهذا الموقع. فقد كان بطل كارجيل وبطل مثلجة سياشين. كانت الدولة بحاجة عاجلة إلى جندي بأخلاق سيّد على قمة السلطة لاستعادة النظام. رتب الجنرال أن يأخذني والحدائقي آغا معه إلى (راج باهافان) مقره الجديد في سارنجار. كان ذلك شرفاً عظيماً. لو كان كيشان موجوداً لشعر بالفخر وهو يراني أشتغل في أعلى مطبخ في كشمير.

في ليلة تعيينه ألقى كومار خطاباً من الراديو والتلفاز قال فيه:

إخوتي الهنود،

هذه الأرض المضطربة الجميلة مهيأة للسلام وإن واجبنا لن يكون سهلاً فأمامنا الكثير من التحديات ولكننا معاً سنجد حلاً. وفي رأيي أن أول شيء يجب معالجته هو قضية الحكم والسلطة، كيف سأستخدم السلطة كمحافظ؟ دعوني أعيد التأكيد على أني سأعمل بأسلوب واضح وعادل وإنساني، سأحكم بالعقل وبالتعاون وأضع نموذجاً ليس فقط للدول الفقيرة بل للدول الغنية أيضاً... لقد قال توماس جفرسون مرة: (أقل قوة نستخدمها ستصبح عظيمة يوماً ما) أقدم تهانيي لكم جميعاً متمنياً لكم السلام والرخاء... تحيا الهند.

لقد تركت كلمته انطباعاً عظيماً عندي وقد عملت بكل جهدي في الأيام القليلة الأولى لإرضاء الجنرال كومار. وفي أحد الأيام طلب مني بشكل خاص إغناء مأدبة زفاف ابنة المحافظ السابق. كان اسمها (بينا) وكانت ذات جمال مذهل وثقافة عالية وقد قضت سنوات عدة في لندن ونيويورك وستتزوج من شاب هندي عاش هو أيضاً في نيويورك ولندن. كلاهما عاد إلى الوطن لأنهما لم يوافقا على أن يعاملا كأناس من الدرجة الثانية في دولة أجنبية اهتمت بينا اهتماماً كبيراً بالفن الهندي والعمارة والطعام وكذلك عملت مع قسم السياحة لإعداد ملفات لامعة للزائرين الأجانب لقد أعطتني في ثاني لقاء كتيباً أعدته بنفسها عن مقر إقامة المحافظ.

أتذكر رائحة الخشب داخل مبنى راج بهافان أكثر من أي شيء آخر خصوصاً السقوف ذات النقوش الرائعة وغرفه الخمس والخمسين وشرفاته المضاءة وستائره الحمراء والثريات الكرستالية. كان من السهولة أن يضيع الإنسان في متاهات المبنى. دواخل المبنى صنعت بالكامل من خشب الجوز وأرز الهيمالايا وخشب الورد، فيما كان المطبخ كبيراً وطلق الهواء يملؤه الضوء دائماً. كان من الممكن رؤية بقايا حديقة الموغال على منحدرات الجبال من النافذة الغربية وكذلك المنزل القديم للجنرال كومار.

كان كتيب بينا السياحي عملاً أنيقاً وكلما أردت وصف القصر أتذكر هذا الكتيب. بالنسبة لي فإن وصف الأبنية أصعب من وصف وجوه الناس. الناس تخفي أنفسها وراء وجوهها، لكن المباني تخفي ما هو أكثر.

مائدة الزفاف كانت إنجازي الأفضل حتى ذلك اليوم. التقى المحافظ السابق وابنته بي قبل العشاء لكي نقرر قائمة الطعام وقد استخدمت أسلوباً تكتيكياً لإفهامها بأن معظم اختياراتهما كانت خاطئة وكلما أصرَّ المحافظ السابق على صحن معين كانت بينا، مثل روبيا، تغمز لي بعينها وتبتسم كأنها تريد أن تقول لي أن أتجاهله فإنه يهتاج بلا سبب.

أخذتني بينا جانباً وقالت لي: إذا كنت أستطيع أن أعطي المأدبة طابعاً بيزلياً مزركشاً فإنها ستفعل أي شيء لأجلي. لم أكن أعرف ما معنى البيزلي فقالت بأنه مشابه لما هو موجود على بلوزتها فقلت لها: ذلك الذي يشبه شكل الدموع أو المانغو أو أي شيء. قالت لي: تلّمسه، لقد كان ناعماً جداً يختلف في نعومته عن الحرير الذي يشتريه الناس من المحلات. قالت: إنه يدعى «حرير السلام» فإنه يصنع دون قتل دودة القز.

في المطبخ فكرت بالبيزلي لوقت طويل وشكرت بينا لأني وجدت أخيراً اسماً لرسوم التطريز التي رأيتها على شال آرم، لقد كان شالها مليئاً بالبيزلي وليس على جوانبه فقط.

يمكن مشاهدة بقايا حدائق الموغال من شباك المطبخ، وهي لسبب لا أعرفه، لها ارتباط بالبيزلي. في أثناء قيامي بالطبخ كنت أسائل نفسي كيف يمكن لمثل هذا الجمال وهذه الأشكال البالغة الوحشية أن تتعايش مع بعضها؟ كنت أفكر بجمال الحدائق في كشمير والمغول الذين بنوها. لقد أخبر مولر كيشان مرة بأنه بالإمكان تمييز ومعرفة حقائق الأشخاص من طعامهم. كيف يمكن لأناس يأكلون أطيب وأشهى الأطعمة اقتراف أبشع الجرائم.

قبل يومين من الزفاف فرض حظر التجوال على المدينة بسبب عنف المسلحين فقد انفجرت القنابل والعبوات الناسفة في المدينة وقد كنت بحاجة إلى برغوث البحر والسمك ومواد إعداد الشوربة الإيطالية والعديد من الأشياء الأخرى. لقد كانت بينا منزعجة إلا أن النقيب الذي رافقني إلى المدينة طمأنها وأمر عجلة الجيب بمرافقة سيارة المحافظ السوداء التي ركبت في مقعدها الأمامي فيما ركب مساعداي في الخلف وسارت عجلتان عسكريتان أمامنا ومثلهما خلفنا. بالطريقة هذه ذهبت إلى السوق للتبضع من أجل المأدبة. كانت المحلات مقفلة بسبب الحظر لذا طرقنا على أبوابها لدعوة أصحابها الواحد بعد الآخر وقد طمأنتهم بأننا لن نؤذيهم وعندما كانوا يرفضون استلام أثمان المواد كنت أصر على ذلك بأي طريقة.

وفي يوم الزفاف قَدِم رئيس الوزراء بنفسه بالطائرة إلى راج بهافان، كما حضر وزير الدفاع وكبار ضباط الجيش والشخصيات المرموقة. حضر أيضاً السفير الأميركي الأشقر وسكرتيرته السوداء ومدير البنك الدولي وسمح لصحفيي الحكومة فقط بالحضور فالمناسبة لم يجرِ الإعلان عنها. بعد انتهاء وجبة العشاء طلب رئيس الوزراء تقديمي إلى الحضور، فظهرت ببذلة مميزة تلائم هذه المناسبات، سرت باتجاه غرفة الاستقبال، متوتر قليلاً، إلا أن رئيس الوزراء جعلني مرتاحاً عندما روى طرفة سيخية ضحكنا لها جميعاً. ثم قال:

- «أحسنت صنعاً كربال جي، يوماً ما وعندما لا يكون المحافظ موجوداً سنقوم باختطافك».

بعد ذلك قدم العديد من الضيوف مقاطع شعرية كما ألقى رئيس الوزراء شعراً كتبه بنفسه وقام أحد الموظفين الحكوميين بالترجمة وقال رئيس الوزراء بأنها أفضل ترجمة لشعره من الهندية إلى الانكليزية وأيده الضيوف الأجانب بتصفيق عال.

وقد قدم المحافظ أغلى أنواع الشراب الفرنسي تكريماً للشعر الذي ألقاه رئيس الوزراء الذي كلما شرب أكثر كلما تغير وبدا مختلفاً عن صوره في المجلات.

كان أمراً فخماً لأن عدد الضيوف زاد عن الثلاثمائة وكان علينا نصب خيمة لغسل الصحون في المنطقة المحاذية لقاطع الخدم وقد استأجرنا خدماً مؤقتين قمنا بالتأكد منهم من الجانب الأمني وهل هم مسلمون أم غير مسلمين وكان أكثرهم من فقراء المسلمين وقد وضعنا مئة منهم بالانتظار. أعددنا مائدة احتوت على أفخم أنواع الطعام المحلي والعالمي، ما زال ذلك الإنجاز حياً في ذاكرتي وكأنه جرى بالأمس. تم استقدام المشرف على بار المشروبات من بومباي مع البراندي الانكليزي الخاص. وصل نجوم بولي وود ومدت السجادات الحمراء على الممرات. وكان الكاهن الهندي يحمل شهادة الأستاذية باللغة السنسكريتية وقد استبدلت بينا بذلاتها ثلاث عشرة مرة. وقد دارت هي وعريسها حول النار سبع مرات. حمل الهواء رائحة الزواج الملحمي والأوراد في كل مكان. كان باب المطبخ مفتوحاً وسمعت وقع خطوات ومن خلف الستارة رأيت المحافظ المغادر والمحافظ الجديد يرشدان الضيوف المهمين إلى دولاب الأقداح في غرفة الاستقبال. أشار الجنرال كومار للصورة المشهورة للحرب الهندية - الباكستانية سنة 1971.

في الصورة جلس الجنرال الهندي آورورا إلى جانب الجنرال الباكستاني نيازي مباشرة بعد هزيمة الباكستان وقيام الهند بأسر تسعين ألف جندي. كان الجنرال نيازي يوقع وثيقة الاستسلام.

- «كنت حاضراً في أثناء الاستسلام». قال الجنرال كومار: «لقد كان الجنرال نيازي ذليلاً سيدي».

- «ما الذي حدث مباشرة بعد الاستسلام يا كومار؟».

- «لقد نزع الجنرال نيازي رتبته وأفرغ مسدسه وسلمه إلى جنرالنا المنتصر آورورا».

- «ولكن كيف وصل المسدس إلى هنا؟».

- «لقد عينني الجنرال آورورا أميناً على المسدس سيدي، وهو ما زال سلاحاً نارياً موثوقاً به».

- «موثوقاً أو غيره، قال رئيس الوزراء بجد: هذا المسدس يجب أن يذهب إلى متحف الحرب في دلهي».

ابتسم الجنرال بلطف وفتح الدولاب الزجاجي وتنقل المسدس بين أيادٍ عدة.

قال رئيس الوزراء وهو ممسك بالمسدس: «أينما يكون السلاح فهناك مشكلة».

- أجاب المحافظ السابق: «لكننا نعرف الطريق الفعّال لاحتوائها».

- علق الجنرال كومار المحافظ الجديد: «إن أهل كشمير غير مرتاحين من دلهي سيدي».

- قال رئيس الوزراء: «حسناً ونحن أيضاً غير مرتاحين منهم».

ضحك الجميع بعدها وتم تقديم الشعير المنقوع.

بعدها لم أتمكن من رؤية وجوههم فقد توجهوا إلى قاطع الحلوى التي لم تجهز بعد. كانت بينا قلقة بشأن قدرتي على تحضير الحلوى الإيطالية ولكني أكدت لها قدرتي على ذلك وقلت لها: «بينا لا تقلقي، سأقوم بإسعادك، سأجعل جميع الضيوف الثلاثمائة سعداء فقد علمني الرئيس كيشان أطيب أنواع الحلوى الإيطالية التي تشتهر بها مدينة فلورنسا. إنها التوسكاني».

وقد كانت معدة في وقتها وأذهلت كل من تذوقها.

بعد الزفاف ومائدته غادرت بينا (السيدة راماني) مع زوجها لقضاء شهر العسل في كولمارك. كولمارك تعني «مرج الورد» باللغة الكشميرية. قبّلها والداها وشقيقها. كانت ترتدي فستاناً أزرق مطرزاً وبدت رائعة الجمال. قدمت لي الشكر بأن طبعت قبلة على خدي وأوصت والدها المحافظ السابق بأن أُرسل بإجازة إلى مدينتي لأكون مع أهلي. في تلك المرحلة لم أكن أرنو لأي شيء أفضل من ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(23)

أنا مثل حبة بازلاء. هناك منطقة صغيرة بحجم حبة البازلاء في أدمغتنا تقع خلف العين مباشرة. العاطفة والحنان يكمنان في هذه المنطقة، وعندما تتلف هذه المنطقة يسهل علينا كثيراً تعذيب الآخرين، وبمقدار أقل تعذيب أنفسنا.

في أثناء الإجازة في دلهي لا أستطيع التوقف عن التفكير بكشمير كنت أغلق عيني وأحاول إلهاء نفسي ولكن كلما حاولت أكثر كلما زادت قوة انعكاس الصور أمامي.

متى ستتزوج؟ سؤال كانت تلقيه أمي عليَّ، يزعجني ويحزنني. كل ما كان أعمامي وعماتي يرغبون بسماعه هو حكايات بطولة جنودنا على الحدود، ولقد وجدت بأن حرارة حزيران لا تحتمل وبعوض حزيران لا يُحتمل ليلاً وصور الجبال والجوامع وراج بهافان تقلق نومي. أفكر أحياناً بآرم وأحياناً تملأ أحلامي صور جمال الوادي وأصوات الموسيقى الصوفية. كنت أرى الكشميريات بشالاتهن يطحنَّ بذور الفلفل المجففة فأقطع عطلتي بسرعة وأعود على متن هذا القطار.

خلال مدة غيابي غدت سرنجار منطقة حربية تهتز شوارعها من العجلات العسكرية وبلغ التسلح ذروته ثانية.

كان العدو يدرب المزيد من الرجال ويغسل أدمغة المزيد من الفتيان، الموجة بعد الموجة يعبرون إلى كشمير لتفجير القنابل في المناطق العامة وحتى داخل معسكرات الجيش. خمسون فوجاً مقاتلاً حركهم الجيش شمالاً لاحتواء العصيان وأصبح هناك جندي لكل أربعة مدنيين غير أن الأمور كانت تسير باتجاه الأسوأ. خلال تلك الأيام الكالحة لم يكن أحد من المسلمين في خدمة الجنرال في راج بهافان سوى الشيخ الحدائقي آغا.

كان الوقت باكراً جداً ولم أشعل النار في المطبخ بعد عندما سمعت طرقاً على الباب، يدٌ مكرمشة كانت تطرق الباب الخلفي، فتح الباب وإذا بالحدائقي آغا واقفاً أمامي، كان فمه فارغاً من الأسنان وقد ارتدى غطاء رأس صغير فوق جمجمته، كانت جذامة الحشائش تغطيه وقد لف قطعة صوف سميكة حول رقبته وكالعادة لم يدخل وسألني:

- «هل لديك شيءٌ ألمِّع به هذا» كان يحمل بزباز النافورة الحديدي وقد غطته طبقة خضراء من الصدأ.

- «ادخل إن الجو باردٌ».

أدهشني قيامه بخلع حذائه.

- «تستطيع البقاء بها».

تجاهل طلبي ودخل المطبخ بقدمين عاريتين. لقد كانت أرضية المطبخ باردة جداً فكان يقف على رؤوس أصابع قدميه. قال

- «لا مشكلة في ذلك».

- «ربما يفيدك هذا». ناولته زجاجة من الحامض الذي أستخدمه عادة في تلميع حوض غسل الصحون.

- «جيد» قال ذلك والتقط قطعة قماش هرئة... وبدأ بتلميع البزباز. لقد جعلني وجوده قلقاً وظل يدمدم بالشعر وهو يلمِّع.

- «الآن تستطيع أن تذهب».

- «لا مشكلة» ولم يغادر وسألني:

- «هل عندك دقيقة من الوقت؟».

- «يجب أن يكون ذلك بسرعة».

- «لماذا نزعت عمامتك؟».

- «نعم، إن شعري قصير الآن».

- «ماذا سيقول والدك؟».

- «إنه ميتٌ. آغا. إنه مدفون في المثلجة».

- «الآباء لا يموتون أبداً».

رفعت يدي إلى وجهي. لقد اختفت لحيتي الآن وخداي ناعمان ولم تعد العمامة على رأسي غير أني أشعر بثقلها، لقد كانت جزءاً كبيراً مني وقد أزلته. نظرت إلى يديَّ، إلى كل عضلات يدي وإلى كل مسام جلدي، رأسي إبهامي وإصبعي الأوسط. الثنيات والخشونة والجروح، كانت يداي تتجمدان وبدأتا ترتجفان. أشعلت عود ثقاب ولم يستمر فساعدني آغا في إشعال الموقد.

- «هل ما زال لديك دقيقة؟».

- «أرجوك كُن مستعجلاً».

- «لا مشكلة».

- «نعم، نعم أسرع في الكلام».

- «لقد اختفى ابني قبل يومين».

- «سيعود ثانية».

- «كلا».

- «هل أصبح مع المسلحين؟».

- «ببساطة اختفى».

- «أنا آسف يجب أن أعود إلى عملي».

أصبح البزباز لامعاً يعكس وجه آغا.

- «لا مشكلة».

قال ذلك وتحرك ببطء نحو حذائه وأغلق الباب خلفه فضرب تيار هواء بارد خداي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فيما بعد، في المساء وبينما أنا أعد العشاء، لمحته جالساً عند نبات القطيفة في الحديقة يدخن وأنفاسه نتنة بالنيكوتين.

- «لا مشكلة في ذلك». قال لي وكان يبدو عليه الموت أكثر من الحياة.

- «ما الذي تعنيه، أتعني ابنك؟».

- «لقد ذهب».

- «كلا، كلا، ولكن كيف تشعر بالفعل، ليس فقط تجاه ابنك، بل تجاه الوضع في كشمير؟».

- «الأشياء السيئة متوقعة في أثناء الاضطرابات. لِمَ تنتشر الأشياء السيئة في أجمل مكان على الأرض؟ الناس يتحولون إلى مجانين هنا، المكان سيصبح مستشفى للمجانين».

- «أين تشك أن يكون ابنك؟».

- «يجب أن يتوقفوا عن تعذيب أبنائنا؟».

- «من هم؟».

- «الجيش».

- «أين؟».

- «في الفنادق».

- «هل تمزح آغا؟».

- «لا مشكلة».

أزعجتني كلماته كثيراً، وجدت من الصعوبة أن أطبخ أو أنام.

كان ذلك صحيحاً فقد احتل الجيش العديد من الفنادق في سرنجار، لكنها مقرات لإقامة ضباطنا ومقاتلينا ولم أتخيلها مواقع للتعذيب. قررت أن أزورها فجزء من تفكيري يريد أن يخطئ آغا. باستثناء بعض الفاسدين فإن جيشنا كان على العموم جيداً. الطريق الوحيد أمامي لأن أحصل على إذن

بدخول هذه الفنادق بأن أبادر باقتراح إلى الجنرال لغرض تفتيش المطابخ في كل الفنادق التي يحتلها الجيش وقد سرَّ الجنرال بهذا المقترح وأعطاني الإذن بالتفتيش.

أكثر من ستة وثلاثين فندقاً يعودون إلى الجيش. كان عليَّ الاتصال بقسم السياحة لمعرفة أماكنها بالتحديد لكي تقلني عجلة عسكرية إلى الفندق فركوب الدراجة لم يعد آمناً، أذهب للتفتيش دون علم أحد وأصل مباشرة قبل توزيع وجبة الطعام لأتذوقه وأفتش أدوات الطبخ وأحاول أن أتملص لبضع دقائق للتأكد من الغرف بسرعة.

لقد كان آغا مخطئاً.

لقد كان الجيش يقوم بتصوير الأفلام. كل شيء كان يجري بوضوح داخل الفنادق أو خارجها. كانت جميع هذه الأفلام تحكي البطولات التي حققها جنودنا ضد جيش العدوّ الذي حاول احتلال واستعمار بلادنا. من خلال مشاهدتي لعمليات التصوير في أماكن عدة فهمت العلاقة بين الضوء والسينما وكنت على استعداد لأن أقارن عملية صناعة الفيلم بعملية طبخ الطعام، صحن الطعام لا يبقى لأكثر من وجبة إلا أن الفيلم يدوم إلى الأبد. بعض الناس تتوقف عن أكل اللحم بعد أن يشاهدوا خروفاً يذبح إلا أنه لا أحد يتوقف عن مشاهدة الأفلام بعد أن يتابع عملية تصويرها. شاهدت المئات من الرجال الممثلين يقومون بأدوارهم، كنت أبحث وأبحث وأبحث من مكان إلى آخر. ولكن لم أكن أبحث عن الرجال، كنت أبحث عن شخص واحد فقط. آرم.

من قسم السياحة حصلت على أسماء جميع الفنادق التي في الوادي وزرتها جميعاً واحداً واحداً ولكني فشلت في العثور عليها.

بعدها حدث شيء ما. لم يخرج الجنرال بجولته الصباحية بسبب الأمطار. وعندما توقف المطر خرج الجنرال وجلس على المقعد الكبير في الحديقة وأمر بجلب الشاي. من خلال شباك المطبخ كنت أراقب كل شيء. أخذت المربية الشاي والصحيفة اليومية إلى الحديقة. كنت قد أضفت الزنجبيل إلى الشاي. أشَّر الجنرال للمربية لكي تترك الشاي على المقعد، فَعَلت ذلك فقال لها الجنرال: «أرجوك اطلبي من آغا أن يأتي».

ذهبت إلى طرف الحديقة ونادت على الرجل الذي كان يقلم الأغصان. وقف وهرول مسرعاً باتجاه الجنرال.

- «سلام أيها السيد».

- «آغا كيف حال الحديقة؟».

- «لقد أزهرت البيفونيا الاستوائية وتم إصلاح بزباز النافورة العاطل لكنه لم يعد كما كان في السابق».

- «شيء أكثر أهمية؟».

ظلَّ آغا مطرقاً بنظره نحو الأرض.

- «لقد مات ولدك آغا» قالها الجنرال بصوت عال.

بقي الحدائقي ثابتاً في مكانه.

- «هل تسمعني؟».

استمر الحدائقي في مكانه لا يتحرك.

- «إنك حتى لم تُخبر عن موته».

وضع آغا وجهه بين يديه.

- «أريه الصحيفة» قال مخاطباً المربية «إنه لا يقرأ ولكنه يستطيع أن يعرف الصورة».

تطلع آغا إلى الصفحة الأولى.

«انظر إلى ابنك، هل هو في الجنة الآن؟». ما بين ليلة وضحاها جعل منك أباً لشهيد. سبعة وثلاثون شخصاً داخل محطة الحافلات، آغا - كلهم كشميريون».

- «لقد مات ابني أيها السيد».

- «كانت الحافلة ستغادر إلى كشمير الباكستانية التي تبعد نحو ستة وخمسين ميلاً. زرع ولدك قنبلة فيها».

«انفجرت في أثناء قيامه بذلك وانتهى كل شيء».

- «أيها السيد....».

- «من هذا المقعد اعتدت أن أشاهد ابنك، قبل عدة أشهر يسقي أشجار الحديقة وكان مسلوب الإرادة لا يعرف ما يفعل».

فتح الحراس خارج بوابة راج بهافان البوابة ودخلت الممرضة التي تعمل في المستشفى العسكري وركنت دراجتها قرب الجدار، التفت الجنرال وشاهدها من فوق كتفه وهي تسير وتدخل المنزل.

- «ستفقد مأواك يا آغا».

- «كلا أيها السيد» نهض واقفاً.

- «إن الجيش يخشى على حياتي، يجب أن ندعك تغادر».

- «لكني أيها السيد لست كابني».

نهض الجنرال واستدار ونادى على حراسه فركضوا باتجاهه.

- «تحدثوا مع آغا؟».

لم يقبل آغا أن يغادر فأجبره اثنان من الحراس على حزم أشيائه وألقوه خارجاً، غادر وقدماه تسحق الأوراق الحمراء والصفراء الملقاة على الطريق الذي سلكه.

مشى الجنرال إلى البوابة ونظر إلى المنعطف لفترة طويلة حتى اختفى آغا.

فيما بعد، دخل الجنرال المبنى وصعد السلم الذي فوق المطبخ وسار ببطء خلال الممر شبه المظلم. جلس في غرفة النوم على كرسي غير بعيد من اللوحة الكبيرة المعلقة على الجدار وكانت المرأة المتوفاة في الصورة تنظر إليه.

قدمت له الفطور في غرفة النوم.

كانت ابنته مستلقية في الفراش متبعة نظام حمية خاص. كان عليَّ أن أعد نوعين مختلفين من الطعام. فحصتها الممرضة. اقترب الجنرال بكرسيه من روبيا وفحص نبضها.

- «ما الذي تتمناه ابنتي؟».

- «بابا، أريد أن أكبر بسرعة».

- «وماذا ستكونين عندما تصبحين كبيرة؟».

- «إمبراطوراً».

- «إمبراطوراً أم إمبراطورة؟».

- «إمبراطور».

- «صاحب المعالي» وأدى التحية لها.

- «بابا، سأقوم باختطاف الناس».

- «ومن هو الذي سيقوم معاليه باختطافه؟».

- «أنت يا أبي».

صمت الجنرال للحظة وضحك بعدها. كونه محافظاً، كان مشغولاً بالعمل والسفر جعل الفتاة تشعر بأنها محرومة من وجوده. كانت روبيا طفلة وحيدة، كبرت والآن ستتزوج وأنا سعيد من أجلها.

أنا في القطار لأني سعيد من أجل روبيا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(24)

إنني محاط بالمدنيين في هذه العربة, ما الذي جرى لي بالتحديد؟ «إن الورم موجود في المنطقة المسؤولة عن الكلام في دماغك»، قال لي الطبيب ذلك.

لن أكون بعد الآن قادراً على تلفظ كلمات معينة بشكل صحيح ولكن أستطيع تهجئتها.

بعد أيام وجدت أن آغا قد نسي مذياعه في راج بهافان. كان قد حزم أشياءه بسرعة يوم إبعاده. وجدت المذياع مفتوحاً في غرفة غسل الصحون وحفظها. كان آغا الكشميري الوحيد ضمن فريق الخدمة ولا أحد يعرف أين كان يعيش.

كانت بقايا طعام على البدن الفضي للمذياع. آغا، أيها الريفي، لماذا لم تغير بطاريات المذياع فإنها لم تعد قوية لتأمين استقبال جيد. ولكن في الثقب الأسفل وجدت ملاحظة صغيرة كتبت باللغة الكشميرية. لم يكن آغا يعرف القراءة والكتابة وعليه لا بدّ أنه قد أملاها. ملاحظته قادتني إلى جناح الضيوف في الطرف البعيد من مجمع راج بهافان.

كان مقراً للإقامة الصيفية للبريطانيين والآن يستخدم مقراً لإقامة كبار الضباط الضيوف. يقع المبنى بمواجهة البحيرة وفي أعلاه بالكونة اعتيادية. ملاحظة آغا قالت بأن الاستلام يتحسن في الأعلى ويكون أفضل في الأسفل. وكما توقعت ساء الإرسال أكثر وأكثر.

الطابق السفلي كان نظيفاً جداً وليست فيه ذرة غبار واحدة. صور كبيرة لستة أو سبعة محافظين سابقين كانت تنظر من الجدران البيضاء كالثلج. أطفأت المذياع ودخلت الغرفة الأولى التي كانت تسمى بغرفة هوسيان وقد خصصت بالتحديد لرسوم ولوحات م.ف. هوسيان عن الخيول. كانت الأقمشة المستخدمة للرسم كبيرة جداً بقياس (x128) قدم تلامس الواحدة منها المصابيح المعلقة على الحائط. شعرت بالصغر أمام زرقة البحر وحمرة الخيول - المرتفعة عالياً على قوائمها الخلفية بدت وكأنها حية أمامي. في الجامعة أخبرتنا الأستاذة بان هوسيان كان أفضل رسام حديثٍ في البلاد وإن أعماله معروضة في المعرض الوطني ولا أحد يعرف لماذا تملكته الخيول... لقد علّم نفسه بنفسه وأن حياته الخاصة غريبة الأطوار مثل أعماله.

كان هوسيان يمشي حافياً دائماً ليس داخل المنزل بل خارجه أيضاً. حتى في شوارع بومباي الحارة والمزدحمة كان يمشي حافياً، هكذا بالضبط كان يصل مطاعم الخمسة نجوم في الفنادق والسفارات الأجنبية والمطارات وحتى الأندية البريطانية. كان لديه كل المال لشراء جميع معامل الأحذية حول العالم ولكنه كان يجتنب الأحذية وكأنها معارضون أجانب. لماذا أنت كذلك؟ سأله أحد الصحفيين مرة. فأجابه: «عندما ألبس حذاءً أشعر بأنني أتناول عشائي مع أناس لا أقصد صحبتهم».

واقفاً أمام الخيول، خلعت حذائي وجواربي فأصبحت قدماي قادرة على التنفس ثانية. شعرت بالارتباط ليس باللوحات بل بالرسام أيضاً. متى يعرف الرسام بأن لوحة الحصان قد اكتملت؟ في المطبخ نستطيع أن نقول بالتحديد متى يكتمل الصحن، ولكن متى يكتمل رسم الحصان؟ كان هناك شيء لم يكتمل في رسوم الخيول على لوحات القماش، ولكن بدا لي بأن الشظايا تكمّل بعضها في

رأسي. عرف والدي الخيول وعندما بلغت الثامنة جعلني أطعم حصاناً في الثكنة، خطفت شفاه الحيوان التفاحة بنعومة من يدي.

الغرفة الثانية كانت تدعى قاعة شيرجل، باختصار توقفت أمام بنية مبهرة، لوحة «امرأتان عاريتان». بدت المرأتان غامضتين على الرغم من أنهما عاريتان. ومع ذلك بدت لي أجزاءٌ من جسد المرأة الأولى تعود إلى الثانية وبالعكس. كلما طال وقوفي هناك كلما قلّ شعوري بهما. بدتا وكأنهما وحيدتان تعانيان الوحدة القاتلة. إن سبب سير الرسام هوسيان حافي القدمين، كما اعتقدت، هو بسبب شعوره بالوحدة فقد كان فنه نتاج وحدة لا تُحتَمل.

باتجاه قطري عن هذه اللوحة كانت الصور المذهلة بالأبيض والأسود لعدد من الموسيقيين المعروفين. الغرفة التالية كانت مظلمة ذات رائحة وبلا شبابيك. وكان فيها مصباح معلق بسلك من السقف ومن خلال ذلك الضوء الضعيف لاحظت شكل امرأة جالسة على مقعد مرحاض. تأسفت وخرجت مرعوباً وفي الممر شعرت بيد على كتفي.

- «أيها الطباخ ماذا تفعل هنا؟».

كان الحارس يحمل رشاشة خفيفة.

- «لا شيء».

- «لا شيء؟».

- «كنت أبحث عنك فقط. هلا تذوقت الصحن الذي أعددته؟ لقد استغرق إعداده خمس عشرة ساعة من العمل. أنا أقدم أطباقي الجديدة إلى أفراد الخدمة والحراس. هكذا أعرف كم هي جيدة».

- «ولكن لماذا تحمل حذاءك بيديك؟».

- «هذا المكان يشبه الضريح، هذا هو السبب».

بدا مشوشاً تماماً ونظر إلى مذياع آغا.

- «هنا، وناولته المذياع، استمع إلى نتيجة مباراة الكريكت، دعني أجلب لك صحن الطعام».

- «اجلبه إلى السطح».

أسرعت إلى المطبخ وجلبت له صحناً من الفطر البري المطبوخ مع الرز واللحم وقدحاً كبيراً من عصير الكرز. رطّب الحارس شفتيه بلسانه وخفض أنفه. تذوق الرز المطبوخ باللحم فقلت له: «إيطالي، طعام أجنبي، إنك رجل طيب». قال لي: ولكن يجب عليك ألا تدخل غرف اللوحات أبداً» «إنها للضباط فقط». فأجبته: «خطأ غير مقصود». وسألني: «لماذا ترتجف؟ هل هناك أمر ما؟ إنك أستاذ في الطبخ» سألته: «أخبرني ما رأيك بالمرأتين العاريتين»؟ نظر إلى الصحن فقلت له: «هيا إنك حتماً قد شاهدت الرسوم» حوّل مذياع آغا على قناة رياضية. الهند تلعب مع جزر الأنديز في بربادوس. كان الاستلام واضحاً جداً.

بعدها صببت له الرّم. وسألته:

- «ما رأيك بصور الخيول؟».

- «الخيول، إن الرسام لا يعرف شيئاً عن الخيول. كيف يمكن لأحد أن ينسى أهم شيء، شعر الخيل.... إنك رجل طيب غير أني لا أريدك أن تطعم أحداً آخر في هذا المبنى».

سألته: «وهل هناك ضيف هنا؟». فأجاب: «هناك المرأة» وغرف من الرز بالملعقة، «إنها في الغرفة التي تلي غرف اللوحات، إنها انتحارية خطرة» سألته: «وما الذي تفعله هنا؟ ولماذا لا تكون في سجن نظامي»؟ «أشار بعدم معرفته السبب وربما لأن هذا المكان لا يُظنُّ إيجادها فيه وهذه أذكى طريق لإخفاء العدوّ». «إنها ما زالت رهن التحقيق والضباط يأتون مراراً للتحقيق معها».

في اليوم الثاني زرت بيت الضيوف ثانية ومعي صحون جديدة وتناولت الغداء مع الحارس في السطح. قلت له: إني ارغب بالتحقيق معها فضحك وقال: «ما الموضوع الذي ستسألها عنه»؟ أجبته: «أشياء كثيرة مثل ما نوع الأكل الذي يتناوله جنود العدو؟ وما نوع الأطباق التي يأكلها قادة العدوّ؟ كيف يأكل الجنرال المعادي؟ وكم وجبة يأكل؟ سأسألها عن أشياء مهمة إضافة إلى ذلك فأنا عندي موافقة من الجنرال للتحقيق معها». فسألني: «ما عندك؟».

«موافقة السيد الجنرال وأمره لأن أوجه لها الأسئلة».

- «أيها الرئيس في هذه الحالة فإني سأفتح لك باب الغرفة».

ولكن ذلك لم يكن السبب الحقيقي الذي من أجله فتح لي باب الغرفة.

«هاك، قلت له، جرب بعض مربى الورد».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(25)

كان شكل الغرفة يوحي بأنها من أيام فترة الاستعمار، سجادتها غامقة متعفنة، وباب الحمام مفتوح. قريباً من السقف كان على الحائط طبعات أحذية عسكرية كبيرة الحجم. كانت تتحدث مع نفسها باللغة الكشميرية وعندما شعرت بوجودي استدار جسمها قليلاً ولم ترفع رأسها المحني. عاد شعرها للنمو ولم يكن مرتباً ولا وجود لغطاء فوق رأسها.

جلست على الكرسي مقابل السرير. ظل نظرها مركزاً على الأرض.

كانت أمام الكرسي الذي أجلس عليه منضدة صغيرة. فتحت حقيبتي وأخرجت قدحين وصحوناً وملاعق وزجاجة كوكاكولا وسمكة وبرياني ووضعت الأشياء كافة على المنضدة. ما بين الحين والحين تصل إلى الغرفة أصوات حراس يسيرون وأصوات كلاب تنبح وصوت مؤذن يدعو إلى الصلاة في جامع بعيد.

قدمت لها الطعام.

لم نتبادل أي كلمة فيما بيننا فقد كانت تأكل السمكة والبرياني ببطء. بين الحين والحين كنت أنظر إليها إلا أن صمتنا زاد من صعوبة النظر. كنت أريد أن أسألها أسئلة عدة غير أني أضعت الكلمات.

سمعت إنهاءها للطعام فنظرت إليها وكانت تحدق بي، كان الصحن المعدني لم يزل بيدها والضوء ينعكس عليه.

سألتها:

- «المزيد من البرياني؟».

ظلت تحدّق بي وقالت:

- «أنا أعرفك».

كان شعري قصيراً الآن، لم تعد لي لحية وقد نزعت العمامة. غير أنها تعرفت عليَّ.

- «لماذا قُمتَ؟».

- «لأن....».

كان نباح الكلاب يرتفع في الخارج.

- «سأخبرك فيما بعد».

لكي أثبت لها شخصيتي سرت داخل الغرفة ودفتر مذكرات الرئيس كيشان في حقيبتي لكنها قد عرفتني ولا حاجة لإثباتات إضافية ولم يكن من الصحيح أن أريها الدفتر لأنها لا تعرف حتى القراءة.

- «هل عرفتِ هذا؟». وناولتها دفتر المذكرات.

بدت لامبالية، بعدها قلت شيئاً، كان عليَّ أن لا أقوله.

- «لقد مات».

- «مَنْ؟».

- «الرجل الذي كتب الصفحات هذه».

- «لماذا تخبرني بهذا؟».

انتقلت إلى حافة سريرها.

- «لماذا حلقت شعرك؟».

- «آرم أنت لي....».

- «لماذا فعلت ذلك؟».

خلال الدقائق العشر أو الخمس عشرة التالية أخبرتها كل شيء عن كيشان، كل شيء ولا أعرف لماذا. أشياء كنت أعتقد أن من الصعوبة التحدث بها مع الرجال في الثكنات بُحتُ بها مرة واحدة من دون توقف. في البداية لم تلقِ بالاً لما كنت أقوله، كانت ضائعة في عالم آخر. هل هي خائفة؟ سألت نفسي ولكن وبعد فترة أبدت اهتماماً بخطاب الرئيس كيشان إلى الجنود فوق المثلجة. قلت:

- «البرياني الذي تناولته، مقاديره حقاً من ابتكار كيشان».

- «الشيء شبيه الشيء، الرجل نفسه الذي علمك إعداد يخني اللحم؟».

أحببت عبارة الشيء شبيه الشيء.

- «الرجل نفسه الذي تقرئين بدفتر مذكراته» قلت مازحاً. بعدها فتحت الدفتر، لم أقرأ الشيء كله، تفحصت فقرات عدة، كانت هناك كلمات لا أستطيع حتى احتواءها. إن المغفرة شعور حيواني غريب شعرت بحاجتي لأن أطلب منها المغفرة، لأن أجلس بجانبها، هل ستغفر لي، على الرغم من أني عدوّها؟ قرأت لها من دفتر المذكرات: مثل الكثير من الهنود نشأت متحاملاً على المسلمين ولكن عكسٍ أكثر أبناء بلدي فإني لا أؤمن بالانغلاق. لقد علمني وجودي فوق مثلجة سياشين كم هو دقيق وهشٌ جسد الإنسان. «إن التحامل مضيعة لأيام العمر وأنفاس الإنسان».

- مشت إلى الشباك. لم يكن في الغرفة شباك. تظاهرت بأن هناك شباكاً. وقفت هناك كأنها تنظر إلى المشهد في الخارج. كنت أعرف ما الذي في الخارج: دراجتي المركونة عند شجرة الدردار ودراجة الممرضة إلى جانبها. فشلنا أنا والممرضة في الارتباط غير أن دراجتينا التقتا وأحبت إحداهما الأخرى.

مفكراً بالدارجتين تفحصّت آرم من الخلف، شعرها وتموجاته، كانت تواجه الشباك المفترض، كنا نبعد عن بعضنا ستة أمتار والضوء خافت. من أي مكان أجلس فيه كانت تبدو مُصِحَّة وممتلئة الجسم. ولكي أثيرها وأزيل التوتر قلت لها بأنها قد سمنت، وفجأة بدأ تنفسها يضيق على الرغم من أني كنت

لا أرى سوى ظهرها فقد شعرت بأنها تحاول أن تمسك بشيء، ولم يكن شيء قربها، حاولت ثانية وثانية وفشلت وبعدها استدارت وبدت غير مرتاحة محاولة حماية نفسها من أنظاري. تغير لون وجهها وبعدها تشنجت أجزاء من جسمها وضحكت ضحكة كئيبة وكأنها تضحك عليَّ، وحينها فقط عرفت بأنها تحمل طفلاً في أحشائها، فقلت.

- «يا إلهي».

لقد ضاعت مني الكلمات، وبعد صمت قلت:

- «إذن...أنتِ.... قد تم اغتصابكِ؟»

لم أعرف ما الذي سأقوله أيضاً. فهمست متسائلاً:

- «مَنْ هو مَنْ فعل ذلك؟».

لم ترد عليَّ ولم يبد عليها أنها سترد، لا يمكن أن يكون زوجها الذي في باكستان.. «من هو؟».

كنت واقفاً غير بعيد عن صورة الجنرال المعلقة على الحائط وعلى حين غرة فكرت بالممرضة ودراجتها المركونة قرب الشجرة في الخارج. لقد كانت في راج بهافان من أجل معالجة الطفلة روبيا.

فكرت بأن أطلب من الممرضة مساعدة آرم. قلت لها:

- «الممرضة».

- «ما شأنها؟».

- «ستقوم بالاعتناء بك».

- «كيف؟».

- «ستعيد جسمك طبيعياً ثانية».

- «لا أريد أن أعود طبيعية ثانية».

- «أرجوك اصغِ لي».

- «أنا».

- «أريد أن أساعدك وسأفعل ذلك فقط إذا رضيت».

- «لا».

- «هل ترغبين بالزعفران؟».

- «الزعفران؟».

- «الزعفران، كما أخبروني، يسبب الإجهاض. إنه يعمل بسرعة ولا يسبب ألماً كثيراً».

- «أرجوك ابتعد عني».

- «فكري بذلك، أرجوكِ».

- «لماذا تقوم بإذلالي؟».

- ‹إذلالك؟».

مرة بعد مرة تكرر السؤال نفسه.

- «إنكِ لا تعرفين ما الذي يفيدكِ».

- «شكراً على البرياني».

- «غداً سأعود ثانية بالوقت نفسه وسأطرق على الباب وسأسأل الأسئلة نفسها، إن قلتِ نعم ستقوم الممرضة بمساعدتكِ».

جمعت الصحون الفارغة والأقداح من فوق المنضدة وغادرت الغرفة وكنت منزعجاً، تذكرت، نظرت إلى ظهرها وأنا أغادر كانت تنظر من خلال الشباك المفترض، وبقيت لمدة طويلة أنتظر خارج الغرفة وكأني أريد سماع دقات قلبها ونصف القلب التي تنبض داخلها. لم أكن أعرف ما أفعله.

أأخبر أحداً ما وأعرضها وأعرض نفسي للخطر؟.

في اليوم التالي وبالوقت نفسه طرقت على الباب وسألتها الأسئلة نفسها لكنها رفضت، ألححت عليها أن تغير رأيها وأن الممرضة ستفعل ذلك دون أن تخبر أحداً، غير أنها رفضت فقد كانت تريد الاحتفاظ بالطفلة. قالت لي شيئاً لا تقوله النساء إلا لأزواجهن، قالت لي بأن الطفلة بدأت ترفس داخل بطنها وتبكي وتطلب منها أن تطلق عليها اسماً. فقلت لها: «لا تكوني عاطفية إلى هذا الحد» فقالت: «لقد أطلقت عليها اسماً» فسألتها: «أي اسم؟».

بعد يومين عدت إلى الغرفة ثانية وتوسلت إليها أن تسمح لي بأن أعيدها إلى بلادها عبر الحدود. قالت بأنها لا تريد العودة لأن عائلتها لن تقبلها الآن. قالت: «أنا محطمة وأن الله يعاقبني على ذنوبي، لماذا لم أمت؟ كان يجب أن أموت، بموتي سَتُحَلّ كل المشاكل، لن أرتكب أي ذنب آخر، سأحتفظ بالطفلة».

مرت مدة صمت طويلة، سرت إليها ومسكت يدها، كانت تجلس على حافة السرير، ألححت عليها ثانية أن تسمح لي بإعادتها إلى الباكستان.

في اللحظة التي لفظت بها كلمة «باكستان» سقطت إلى الخلف على السرير وقد تشنج جسمها بأكمله وبدأت يداها تفلاّن تكة سروالها. على هذا الحال كانت نصف مغمى عليها ونصف عارية على السرير، في تلك اللحظة دخلت المربية آية إلى الغرفة، لم أكن أعرف من أين جاءت؟ ولماذا؟ غير أنها شاهدت، لقد شاهدتنا معاً، بعدها ذهبتُ إلى الحراس وغادرت إلى غرفة المقدم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القسـم الرابـع

(26)

شاهدت من الحافلة سيارة الجنرال الخاصة وقد رفع السائق لافتة كتب عليها اسمي بحروف كبيرة. أنا من يحمل السرطان بين جنباته قد وصلت إلى كشمير، جلست على الكرسي الأمامي وتأكد السائق من أنني مرتاح في مكاني فأشرت إليه برأسي وطلبت منه أن يقود ببطء. بدا لي وجهه مألوفاً بشكل غامض. كانت الشمس تغرب وعلى جانبي الطريق أشجار جرداء.

أسرعت السيارة عند التفافها حول معسكر الجيش على منحدرات الجبال. استدرت في الكرسي محاولاً أن أحدد المنطقة التي نصب فيها الجيش الخيام لمحاكمتي عسكرياً قبل أربعة عشر عاماً.

كان أطفال المدرسة يلعبون هناك في المنطقة نفسها لا يعرفون شيئاً لا عني ولا عن المحكمة العسكرية. كانت الفصائل تستعرض خارج المعسكر. واحد اثنان ثلاثة، واحد اثنان ثلاثة. حتماً كنت غارقاً بتفكير عميق لأنني لم ألاحظ متى بدأت السيارة بتسلق التل باتجاه راج بهافان. كانت المرتفعات مغطاة بضباب كثيف والرؤيا محدودة. التفت إلى السائق وقال: «هل أتوقف أولاً في حدائق المغول سيدي؟ بعد أن رأى شغفي بالنظر إليها». «نعم، نعم قلت له وأنا أتفحص آثارها».

ولكن بعدها غيرت رأيي وطلبت منه أن يسرع إلى بيت المحافظ وعلى الطريق لاحظت الكثير من نقاط التفتيش والمواضع العسكرية والبيوت الجميلة. كانت بحيرة دال مغطاة بالقصب الذي تقوم شركة سويسرية بإزالته حسب الإشارات الموجودة على الطريق. وأصابت التعرية ملعب الغولف وبدت الشيخوخة على أشجار الشنّار وكانت جرداء تستعد لاستقبال الثلوج.

مرّت السيارة بين نقطتي الحراسة عند البوابة. ووقفت أمام قصر راج بهافان وعلم بلادنا يرفرف فوقه. ركض الخادم، الذي كان يقف في المدخل بعد أن حياني، إلى السيارة ليحمل صندوقي وحقيبتي، أخبرته أن لا يفعل ذلك غير أنه حملهما إلى داخل المنزل. كانت هناك سيارة جيب إسعاف تقف قرب الجدار. تعثرت بحجر في الطريق إلى البيت ما جعلني أعرج بمشيي لفترة.

- «إلى أين أنت ذاهب يا سيدي؟». تساءل صوت. كنت أتجه إلى المدخل الخلفي ولكن الصوت جعلني أتجه إليه. لقد كان صوت مدير مكتب الجنرال الجديد. وفجأة توضح لي كم من الوقت قد مضى وبلا سبب تمسكت بالدعامة الحجرية الأمامية.

طلب مني مدير المكتب أن أنتظر في غرفة الاستقبال. بدت الغرفة بسجادها وموقدها وأثاثها، غريبة ومألوفة في الوقت نفسه. جلست في الكرسي المصنوع من خشب الجوز في الزاوية ونظرت من الشباك إلى الخارج. «من تلك السيدة الشابة التي تحمل هاتفاً خلوياً ومعها كلبها؟». سألت الخادم.

كانت تجلس في شرفة بيت الضيوف.

- «إنها السيدة راماني يا سيدي، إنها ابنة المحافظ السابق».

- «نعم، نعم، عرفتها».

كانت الريح تلعب بفستانها المزركش وهي تصعد الدرج أعلى بيت الضيوف من أجل استلام واضح لهاتفها الخلوي. إذن فهذه هي بينا بعد أربعة عشر عاماً. ما زالت جميلة ولكنها لم تعد كتلك التي أعددت مأدبة زفافها.

- «وما الذي تفعله هنا؟». سألت

- «ضيف أساسي، سيدي».

- «ضيف أساسي؟».

- «كلا يا سيدي، ضيف الزفاف».

- «صحيح» شعرت بالتعب وأنا جالس في كرسي خشب الجوز. شعرت وكأن رحلتي قد انتهت للاشيء. شعرت كأني أعود إلى دلهي.

- «هل ترغب بالشاي الجاهز سيدي؟».

- «عذراً؟».

- «شاي جاهز سيدي؟».

- «بدون حليب أو سكر».

- «سيدي».

- «انتظر».

- «سيدي».

- «ما ذلك اللّوح الأبيض في المرج؟».

- «إنه الكلب سيدي».

- «متى حدث ذلك؟».

- «ألا تعرف سيدي؟».

ترك الشاي والبسكويت على المنضدة أمامي. كان الشاي مرعباً فلا هيل ولا إضافات فيه.

سألت نفسي وأنا أرتشف الشاي إذا كانت حاجتي للتعلق بالحياة كبيرة بحيث إنها أنستني أخلاقي.

فكرت بكل الناس الذين سيحضرون مأدبة الزفاف وهم يرتدون الحرير الناعم المزركش وسيتحدثون وكأنهم بحال جيد وسيظلون كذلك. سيأكلون ويشربون ويتحدثون أشياء وأشياء عن أمور يقومون بها دائماً ولا أحد منهم سيهتم بالناس من نوع آرم، فالناس مثلها لا أحد يهتم بهم وهم حتى وإن غادروا المستشفى فإنهم يبقون مرضى وحتى لو غادروا السجن يبقون داخل الفخ. تبقى جلودهم حية وأن جريمتهم أنهم مستمرون بالحياة.

ما سبب وجودنا هنا؟ ما الذي أفعله في هذا المكان؟

سألت نفسي وأنا أجلس في ذلك الكرسي المصنوع من خشب الجوز.

بعدها رافقني مدير مكتب الجنرال إلى غرفته، كان الممشى بارداً على غير العادة. كان يمشي بسرعة وأنا أسير ببطء ولكن في النهاية وقف كلانا أمام الباب، كانت الستائر تتمايل.

كنت حتماً قد تمايلت إلى الجانب مما جعل مدير المكتب يدفعني باستقامة داخل الغرفة. كان الجنرال كومار يقف أمام النافذة ويداه خلف ظهره.

ترك على المنضدة المدورة، قرب سريره، سيكاره بعد أن دخن نصفه والدخان يتصاعد منه.

غير عارف ما أفعله أديت التحية مستعداً بقدمي فاستدار الجنرال قائلاً: «تحيا الهند» وسار باتجاهي وصافحني وكان يهم بمعانقتي غير أن شيئاً ما جعله يغير رأيه وبدأت يده ترتجف بعنف.

- «كربال، كيف حال والدتك؟».

- «ليست على ما يرام سيدي».

جلس على حافة سريره وأشار إلى الكرسي ذي المسندين.

- «تفضل بالجلوس رجاءً».

كانت هذه هي المرة الأولى التي أحظى بها بمثل هذا التشريف ولربما كان هذا سبب ترددي ثانية.

- «اجلس، إني آسف لوجود الدخان في الغرفة، لقد زارني الطبيب تواً، دائماً ما أدخن بعد مغادرة الطبيب».

- «ليس في ذلك مشكلة سيدي».

- «قد عرفنا».

- «سيدي».

- «عرفنا بأنك ستأتي وأنك لن تخذلنا».

- «سيدي».

- «ستفرح روبيا لأنك قدمت من أجلها».

أحسست بأن الجنرال يريد أن يتحدث طويلاً إلا أن تنفسه كان يحدث صوتاً كالصفير.

- «استحم وخذ قسطاً من الراحة ولا تنسى أنك في الجبال الآن. وسنتناول العشاء معاً».

ضرب الجرس وجاء الخادم.

- «ضع الحقائب في بيت الضيوف».

«سيدي، إن لم تمانع سأقيم في الفندق».

- «إن غرفتك جاهزة».

- «أرجوك سيدي إذا لم يكن هناك مانع».

- «في هذه الحالة ستقلك سيارتي إلى هناك».

- «جزيل الشكر سيدي».

- «يتوجب علينا أن نتحدث بسرعة».

- «سيدي».

- «الرّم» أمر الجنرال بإحضار الرّم.

- «كلا، شكراً لك سيدي».

في الطريق إلى قصر راج بهافان فكرّت في إمكانية مقابلته على انفراد وأنا أعرف بأنه ينتظر مثل هذا اللقاء وكنت قد تنبأت بأسئلته وأنا أيضاً كان لدَّي أسئلتي فقد مرَّ زمن طويل وأصبحت الأسئلة أكثر وقعاً، إلا أن رؤيتي لوضع الجنرال المنكسر الآن أشعرتني برغبة في تأجيلها. ثمة أمور كان يجب حلها بيننا ولكن ليس الآن. وأنا أنظر من النافذة إلى أشجار الدردار في الخارج وأطرافها العالية جرداء يلعب بها الهواء شعرت وكأني أعيش واحدة من آخر لحظاتي المشرقة في كشمير وكانت كافية ليوم وصولي.

- «بعد مغادرتك هل تغير الطعام الذي تعده؟».

- «هذا صحيح سيدي، فلقد اكتشفت بأن البساطة مبدأ أساس في الطبخ وأصبحت صحوني تتجه إلى البساطة تدريجياً».

- «رسمياً كان السبب هو صحة والدتك يا كربال؟».

كان ينظر إليَّ وكنت غير قادر على قول كلمة واحدة.

- «وعليه سأبدأ بسؤال بسيط، لماذا غادرت يا كربال، فقد برأت المحكمة العسكرية ساحتك وأرسلت قيادة الجيش اعتذاراً وتعويضات فيما بعد. الدليل المادي يقول بأنك كنت مذنباً ولكن سجينة العدو قالت بأنك لم تكن مذنباً».

- «إن اسمها آرم سيدي».

- «نعم، نعم أعرف ذلك، إنها لم تقدم حتى شكوى ضدك. فلماذا غادرت؟

لم أكن قادراً على قول كلمة.

- «أعتقد بأني أعرف سبب مغادرتك، طوال السنين هذه حاولت الإجابة على هذا السؤال، ولكني أريد أن أسألك إن كانت هناك ذرة حقيقة في هذا. لقد كنت يا كربال مثل ابني ووالدك كان محبوباً جداً

وكان من أفضل ضباطي. أنا أعرف لماذا غادرتنا. أعرف السبب. لقد وقعت في حبها. لقد كنت تحب تلك المرأة، ذلك سبب مغادرتك».

نظر إليَّ ثانية وحدّق في عينيَّ.

- «لقد أحببتها بالطريقة نفسها التي تحب بها روبيا هذا الرجل الباكستاني. ولقد أخبرت روبيا بأنه لا يهم ما سيحدث إلا أن هذا الفتى لن يخطو داخل هذا البيت. ما وجه الحق في أن تندفع روبيا برغباتها بالطريقة التي فعلتها؟ أخبرني؟ متى أصبحت واقعاً بحب تلك المرأة بالكامل؟ متى تمكنت من السيطرة على رغباتك ولماذا لم تستطع روبيا؟

ولأنني كنت قد أضعت الكلمات فقد استمر الجنرال بالكلام.

- «أحياناً أعتقد بأن الرغبة تجاه نساء العدو أكبر من الرغبة تجاه نساءنا»، ولا أحد يعرف هذا أفضل منك وهذا هو سبب مغادرتك، هذا هو السبب الحقيقي. لم تُرد أن تتصرف بناءً على رغباتك، لم ترد ذلك.

عرفت بما حصل وعرفت مَنْ فعله وذهبت، ولم تكن لديك الشجاعة لإخباري الحقيقة. ولكن كيف يمكنك إخباري؟ كنت أنا الحاكم ومن بيده السلطة، لكني كنت مثل والدك يا كربال. استخدمت مرض والدتك لتتعامل مع أمر لا يمكنك التعامل معه. أصبح مرض والدتك هو البرقع الذي تختفي وراءه.

ولأنك لم تتحدث عن المشكلة اعتقدت بأن المشكلة لم تكن موجودة. والآن قل شيئاً.

أصبح تنفسه ثقيلاً. ثم أضاف:

- «كنت أريد أن تكون روبيا موجودة هنا، شيء جيد إنها ليست هنا. الله يعلم أين هي؟ بعد كل الذي عملته لك هل ستبقى كريماً لأن تكون الشيف في زفافها؟ زفاف مدني وسيكون احتفالاً صغيراً، عشرين إلى ثلاثين شخصاً. عائلة الفتى ستأتي بالحافلة من كشمير المحتلة».

- «بالطبع سيدي».

- «كل شيء يجب أن يكون مثالياً، هذا زفاف روبيا. كل شيء يجب أن يكون مثالياً جداً».

- «سيدي لقد أعطيتك كلمتي. ولكن».

- «عرفت بأن هناك «لكن»».

- «كلا، سيدي، أود فقط أن أتحدث مع الآنسة روبيا بخصوص قائمة الطعام. سيدي».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(27)

نزلت لتوي من سيارة الجنرال الخاصة عند فندق ليوارد وقد تيبست ساقاي وجسمي يغمره الألم كل جزء في الحافلة كان يقعقع لمدة إحدى عشرة ساعة والآن فإن كل عظم في جسمي يحتج ألماً. استغرقت الحافلة إحدى عشرة ساعة في رحلتها إلى سرنجار وعانى جسمي طوال هذه المدة. ربما يجب علي القول بأن جسمي تجاوب معي بشكل اعتيادي طول الطريق، فرجل أصغر مني عمراً تقيأ لست أو سبع مرات، لكن جسمي كان متعاوناً فقد استفرغت مرتين أو ثلاثاً وربما كان تظاهراً مني، من المستحيل أن يكذب الإنسان على نفسه مثلما هو مستحيل أن يداعب الإنسان نفسه وحدهم المجانين من يداعبون أنفسهم وأنا لست بمجنون. لقد ارتكبت خطأً كبيراً بقيامي بهذه الرحلة المملة.

في الحقيقة إنني هنا من أجل روبيا وإلا لما جئت إلى الوادي علاوة على أنني جئت إلى هنا لسبب في نفسي أيضاً فأنا متأكد بأنني ما أن أنجز مأدبة زفاف مثالية فإن الجنرال كومار سيوصي كبار الأطباء الاختصاصيين في المستشفى العسكري وسيباشرون فوراً علاجي من المرض الساكن في دماغي.

على الطريق إلى سرنجار هناك لافتة تقول:

هذا ليس سباقاً أو مضماراً

قم بالقيادة الآمنة في وادي كشمير

هؤلاء الناس حقاً مضحكون فأنا أسمع ضحكاتهم الكئيبة في كل مكان وحتى في غرفتي في الفندق. غرفتي كبيرة وفيها مجمرة ساخنة ومرآة معلقة على الحائط وسريرها مرتب ولحاف إضافي في الدولاب. في البداية تذمرت من الغرفة الصغيرة التي خصصوها لي غير أن المدير نقلني إلى هذه الغرفة المخصصة لكبار الشخصيات. أوقف تسلق السلم تنفسي، فتحت الغرفة وخلعت قبعتي ومعطفي، كان على الحائط شقان رفيعان ومرآة بيضاوية. وأنا أتطلع داخل الغرفة راودت فكري ذكرى مفاجئة مع والدي يوم عدنا من رحلة طويلة وساعدني في فك رباط حذائي، كنت في الرابعة أو الخامسة من العمر حينها. اهتاجت عيناي من استرجاع الذكرى فشعرت بكتلة خانقة في حنجرتي وأنا أخلع ملابسي فدخلت إلى الحمام وغسلت يداي ووجهي.

إنني غير قادر على النوم، مشيت إلى النافذة وفتحتها ثم أغلقتها بهدوء فقد كان البرد قارساً في الخارج. رأيت ضريحاً صوفياً ومكتب دائرة البريد المغلق، أريد أن أقول شيئاً غير أن الكلمات لا تخرج من فمي، ما هو السبب؟ ما الذي أصاب دماغي بالفعل؟ الحافلة، أتساءل لماذا تحدثت مع المرأة في الحافلة؟.

كنا نجلس إلى جوار بعضنا: فقد كنت جالساً جوار النافذة. في البداية لم نقل كلمة واحدة ولكن سرعة السائق في منحنى الطريق جعلها تقول شيئاً ووافقتها عليه بإشارة برأسي وبعدها لم نستطع التوقف عن الكلام. لمدة خمس ساعات ونصف. أي نصف الطريق كنا صامتين ضائعين في عالمينا. لم تكن هناك حاجة لذلك، إنني حتى عرضت عليها أن تجلس في الكرسي المجاور للنافذة لكنها قالت بأن الكرسي المحاذي للممشى أفضل.

كانت كشميرية هندوسية تعود إلى وطنها بعد ثلاث عشرة سنة من الابتعاد عنه، قالت بأن وضعها كان يشبه إلى حدٍّ ما وضع المنفيين في ملحمة مهابهاراتا. اعتذرت لها بسبب معرفتي المحدودة بالملاحم الهندوسية فقد نشأت في مجتمع سيخي.

تطلعت إلى وجهي باهتمام وقالت: «إذن لماذا حلقت شعرك ونزعت عمامتك أيها الساردرجي؟».

لم أقل شيئاً.

«كان زوجي يمتلك وكالة سفريات في سرنجار، أخبرتني، وكنت مدرسة للإحياء في مدرسة للصفوف المتوسطة. لكننا أجبرنا على مغادرة المدينة من قبل المسلمين فأسفل الوادي جميع المسلمين مؤيدين للباكستان غير أن خادمنا كان استثناءً. فقد كان يرسل لنا الرسائل حول بيتنا وفترات انتقاله من سيطرة الجيش إلى المسلمين ولكن في آخر رسالة أخبرنا بأن البيت صار فارغاً وأن سقف المطبخ والسرداب انهارا.

وأنا أستمع إليها فكرت بكل تلك اللحظات الضائعة من الزمن، فكرت بوصولي أول مرة إلى كشمير عندما أخذني الرئيس كيشان بجولة طويلة على الدراجة، أوراق أشجار الدردار كانت تتهرس تحت عجلات الدراجة، أبنية مهدومة على اليسار وعلى اليمين والعديد من البيوت الفارغة، ومرة أو مرتين قال بأن المدينة بدون الكشميريين الهندوس تبدو غير متكاملة، «بدون الهندوس الذين أجبروا على النزوح» «فإن هذا الوادي يبدو وكأنه جبنة فيها ثقوب كثيرة» «في المدرسة علمونا بأن كشمير الهندية تشبه وضع سويسرا. حسناً إن هذا المكان صار بالتأكيد (جبنة الهند السويسرية) فعندما أنظر إلى بيوت الهندوس الفارغة في الوادي، يا عزيزي كربال، أدرك بأنها لا توجد مأساة أكبر من أن أرضاً تطرُدُ أهلها وتجعلهم ينتقلون من مكان إلى مكان تاركة إياهم محطمين وفي داخلهم شوق للعودة إلى بيوتهم».

استبدلت المرأة مقعدها فقد وجدت مقعداً بجانب فتاة ريفية قبل أن تدخل الحافلة النفق الذي يبلغ طوله ثلاثة أميال. كلما جلست امرأة بجانبي غيرت مقعدها، سألت نفسي إن كنت قد ارتكبت خطأً. كانت تحمل كيساً بلاستيكياً مليئاً بالطماطم الصغيرة وكانت مستمرة بأكلها واحدة بعد واحدة. هل أسأت التصرف؟ هل أزعجتها بكلمة نابية؟ هل أن رائحتي كريهة؟ هل تمتمت مع نفسي بشيء مفهوم؟ جُزرٌ من الأشياء تتكون في دماغي.

هل تمتمت بشيء عن الحب؟ لقد أضعت سنين عمري غارقاً في الحب. حبٌّ لا يمكن استعادته، حبٌّ لشيء أو شخص غير مسموح، الحب كوجبة الطعام لا هي قد تركت تحترق على النار ولا هي غير ناضجة بعد. طعم الحبِّ لا يكون لذيذاً أبداً ورائحته كرائحة كيس النفايات. للحبِّ عطر العفن، تخلص منه وابتعد.

فتحت حقيبة السفر، توقف تنفسي مرة أخرى، هناك رزمة صغيرة لروبيا وهدية لشخص آخر. تجعدت ملابسي مع بعضها فالجاكيت والبناطيل وربطات العنق التي اشتريتها من دلهي تحتاج إلى كوي «ستبدو جميلة عليك» هكذا قالت أمي عندما جلبتها إلى البيت. أنا لا أستحق أن أرتدي هذه الملابس، فهي جديدة وحقيرة جداً.

قلت لنفسي في الفندق بأن فيَّ نَفَس الموت والنساء يشعرن به أكثر من الرجال فلا يردن الاقتراب. شعرت بالارتياح عندما غادرت المرأة من جانبي فقد كنت قادراً على التمدد ولكن شيخاً احتل مقعدها بعد دقائق من تخليها عنه. لم تنظر إلى الخلف أبداً واستمرت بأكل الطماطم، لم تلحظ من جلس مكانها، كان رجلاً مسلماً يعتمر قبعة مخروطية معقوف الأنف يستخدم عوداً ينظف بها أسنانه. ما أن جلس حتى سألني عن الوقت على الرغم من أنه يضع ساعة حول رسغه.

داخل نفق جواهر كان علينا غلق نوافذ الحافلة. كان السائق يخشى من قيام أحد برمي رمانة يدوية إلى داخل الحافلة. كان الماء يقطر من الصخور داخل النفق الذي يبلغ طوله ثلاثة أميال وتضيئه مصابيح كهربائية صفراء بعدها بان ضوء كشمير والجبال الزرقاء. سائق الحافلة الأحمق وضع ترس التعشيق في الوسط ونزل المرتفع معتمداً على تعجيل الحافلة توفيراً في الوقود. وقبل أن يصل إلى الوادي طلب منا أن ننظر باتجاه اليمين قائلاً: «فيريناج من هنا يبدأ النهر» وكأننا لا نعرف ذلك.

كانت الحافلة تسير باتجاه الأسفل واختفى النفق وراءنا في صدع الجبل، وبعد أميال عدة بان ثانية فنظرت إلى الأعلى من شباك الحافلة فلاحظت بداية النفق. فرحٌ وحزن، الكثير من الناس تعشق النفق، والطريق إلى كشمير ليس سيئاً. الحافلات وسائقيها ونقاط التفتيش هي السيئة وإذا كان هناك شيء واحد جيد في بلادنا فإنه الطريق.

أستطيع رؤية بيوت الهندوس من شباك غرفتي في الفندق. إنها فارغة منذ زمن طويل وسقوفها آيلة للسقوط. مرّت عقود ولم يشعل فيها أحد ناراً فلا دخان يتصاعد من مداخنها. الزمن يهزأ بالمداخن.

في أحد مطابخ هذه المنازل أتمنى أن أعدَّ الطعام للهندوس والمسلمين معاً يوماً ما.

أتذكر بوضوح تام ذلك الأحد. في الأكاديمية العسكرية، قبل سنين طويلة، عندما كرمتني قيادة الجيش لإسهامي ودوري الكبيرين في الأكاديمية العسكرية في ديهرادون. بعد انتهاء مراسم التكريم ألقيت كلمة قصيرة بخصوص مواصفات الطعام في كشمير على الطباخين المتدربين ومساعديهم والضباط وزوجاتهم وقد لاقت الكلمة استحسان الجميع ووقف الكثيرون منهم لتحيتي وهم يتمنون لي النجاح من أعماق قلوبهم.

في أثناء فترة الاستراحة القصيرة، مباشرة بعد إلقاء كلمتي. تجولت في الخارج باتجاه المروج الجميلة للأكاديمية وهناك رأيت تحت شجرة تلميذاً بزي الأكاديمية وهو يقرأ كتاباً. ملأني الفضول وسألته عن عنوان الكتاب فقال لي إنه ديوان شعر عنوانه «الأزمنة المختلفة». قلَّبت الكتاب مفتشاً عن اسم المؤلف ووجدت نفسي أصيح عالياً: إذن فإن ابنتنا روبيا صارت شاعرة.

- «هل تعرف الشاعرة، سيدي؟».

- «بالطبع أعرفها، لقد اعتادت أن تتذوق طعامي. لقد كانت روبيا المتذوق لما أعده، إنني سعيد جداً لأنها أصبحت شاعرة».

- «لا أستطيع أن أصدق أنك تعرفها سيدي». قالها التلميذ وهو مذهول إلى حدٍّ ما.

- «نعم، نعم، إن ابنة الجنرال كومار صارت شاعرة».

- «سيدي».

- «لقد كانت بالأمس تلعب بالدمى في الحديقة».

- «أود أن أكتب إليها، هلا تكون كريماً معي وتقدمني إلى الشاعرة».

كتبت له عبارة تقديم على ورقة وتحتها اسمي وعنواني. ولم أعرف كيف سيستدل على عنوانها أو هل أنه تلقى إجابة منها ولكن ما أدهشني أني استلمت إجابة من روبيا كما أرسلت لي قصيدتين جديدتين وموضوعاً مقطوعاً من صحيفة كانت قد كتبته بعد رحلة إلى باكستان. عندما قرأت مقالتها عرفت بأن مصير كشمير كان في طريقه لأن يتغير فقلت مع نفسي: هذا هو الاتجاه الصحيح وليس كما فعل الرئيس كيشان فقد كان اتجاهه خاطئاً وأن الطريق الذي تسلكه روبيا هو الطريق الصحيح. نعم عندما قرأت مقالة روبيا تأكدت بأن مصير كشمير سيتغير. كتبت:

قبل أن أطير إلى باكستان كنت أتعامل مع مخاوفي من الحدود كل يوم. في اليوم الذي بلغت فيه الخامسة أخذنا والدي بسيارة جيب إلى الحدود. كان اجتماعاً تحت العلم، والذي يكون نادراً في تلك الحدود الظالمة. كنت خائفة وغير قادرة على التعبير عن مخاوفي بوضوح ولقد وجدت من الصعوبة عبور الخط الحدودي إلى الباكستان. قال لي الحارس على الجانب الهندي: «إذا لم تستطيعي اتخاذ قرارك فعودي إلى السيارة». ما زلت أتذكر الشلل الذي أصابني وأنا أقف ضمن ميدان الجذب الأرضي لخط الحدود وبقيت بين حين وآخر مستعدة لأن أسترد المسافة بين الخط على الأرض وقدمي التي كانت فوقه جامدة في الهواء. عَبَرَ أبي إلى الجانب الآخر، الجانب الخطأ، كانت تغمرني مخاوف غريبة ومألوفة في الوقت نفسه. «تعالي، تعالي» نادى عليَّ الحارس المعادي وهو يبتسم ولكني لم أستطع التغلب على الرعب الذي استمر يخفق داخلي فركضت إلى سيارة الجيب ومنها شاهدت أبي يتحدث إلى أعمامي وعماتي الأعداء كما لو أنهم كانوا نصفه الآخر.

كانت روبيا تكتب عموداً شهرياً في الصحيفة وقد بدأت أقرأ مواضيعها بانتظام. لم تذكرني ولا مرة واحدة في كتاباتها.

وقد آذاني ذلك قليلاً خصوصاً في الموضوع الأصلي الذي أرسلته ضمن رسالتها. لقد قامت بشطبي بالكامل. لقد رافقتها مع الجنرال في تلك الرحلة إلى الحدود. لقد راعيت راحتها وقدمت لها المعجنات الحلوة لتأكلها. لم تفعل ذلك مربيتها فقد كانت مريضة ذلك اليوم وأنا من تولى العناية بروبيا ذلك اليوم. وبعد أن قرأت الموضوع مرة ثالثة أو رابعة توقف الشعور بالألم. أنا أعرف أنها لم تذكرني لأنها تريد حمايتي فقد كنت مهماً جداً في نشأتها. وأعتقد بأنها تعرف ذلك جيداً ولا تريد إرباكي بالمديح الظاهري.

لقد نشأ بين روبيا وبيني تفاهم خاص يتجاوز كل الكلمات. كنت أفهم إشاراتها وغمزة عينها عندما ينزعج الجنرال قليلاً من أدائي فأفهم منها أن لا أقلق من انزعاجه فهو غارق في مشاغله كتبت:

لم أكن قد بلغت السابعة عندما ماتت أمي. في البداية كانت الأمور صعبة. فقد كانت غائبة وحاضرة، كل مكان أذهب إليه كان يجرحني. والدي كان حزيناً أيضاً وكنا نخرج معاً نمشي لساعات دون أن يكلم أحدنا الآخر. بعد شهور عدة شاهدت معه فيلماً في السينما الصيفية في المعسكر. وحالاً أصبح

ذلك شعيرة وصار يرافقني لمشاهدة أفلام بوليوود القديمة. كان الجلوس في السينما محدداً حسب رتبة الشخص فالكراسي القريبة من الشاشة كانت مخصصة للضباط وعوائلهم. نواب الضباط والجنود المقاتلون والسعاة والطباخون والحدائقيون يستطيعون المشاهدة من خلف الشاشة وكانوا يجلسون متربعين على الحشائش بمواجهة آلة العرض. رجال ينتعلون جزمات كعوبها مثبتة بالمسامير يحرسون الحدود بين الجانبين. ومرة كادت البطلة على الشاشة أن تغرق في سيل أمطار موسمية وكان المشهد مثيراً جداً بحيث جعل الحراس يتكئون على أسلحتهم فعبرت إلى الجانب الآخر.

كان هناك بعوض أكثر، في الجانب الآخر، عضني بقسوة، ولكن ما صعقني أكثر أن الصورة على الشاشة كانت مختلفة تماماً. شعرت بأن قوة خفية حوّلت التناسق على الشاشة. فيسارنا كان يمينهم ويميننا كان يسارهم. أساساً لم يتغير شيء، لم يصبح المطر لعاباً والمرايا الصغيرة على ساري البطلة لم يتحول لمعانها إلى نار، وبعد هذه الحادثة لم أكن قادرة على مشاهدة صور متحركة دون سماع صوت مسير وحركة الجنود ولم أقدر على المسير دون التفكير بالتناسق أو انعدامه.

والآن، وبعد سنوات عدة، أعتقد بأن الحدود بين الهند الباكستان تشبه قليلاً الفيلم على الشاشة البيضاء للسينما الصيفية. كلا الجانبين يشاهدان الفيلم نفسه. أحياناً يعرض من جانب الهند وأحياناً من جانب الباكستان ويسارنا يمين عندهم ويميننا يسار عندهم.

موضوعها الجريء في الصحيفة منحني الشجاعة، شجاعة كبيرة ولربما كان السبب في أن أكتب لها حول آرم. وبعد ذلك لم أسمع من روبيا لوقت طويل. حذفت عمودها الأسبوعي في الصحيفة وهذا ما أقلقني. لكن موضوعاً طويلاً نشر بعد ثلاثة أسابيع يركز تماماً حول قضية آرم. غيرت اسم آرم في الموضوع وأسمتها صوفيا لقد عثرت روبيا على آرم في السجن.

ملأني الفرح والحزن في آن معاً لأنني كتبت إلى روبيا حول آرم متأخراً ست سنوات.

كان موضوع روبيا عن آرم طويلاً جداً ولكن هناك أجزاءً وشظايا ظلّت تعاودني مرة وراء مرة، كتبت:

وجدت صوفيا نفسها حاملاً وعرض عليها أن تجهض حملها لكنها رفضت وولدت طفلة أسمتها نسيم. أنهت صوفيا مدة محكوميتها عن دخولها الهند بشكل غير شرعي ولكن لم يخبرها أحد بأنها أصبحت حرة وبإمكانها الذهاب. ظهرت القصة للعلن عندما أرسل أحد العسكريين السابقين رسالة غير موقعة إلى إحدى المنظمات غير الحكومية الهندية. وسلمت الرسالة هذه إلى المجلس العالمي لحماية حقوق الإنسان.

وبسبب هذا التدخل أرسلت السلطات الهندية صوفيا ونسيم بسيارة شرطة إلى خط الحدود. ولكن حرس الحدود الباكستانيين رفضوا دخولهما وقالوا: «سنسمح بدخول صوفيا أما الطفلة فإنها مثل والدها، إنها مواطنة هندية».

وجرت أربع محاولات أخرى ولكنها وصلت إلى النتيجة نفسها. في الوقت الحالي فإن نسيم قد بدأت الدراسة في مدرسة السجن في كشمير الهندية. إنها طفلة لامعة مليئة بالحيوية وقد استحسنت صوفيا تعلم ابنتها وأحياناً تتفاخر أمام غير المتعلمين في السجن بمهارة نسيم في القراءة والكتابة.

في الأيام القليلة الماضية كل ما فكرت به هو التالي... إن الوقت يمضي... وإن محادثات استعراض العضلات الصعبة بين قادة الهندوس الأصوليين في بلادي الهند وبين الدكتاتور الباكستاني، الجنرال برويز مشرِّف تدور خلف حدود الفهم، فكلا الجانبين يعدان بحرب شاملة. في العام 1998 وعندما جرب كلا البلدين الأسلحة النووية في رمال الصحراء فإن القادة أنفسهم وعدوا بأن الأسلحة الذرية تشكِّل عائقاً حقيقياً... وفي الأسبوع الماضي توجه الجيشان إلى الحدود ثانية، مليون من الرجال كانوا جاهزين في مواضعهم، وتم زرع الألغام المضادة للأشخاص والدبابات على طول 1800 ميل من الحدود. انتشرت رائحة نهاية العالم في الهواء.... في مثل هذه الأوقات الصعبة يبدو من الحماقة التركيز على قضية امرأة اعتيادية وابنتها.

وبعد فأنا أعتقد بأن قصة صوفيا والصغيرة نسيم هي قصة كشمير بكاملها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(28)

أسأل نفسي، ما الذي يؤذي شخصاً في الشعر؟ ما الذي جعل من روبيا شاعرة؟ أهي الأغصان الجرداء؟ الثلوج أو الليل أو موت والدتها؟ أو الطعام الذي أكلته؟ ما هي الأشياء التي يجب على الإنسان أن يفعلها لكي يتمكن من قول بيت شعر؟ من أين يأتي الشعر؟ عندما كانت طفلة كانت تختبئ من الكبار وكانت تصور نفسها صغيرة تختبئ تحت السرير أو المنضدة، كانت تختبئ من أبيها. كانت تجلس تحت منضدة في الظلام تقرأ الكتب.

وكانت تلعب مع كلب أسود وتحاول الإمساك بالفراشات في المرج الأخضر، كانت تعزل نفسها عن الآخرين. كانت ترفض تناول وجبات الطعام التي أعدها وكانت المربية آية لا تسمح لها بدخول المطبخ. هل كانت في طريقها لأن تصبح شاعرة حينها؟ كتبت قصيدتها الأولى عندما سمعت لأول مرة عن المثلجة:

إلامَ اتجهت يا أبي؟

إلى المثلجة؟

من يعيش هناك؟

رجالنا الجنود

أمر مضحك يا أبي

ينبغي أن يكون الانزلاق إلى السفح سهلاً

متى يكون المرء شاعراً؟

ولكن أبي؟

نعم، روبيا

إن كانت المثلجة تتحرك

كيف رسم الجيشان الخط الفاصل؟

ما الذي تعنيه؟

كيف تخبرنا الهند والباكستان أين هي

الحدود بالضبط؟

متى بالتحديد أصبحت روبيا شاعرةً؟.

مباشرة قبل زفافها، عندما سألتقيها لوحدها سأوجه لها الأسئلة هذه كلها. وسأقول لها: روبيا إن أشعارك قد جعلتني سعيداً وستجعلين الكثير من الناس سعداء. الملايين في بلادنا، وأيضاً في بلاد

العدو وستجلب لنا كلماتك الراحة. سأسألها: هل ستكتبين شعراً عن والدك؟

وسترد: «أيها الرئيس كربال، الشعر ليس مثل الطبخ الشعراء لا يختارون، إنه الشعر هو الذي يختار الشاعر».

«فيما بعد»

فيما بعد ستذهب إلى كشمير

على غَيرِ عجل

ولن تسمع صوت إطلاقة واحدة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النساء المباركات

سيرسمن

بالزعفران على جلدك

وستبني بيتاً هناك

وستنسج سلة للرمان

وستعيد طلاء القدور على النار

الجبال المثلومة القمم

لن تواصلَ النحيب

أنهار الطين البطيئة

أو الارتجاف خلفَ القمم

لن تُمنَعُ الأشجار من النمو

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اجلس، هناك على فروة الثلج

سيسألونك

انظر إليها كيف تومض، أتشعر بحركتها

انفض الغبار عن بزازات

النافورات في شاليمار باغ

في خرائب نشأت باغ

- سيطلبون منك -

أن تزرع الأوراق الملونة

في مقبرة أو مقبرتين

حين يعضُّ الظلّ الشمس والنساء

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أضرحة نور الدين ستأخذك

إلى المروج النّديّة وهناك

ستوضع بيضة أو بيضتين في الأعشاش

وفي متاريس كرات الكريكت

والرجال الضائعون أيضاً وأطفال المدارس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الضحكات المشرقة

ستخبرهم عن الآخرين

كالوشم على جلدك يميزك

وفي الخريف، ستكتب رسائل طويلة

معنونة إلى نفسك التي تشيخ

كثيرة النقاط والفواصل

وصور قديمة وهزائم

وقصص حب ووصفات دواء،

وستحول العَلّية إلى غرفة فارغة تماماً

وستستأجر زورقاً للسكنى

وخدم أقوياء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نعم، فنفسك المنسية التي هرمت

سينقلها الغريب إلى الظلال

والأشجار الجرداء التي لا تشذّب

هناك - في خريف كشمير

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنت وروحك ستلتقيان

عند الجذور واللّحاء والأوراق الملّونة

وملايين الموتى،

لا تجلس هناك فقط

قم بشمهم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم الثاني لوصولي، الثامن من كانون الأول، وعند استيقاظي في الفندق قرأت في الصحيفة بأنه بعد الساعة الحادية عشرة بقليل من الليلة الماضية قام الجنرال كومار بإطلاق النار على نفسه. كان قد تناول عشاءه مع ابنته روبيا وبعد أن ألقى عليها تحية المساء عاد إلى غرفته. قدم له الخادم الشاي وتناول دواءه وبعد نصف ساعة أطلق النار على نفسه مستخدماً مسدس الجنرال الباكستاني المهزوم. رصاصة واحدة في فكه الأيسر كانت كافية لقتله.

لم تذكر الصحيفة أي شيء عن خطط زفاف روبيا أو تأجيل العرس. تحدثت الافتتاحية على الصفحة الأولى عن مرضهِ ومعركته مع المرض وامتدحت بطل ملحمة كارجيل وبطل مثلجة سياشين لقيادته ورؤيته الاستثنائية. وأشارت الصحيفة إلى أنه تولى منصب المحافظ في كشمير عندما كانت البلاد تمر بأوقات عصيبة.

أحرقت جثة الجنرال كومار على منحدرات التل المطلة على النهر غير بعيد عن بقايا حصن المغول. تحول لون طبقات الثلج الرقيقة عند حافة النهر إلى اللون البرتقالي جراء انعكاس اللهب عليه. ثلاث دقائق من الصمت فرضت قبل أن تقدم روبيا جسد والدها إلى الفناء. توقف القتال على الجبال البعيدة وأطفئت أجهزة المذياع وتوقفت العجلات على الطرق، أوقف الناس كل ما كانوا يفعلونه.

خلال تلك الدقائق الثلاث سمعت نشيجاً مكبوحاً يأتي من البيوت الكشميرية... وبعدها تصاعد اللهب، ظلَّ الدخان المتصاعد يخفق فوق الأرض الصلبة واختفت برودة كانون الأول شيئاً فشيئاً.

كان الجوق العسكري جزءاً من المراسم. رجال يرتدون التنورة الاسكتلندية يعزفون أنغام العزاء بأنابيب مربوطة بالقربِ ويضربون الطبول، مجموعة من الجنود السيخ أطلقوا إحدى وعشرين إطلاقة مدفع تحية لهذا المقاتل الذي خاض جميع المعارك من أجل بلده.

الواقفون هناك جميعهم، الضباط والمقاتلون وزوجاتهم، ليست لديهم فكرة عن المعارك التي كان يخوضها الجنرال حقاً.

كانوا يتحدثون بالرواسم وينظرون إلى روبيا نظرة اتهام بأنها من سبّب موت أبيها، كانت وجوههم تريد أن تقول بأن هناك شباباً محترمون في بلادنا، لماذا إذن لا تتزوجين واحداً من أبناء جلدتك؟. غاب المقدم جوظري وزوجته باتسي عن المراسم. بينا كانت حاضرة تمسك منديلاً مزركشاً تنحب بدون سبب.

رفعت صوتي هاتفاً باسم الجنرال كومار إمبراطور الجبال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ثلاثة أيام التقيت روبيا في حديقة المغول، كان موعدي معها الساعة الثالثة عصراً غير أني تأخرت، كانت تنظر إلى الأطفال وهم يلعبون بالثلج. كان الأطفال يلبسون ملابس صوفية سميكة ويصنعون الكرات من الثلج الموجود في المكان كله، على الأرض والأشجار والجدران المتهدمة والنافورات.

كل شيء كان يومض لامعاً.

في البداية رأيت ظهرها فقط وبعد أن صعدت السلم نظرت إليها من الجناح، كانت تنظر إلى الأطفال وكأنها تريد أن تقول لهم بأن العالم ليس كما عرفتموه. لم أكن أريد أن أزعجها.

عندما استدارت أول شيء قالته كان: «أيها الرئيس كربال، تفوح منك رائحة الرَّم».

كانت تبدو أصغر من عمرها وحزينة جداً.

أخبرتني بأن خطيبها «شاهد» ووالديه لم يمنحوا سمة الدخول على الحدود لذا ستتوجه إلى الباكستان على حافلة المساء. ولكن في الواقع أنا هنا لأخبرك عن آرم أيها الرئيس كربال. آرم وابنتها عادتا إلى باكستان. فبعد سنوات عدة سمحت السلطات الباكستانية لهما بالعودة إلى الوطن. لا أدري لماذا لم أخبرها في ذلك الوقت عن السرطان الذي يسكن داخلي وأن قدماي كانتا باردتين جداً وبدلاً من ذلك وجدت نفسي أتحدث عن مواضيع أخرى، ولكن ما أن فعلت ذلك حتى كنت قلقاً عليها وبدأت أحثها على البقاء فقد كنت أخاف عليها لأنها لن تكون آمنة في الباكستان مثل آرم التي لم تكن آمنة في الهند.

- «قبل أن تغادري هل بالإمكان أن أعتذر عن تصرفي»؟

- «لماذا؟».

- «لأنني انتظرت لمدة طويلة حتى أكتب إليك عن آرم».

- «أرجوك ما الذي تحاول قوله؟».

- «شيء ما يضايقني روبيا. هذا الشيء حدث على الطريق. ركبت الحافلة وكان السائق يقود بسرعة على الطريق المستدير كان يخرج عن الطريق طوال الوقت وغالباً ما يتداخل مع القوافل العسكرية.

وحالاً بعد ذلك تصادم مع مجموعة من الخراف، فأصاب أحدها بجرح بليغ فأخذ يتلوى من الألم وهو يموت. صرخ الرعاة على السائق من الطريق وبدأوا ينادون عليه بالتوقف، لكن جميع الركاب أرادوا من السائق أن يسرع ولا أحد اهتّم بالحيوان، أنا أيضاً أردت من السائق أن يسرع فجميعنا كان لدينا شيء مهم نريد أن نبلغه وعليه كنا نريد أن نسرع ولا أحد فكّر بأن نخفف السرعة. كلا يا روبيا، أنا لست رقيقاً، أنا شبيه بأبناء جلدتي الذين يجعلونني أخجل منهم».

- «أيها الرئيس كربال، أحسُّ بأن عندك شيئاً آخر تريد أن تخبرني به».

- «هناك سؤال واحد كبير في داخلي خلال السنوات الأربع عشرة الماضية، هل لي أن أقوله؟».

أشارت برأسها موافقة.

- «إنه سؤال له وزن المثلجة، ولا يمكن أن أقوله بسهولة وعندما أحاول أن ألقيه أشعر بالشلل وتتجمد الكلمات في فمي. روبيا، هل تفهميني؟».أرادت مني الاستمرار بالكلام.

- «أرجوك، إنه في الحقيقة سؤال حول آرم. ولكن يجب أن أسألك لأنك تعرفين الكثير عنها ولو كانت آرم تمشي معنا هنا اليوم لسألتك السؤال نفسه».

«لقد كانت آرم حاملاً وكان ذلك ظاهراً عليها. نعم لقد كانت حاملاً. عقدت المحكمة العسكرية في معسكر بادامي باغ ولقد أَخَبَرت رئيس المحكمة بأنني لست المذنب ولم تتهمني أبداً بينما وجه ضابط الادعاء الاتهام لي وقد ردت على الاتهامات الكاذبة فبرأني رئيس المحكمة العسكرية. ولكن ظلَّ السؤال. أحد ما قام بفعل ذلك مَن هو؟

لِمَ فعل ذلك؟ لقد نشرت الصحافة القصة بشكل أدى إلى إغلاق القضية. قالت الصحف بأن الحارس في السجن كان يدخل غرفتها كل ليلة ويحصل على مبتغاه منها. كان «حارس السجن» مسلماً كما قالت الصحف. وتسلمت آرم رسالة منه بعد المحاكمة قال فيها: «إذا وعدت بأن لا تقدمني إلى المحكمة فأنا أنوي الزواج منها». هكذا قالت الصحف وكنت أريد أن أصدق ذلك ولم أستطع؛ فلو كانت تعرف بأن الحارس هو من فعل ذلك فلماذا لم تشتكيه من قبل أو حتى في أثناء محاكمتي؟ كانت تعرف بأني لم أفعلها وعندما وجدتني المحكمة مذنباً أسقطت هي كل التهم ولكنها أحجمت عن تسمية المتهم الحقيقي. كي أكون صادقاً فإني عندما دافعت عن نفسي في المحكمة بأني غير مذنب فقد شككت بأن الجنرال نفسه وعدداً قليلاً من الضباط هم المذنبون ولكني لم أقل كلمة واحدة فلم أكن متأكداً.

كنت وروبيا نسير في الحديقة عندما بدأ الثلج بالتساقط، وبدأت بلورات رطبة متناسقة تسقط على معطفها الأسود، ببطء وبعدها بسرعة. كان أطفال بعيدين عنا يلعبون بالثلج. في البداية لم يبد علينا الاهتمام ولكن بعد قليل احتمينا في كشك الشاي المجاور لبوابة الحديقة وطلبت قدحين من الشاي. فقالت روبيا.

- «سأدفع».

- «كلا، أنا الأكبر، أنا سأدفع».

كانت رائحة دخان النارجيلة تختلط برائحة المعجنات الكشميرية الهشة ورائحة خبز التنور تملأ الهواء. غير بعيد عنا كان رجلان كبيران يأكلان الخبز ويرتشفان الشاي وفي الخارج كان الثلج يتساقط ببطء على العجلات العسكرية والقباب الحجرية والأضرحة الصوفية والبيوت الخشبية القديمة. قشرات كبيرة من الثلج، العشرات والألوف تلتفُّ في الهواء. العشرات والألوف تستقر على الحشائش التي لم تعد خضراء، كانت رقائق الثلج تتكدس فوق كشمير كما يتكدس الناس في دلهي فوق القطارات.

خلعت روبيا معطفها الطويل وهزت شعرها فتساقط الثلج.

واصلتُ: «في البداية كنت أشكُّ فقط ولكن فيما بعد حدث شيء جعلني متأكداً تماماً. في ذلك اليوم، وبعد أسابيع قليلة من المحكمة العسكرية. وعندما كان يُعادُ ترتيب البيت ظهرت آرم وهي تحمل حقيبة خضراء. لم أعرف كيف خرجت من السجن وكيف دخلت إلى مجمع راج بهافان».

«لربما تظاهرت بأنها عاملة في المطبخ مستفيدة من قلة الحراسة الأمنية، فالأمن ليس مشدداً دائماً، رأيتها تدخل، رأيت كل شيء من شباك المطبخ. كانت تحمل الخضراوات في الحقيبة وأدخلت يدها في الحقيبة وأخرجت خضاراً وأعادته إلى الحقيبة وقد أعادت هذه الحركة مرات عدة كما لو أنها لا تستطيع أن تقرر. لقد رأيت كل شيء من الشباك. اختارت اللحظة الحاسمة عندما نزل معظم الجنود إلى أسفل التل من أجل الغداء. وكانت تهمُّ برمي قطعة خضار في غرفة الجنرال وكان الجنرال داخل الغرفة يرتاح وأنت يا روبيا كنت تلعبين في الخارج وكانت تعرف ذلك».

«كان الشيء في يدها يشبه الخضار ولكنه لم يكن خضاراً كما اكتشفت فيما بعد. لقد كانت رمانة يدوية، مصنوعة في الباكستان. لكنها لم ترم الرمانة، لقد غيّرت رأيها. لقد رأيتها تناضل، واضعة يدها على قلبها وتستدير إلى الوراء وكأنهَا تنظر إلى البيت للمرة الأخيرة واختفت بين أشجار الدردار. ركضت خارج المطبخ بعد مدة طويلة من اختفائها. لقد نسيت الحقيبة قرب بالكونة الغرفة فجلبت الحقيبة إلى المطبخ وأخرجت ما فيها على المنضدة ووجدت الرمانة اليدوية. لقد كانت المسألة واضحة، لقد كانت تريد أن تقتل الجنرال، وأنا أفهم السبب ولكن لم أفهم شيئاً واحداً أبداً، لماذا غيّرت رأيها؟ هل لأنها شاهدتك تلعبين في الجوار؟ ولم تستطع أن تتصور جَعْل تلك الطفلة يتيمة».

لم تقل روبيا أي شيء.

«رميت الرمانة اليدوية في النهر تكتمت على الحادثة. وبعدها قدمت استقالتي من الجيش».

- «وهل تعرف أين هي الحقيبة الآن؟».

- «لقد ألقيتها مع الخضار في النهر، وفي اللحظة التي تخلصت منها كنت أعرف ما الذي سأفعله بعد ذلك؟».

كانت روبيا تستند بعكازيها على المنضدة ورأسها بين يديها.

- «أيها الرئيس كربال».

بقيت صامتاً لأني أعرف بأنها ستخبرني شيئاً خاصاً بها.

كان هناك ماء ثلج ذائباً على حاجبها وأحببت أن أمسحه لكني كنت أعرف أن ذلك سيقطع عليها ما كانت تريد قوله فلم أفعل شيئاً. كان معطفها الطويل يتدلى من العلاّقة على الحائط والثلج عليه وكذلك أطراف حذائها. نادى النادل على مساعده: «قدحان من الشاي للسيدة والسيد». جلب صاحب الكشك القدحين إلينا بنفسه وكانت جدائل الزعفران تطفو أعلاها. قال لنا صاحب الكشك: «عندي غرفة في الأعلى ولن يزعجكما أحد هناك».

«كم كان ذلك الرجل مخطئاً في فهمه لطبيعة العلاقة بيننا ولكننا على أي حال قررنا قبول عرضه».

كان السلم يصرُّ تحتنا ونحن نتبع الرجل ومعطفينا وقدحي الشاي في يدينا. كان عمود ضوء يدخل الغرفة من الجانب الأيمن للبحيرة وكان المكان تطغى عليه رائحة الصنوبر. ترك الرجل مجمرة صغيرة على المنضدة والجمرات فيها متوهجة.

كانت يداها عندما وضعتها فوق المجمرة، جميلة كوجهها، ونضرة جداً وعندما تحركت قليلاً أنار عمود الضوء وجهها.

- «أيها الرئيس كربال، لم تخبرني آرم بذلك أبداً ولم تقل كلمة واحدة عن الحادثة التي رويتها».

بعدها كنا صامتين.

لا أعرف من أين أتتني الشجاعة عندما لمست بيدي خد روبيا التي لم تحرك رأسها.

- «إنني أشعر بالارتياح عندما أتحدث معك روبيا».

لم تقل شيئاً.

- «لماذا أنتِ صامتة هكذا؟».

- «كربال، لماذا هذه الدنيا مخيبة للآمال؟».

ضاعت الكلمات مني.

- «كربال، إنني غاضبة من أبي، غاضبة جداً، غاضبة لأنه فعل ذلك، وحزينة لأنه ميّت ولكن أنا أيضاً غاضبة جداً لأنه ميِّت».

- «إنني آسف جداً، لربما لم يكن عليَّ....».

- «يجب عليَّ الذهاب الآن، ستغادر الحافلة في الساعة الخامسة عصراً».

- «أرجوك لا تذهبي».

- «يجب أن أذهب».

- «في هذه الحالة يجب عليَّ إخبارك للمرة الأخيرة كم هو كبير قَدْرُ أشعارك عندي».

- «كربال، الشعر لا يعمل شيئاً».

- «لا. روبيا، لا، لقد غيرتني قصائدكِ، أنا أشعر بأني أركض في الشوارع والدروب الضيقة، أشعر كأني أتسلق الجبال لأطلب من أهالي كشمير أن لا يفقدوا الشفقة والرحمة تجاهنا نحن الهنود. وأشعر كأني أطلب من أهل بلادي أن لا يفقدوا الشفقة والرحمة تجاه الكشميريين. روبيا إن كلماتك تساعد الناس مثلي لكي نقول أشياء نريد أن نقولها».

- «كربال، هل أنت بخير؟».

في الخارج توقف سقوط الثلج تدريجياً واكتست سقوف المنازل بطبقة جميلة. الدخان الأبيض والأسود يتصاعد من المداخن. القوارب في البحيرة ساكنة تماماً. أشجار الشنار على جانبي الطريق أثقلتها الثلوج والسماء فوقها ملبدة بالغيوم ولونها أحمر بالكامل. كان الطريق أبيض اللون تحت سماء حمراء.

- «سأرافقك إلى مرآب الحافلات».

- «كلا أرجوك لا تفعل ذلك، سيكون الأمر سهلاً».

رفعت معطفها عن العلاقة المثبتة في الحائط.

- «كربال، من هذه النافذة، وفي الساعة الخامسة بالضبط، ستكون قادراً على رؤية الحافلة الذاهبة إلى الباكستان. انتظر هنا فقط. هذا هو المكان المثالي الذي تودعني منه وسألوح لك من الحافلة»

- «حسناً سأبقى أنتظر».

- «كربال، أحسُّ أنك مريض، عيناك تطرفان وكأنك على وشك الانهيار».

- «أرجوكِ لا تقلقي، ليس هناك شيء».

- «قبل أن أغادر، أخبرني يا كربال، ما كان شعورك تجاه آرم؟».

- «لا أدري».

في تلك اللحظة ولسبب أجهله فكّرت بأمي، بالطريقة التي كانت تتبعها لتمضي الساعات الطوال في المطبخ، دون أن تأكل مع الجالسين على المنضدة،تقدم الطعام دائماً. إعداد الطعام كان وسيلتها التي تعبّر بها عن شعورها تجاه أناس قريبين إليها.

- «لا أعرف يا روبيا ما كنت أشعره تجاه آرم. لكن الآن وعندما أفكر بها، الآن وقد سألتني، أعتقد بأن ذلك الشعور كان حتماً شعوراً خاصاً».

كانت الجمرات تخبو بسرعة من المجمرة، قامت روبيا بمعانقتي وبعدها غادرت، اجتازت عتبة الباب وسمعت صوت خطواتها وهي تنزل السلّم الخشبي، وببطء جلستُ على الكرسي جوار النافذة وبدأت أحسو قدح الشاي الثاني وأقضم قطعة من المعجنات الكشميرية الهشّة، وفجأة بدأ الماضي يعود إليَّ شعرت كأني أمتُّ فسحات واسعة من الزمن وأستعيد ذلك اليوم البعيد عندما قمت بزيارة آرم في المستشفى وأول شيء قالته لي بعد صمت طويل:

- «تفوح منك رائحة الثوم، ما الذي أستطيع فعله؟». رددت متسائلاً: «لقد تشبعت مسامات جلدي بالثوم»، فردت عليَّ: «جرِّب قطعة من الليمون، إنها تنفع دائماً».

لن تنفع، دائماً أقول لها ذلك، آرم إنها لا تنفع.

عند الساعة الخامسة نهضت واقفاً ورأيت الحافلة الذاهبة إلى الباكستان تمرُّ أمام كشك الشاي وببطء وما إن لوّحت بيدي صارت الحافلة بنظري كتلة بخار لا يمكن تمييزها فوق الطريق. وفي مكان ما داخل دماغي سمعت اهتزازاً، السيمفونية التاسعة تقترب من نهايتها. لمرات عدة حاولت يدي أن توصل التلويحة لها غير أن حافلتها استمرت بالابتعاد أكثر فأكثر متقهقرة داخل الأرض المحرّمة حتى غدت نقطة سوداء صغيرة. شعرت بأن الوقت قد حان لكي أرتاح قليلاً لأنه ما زال هناك الكثير...، والكثير...، وبعدها بدأت الدنيا تَثْلُج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

السيرة الذاتية للمترجم

الاسم الرباعي: سعد جواد محمد عوض

التحصيل: بكالوريوس آداب.

التخصص: اللغة الانكليزية.

العنوان الوظيفي: رئيس مترجمين أقدم.

الوظائف التي تقلدها:

- مترجم ومحرر في جريدة «بغداد أوبزرفر».
- مترجم ومحرر في مجلة «عراق اليوم».
- رئيس مترجمين أقدم في قسم الترجمة التحريرية في دار المأمون للترجمة والنشر.
- مدير القسم الفني في دار المأمون للترجمة والنشر.
- عضو الهيئة الاستشارية في دار المأمون.
- مدير قسم الترجمة الفورية في دار المأمون للترجمة والنشر.
- مدير قسم الترجمة التحريرية في دار المأمون للترجمة والنشر.

العضوية في النقابات أو الجمعيات:

- عضو عامل في نقابة الصحفيين العراقيين.
- عضو جمعية المترجمين العراقيين.

الخبرة:

- آب 1974 - شباط 1976 مترجم في وزارة الدفاع (الخدمة العسكرية الإلزامية).
- نيسان 1976 - ك1 1977 مترجم في الأمانة العامة لاتحاد الحقوقيين العرب.
- ك2 1978 - تموز 1980 مترجم في دائرة رقابة المطبوعات.
- تموز 1980 - ك2 1991 مترجم في دار المأمون للترجمة والنشر (مجلة العراق اليوم + جريدة بغداد أوبزرفر).
- ك2 1991 - ك1 1991 مترجم مرافق لعدد من الصحفيين البريطانيين في أثناء حرب الخليج الثانية.

- آب 1993 - تموز 2000 مدرس لمادة الترجمة في المعهد العالي للغات والترجمة في بغداد.
- آب 2000 - ك1 2003 مترجم مع مكتب التلفزيون البريطاني BCC بغداد.
- ك2 2004 - مايس 2009 مدرس مادة الترجمة والصوتيات في معهد المنصور للغات.
- حزيران 2009 - وحتى الآن رئيس مترجمين أقدم في دار المأمون للترجمة والنشر.
- ترجمة فورية في المؤتمر الدولي الأول والثاني والثالث للترجمة 2010، 2012، 2013.
- ترجمة فورية في المؤتمر الدولي الأول للملكية الفكرية 2013.
- ترجمة فورية في المؤتمر المحلي لوزارة التربية في بغداد 2013 ومؤتمر الأسيسكو في بغداد 2015.
- تموز 2012 المشاركة بدورة الترجمة الفورية والتحريرية في ماليزيا.

الكتب المترجمة:

- كتاب (سبع سنوات في التبت) ترجمة مشتركة إلى اللغة العربية.
- كتاب (تاريخ علماء بغداد) ترجمة مشتركة إلى اللغة الانكليزية.
- كتاب (مختارو بغداد) ترجمة مشتركة إلى اللغة الانكليزية.
- كتاب (الحملات العسكرية على بغداد) ترجمة مشتركة إلى اللغة الانكليزية.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..